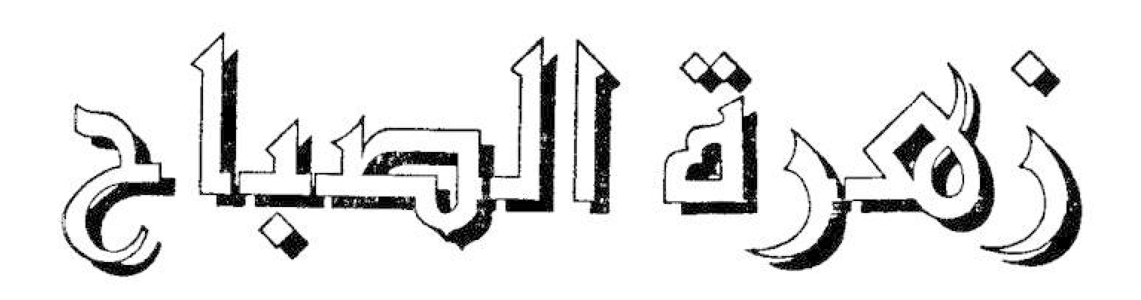
زهرة الصبّاح

محمد جبريل

الهيئة المصرية العامة للكتاب





محمد جبريل



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٥

الاخراج الفنى : رفيق يونس

رسم الغلاف : اهداء من الفنان ناصر الجيلانى

الليلة الثانية

تحركت ــ بتلقائية ــ ناحية الباب ، لسماع الخطوات المقتربة . لم تشعر بانقضاء الوقت ، وهى فى جلستها ، تستند على الجدار ، قبالة الباب . تناوشتها الأفكار . شرقت وغربت . لا تدرى ان كان أبوها يعلم بالحقيقة ، وان غادر البيت ، بزعم التقصى والسؤال . صارحته بما فى نفسها ، فعلا صوته بالتأثر :

ــ وبماذا اعتذر يا زهرة ، ان جاء الجند فى المساء لاصطحابك الى قصر الملك ؟ . .

توالت الحفلات ، ألفتها . لم تتصور أنه قد يأتى عليها الدور . القاهرة تزين المساجد والقصور والبيوت والدكاكين . تدق الطبول من القلعة ، فيزين الناس أسطح البيوت ، ونواصى الشوارع والعطوف ، بالرايات والبنود . حتى نواصى الأزقة ، كانت تعلق فيها القناديل ، وتنصب الخيام على شاطىء النيل ، وتعلو الأغنيات ، وايقاع الدفوف ، وعزف النايات ، ويتلهى الناس بالفرجة على اطلاق الصواريخ . ينزل موكب الملك حافلا بالأبهة والعظمة . من حوله الوزراء والأمراء والحجاب والنواب وأرباب الدولة والعساكر والعلماء والفقهاء وأكابر المشايخ وأعيان الصوفية ووجوه الناس وأهل الوكايل والخانات والتجار وأرباب الحرف . يتقدم الموكب أعداد من قارعى الطبول ، تهتز الأبنية لوقع ضرباتهم ، يليهم حملة المشاعل والبيارق ، وطابور من الموسيقيين يحملون

نايات وقيثارات وآلات وترية وأبواقا ومزامير ، وفرسان على خيل وجمال ، وضعوا على رءوسهم عمائم مسبلة ، وتقلدوا السيوف ، او أمسكوا بالرماح الطوال . ينزل الموكب مصر والقاهرة يشق شوارعها وأزقتها ، وسط الزينات والأفراح ..

احتفال الناس بدخول الملك على عروس جديدة ، لعبة كل يوم ، يجنون من ورائها تكاليف اقامة الزينات التى تفرض عليهم . يأتى الصباح بنبأ اعدام فتاة جديدة ، فيؤلم الناس انهم ساعدوا فيما حدث ، وباركوه ..

حين لاحظ التراخى ، شدد ، فأبناء الحى الواحد يشاركون فى تكاليف اقامة السرادقات والخيام النفيسة ، على جانبى الطريق الذى يمر فيه الموكب ، والأضواء — كل ليلة — تعلو الشوارع والمآذن والمساجد والدكاكين . أهمل الناس — لتوالى الأفراح وعمليات الاعدام — اضاءة المصابيح ، فأهمل التشدد . ظل الأمر قائما ، لكن بلا تنفيذ . توالت حفلات الزفاف ، فلم يعد الناس يتزينون لها ، يعدون المواكب ، ويقعدون جوق المغانى ، ويوقدون الشموع على الدكاكين، ويتخلقون بالزعفران . اعتادوا رؤية المواكب والخلع والتشاريف . مارسوا فيها حياتهم ، ينظرون اليها فى انشغالهم بما فى أيديهم ، ببيعون ويشترون ، ويتحادثون من أخصة المشربيات ، وفى الدكاكين ، وعلى أبواب البيوت ونواصى الدروب، ويلزمون — لمرور المواكب — جانبى الطريق . تعود الحياة الى ما كانت عليه عقب هدوء الغبار الذى تحدثه ..

غالب عبد النبى المتبولى ترده :

— غدا تزفين الى الملك ! ..

مضى قبل أن يأتيه جوابها .

خنقها الفزع ، فأهملت الكلام ، وان لحقته أمها :

ــ أليست دنيا زاد هى التالية فى الترتيب ؟ ..

قال المتبولى :

ــ أشـــــفق الملك على الوزير أن يعدم ابنتيه فى ليلتين متعاقبتين . أجل زفاف دنيا زاد الى يوم آخر ..

شهقت كالمستغربة :

ــ وهل تعرف نفسه الشفقة ؟! ..

صفع الفراغ بظهر يده :

ــ هذا هو ماحدث .. ولا تزيدى فى ايلامى يارقية ..

صـــــرخت :

ــ هل نترك وحيدتنا ليقتلها رجل مجنون ؟! ..

شفع عند الملك فى الكثير من الســـــراة والوجهاء وارباب الدولة ، فهل يعجز فى ذلك بالنسبة لابنته .. ؟

صـــــارحته بما فى نفسها ، فأطلق أ ف ف ف طويلة شأن المتحير . لم يتصور أنه يمكن أن يحادث الملك فى الأمر . يبدو شهريار حين يطلب عروس اليوم التالى ، انسانا آخر غير الذى يستقبله ويناقشه ، ويجالس العلماء والأدباء ، ويدير الحكم . تتغير ملامحه ، فيبدو غضبا خالصا . يتظاهر بالتلفت حوله ، حتى لا يفطن الملك الى ما يبطنه ..

ــ يدى لا تستطيع أن تمتد الا على ما أذن لى الملك فيه ..

قالت رقية فى صراخها :

ـــ لكن ابنتك هى التالية ..

وهو يغالب نفاد صبره :

ـــ لن أنقذ نفسى .. وربما ضيعت كل من حولى ..

ثبتت نظرتها فى عينيه :

ـــ أرى فى تصرفاتك كأنك الملك نفسه .. فهل تقصر عن حماية ابنتك ؟ ..

أردفت فى صوت يداخله نشيج :

ـــ قل له انها وحيدتك .. وأنك رزقت بها بعد أن قاربت الخمسين ..

لما طال بها العقم ، عرضت عليه أن يتزوج بغيرها . تنجب له البنين والبنات . لكنه اعتبر ما حدث قضاء من الله . وحين أخبرته ـــ بلا توقع ـــ انها تعانى أعراض الوحم ، خالطه شعور بالفرحة وعدم التصديق . آيس من الأمر تماما ، فلم يعد يشغله . وافق ـــ للمرة الأولى ـــ أن يكشف على زوجه طبيب رجل ، أكد حمل الزوجة . وضعت وليدتها صباح يوم ربيعى ، فسماها زهرة الصباح . ثم لم تعد الأم تنجب ، فاعتبر وحيدته زهرة حياته كلها ، فرح بها فرحته بالمولود الذكر . أخرج للأولياء ومشـــــايخ الطرق والأرامل ، كل ما كان قد نذره من أطعمة وكساء وأموال ، وعهد بالمولودة الى المراضع والحواضن ..

وهو يدارى انفعاله :

ـــ ابنتى ليست من أمور الحكم .. لكنها تتصـــــل بأمره الشخصى ..

أردف فى تسليم :

ـ عندما يقتل فتاة ، فانما يروى نار الانتقام فى صدره ..
عاودت الصراخ :
ـ خانته امرأة .. فما ذنب الأخريات ؟! ..
فى نفاد صبر :
ـ كره كل جنس النساء ..
ثم وهو يغمض عينيه بتأثر :
ـ أنا فى خوف من هذا اليوم ، منذ أنهى الملك وأخوه عزلتهما التى طالت شهورا ، ليبدأ انتقامه الغريب ! ..

أتى الليل ، وأطفئت القناديل والأسـرجة ، وبدأ العسس طوافهم . كلما اقتربت خطوات ، انتفضت للتصور بأنهم قدموا لاصطحابها . أحست بنفسـها وحيدة أمام الظلام ، والخوف ، وترقب جند الملك . تناهى اليها أصوات فى القاعات السفلية . شهقت ، وتكومت فى مكانها ..

قال لها أبوها فى وقفته على باب الحجرة :
ـ لا تخافى يا زهرة .. فلن تزفى الى الملك ! ..
أستطرد فيما يشبه الهمس :
ـ هذه الليلة فى الأقل ! ..
قال للدهشة فى عينيها :
ـ فاجأت شهرزاد الجميع برواية حكاية ، أجلت بقيتها الى اليوم التالى ، فأجل الملك ما كان فى نيته ! ..
وربت خدها بأصابع مشفقة :
ـ انها حكاية تاجر مع عفريت .. أتى الصبح قبل أن تتمها ..
وفى صوت يخالطه أمل :
ـ من يدرى ماذا ترويه الفتاة هذه الليلة ؟ ..

الليـــلة الأولى(*)

قال الوزير دندان :

ـــ حرام أن تكون ليلة عرس ابنتى الأولى ، هى الأخيرة ! ..

وعلا صوته فى تأكيد :

ـــ اذا كانت ابنتى ستزف الى زوجها وموتها ، فانى سأجهزها بما لم تجهز به عروس من قبل ..

واستطرد موضحا :

ـــ ما أفعله لأجلها اليوم ، لن أقدر أن أفعله غدا ..

مع ان احتفـــالات زفاف كل فتاة ، كانت تنتهى فى الليلة نفسها ، فان الوزير دندان أصر أن يقيم الزينات والأفراح ، كأن احتفالات زفافها ستظل لعشرات الأيام . استأذن الملك ، فضربت البشائر على أبواب الوزراء والأمراء ووجهاء القوم . حث الناس ـ بواسطة أعوانه ورجال الشرطة ـ أن يظهروا الفرح والسرور ، ونودى بالزينة فى مصر والقاهرة وجميع المدن ..

تغالى الناس فى الوقود والانارة . أوقدوا الثريات والسرج والمشـــاعل والقناديل والتنانير الكبار والشموع ، فتحولت المدينة

(*) جرى تعديل بين الفصلين الأول والثانى ، لاعتبارات الحكى .

الى نهار ، وفرشت شقق الحرير الملونة على الشرفات ، ومداخل البيوت ، ونواصى الشوارع والدكاكين ، وأقيمت أقواس النصر فى الطرقات ، ودهنت واجهات البيوت بالطلاء اللامع ، وانتشرت الألعاب فى الساحات والميادين ، ونصبت الخيام على شاطىء النيل ، وامتلأت السفن بالمغنين والمغنيات والراقصات والآلاتية ، وازدانت الصوارى بأنوار الفوانيس الملونة ، وعملت الملاهى فى الأسواق والحارات ، ولبست العساكر ، وكثر الغناء واللعب بالخيل ، وعزفت آلات الطرب : الدفوف الموصلية ، والأعواد العراقية ، والأجناك العجمية ، وصاجات الأيدى ، والطبول ، وأحرق النفط . وأطلقت الصواريخ ، ورفعت الاعلام ، وزينت الرحاب أمام المساجد والمدارس والقصور ، وبسط السجاد الملون فى الشوارع التى يمر بها الموكب ، وتضوعت فى الجو روائح الطيب من المسك والعود والبخور ، وأولمت الولائم ، وذبحت الذبائح ، ومدت الأسمطة الفاخرة ، العامرة بأشهى أنواع المأكولات من لحوم وطيور وحلوى ، وتلا القراء آيات القرآن الكريم ، ومدح المنشدون خير المرسلين ..

لما غادر الموكب بيتالوزير دندان ، أهمل نساء البيت كل مظاهر الفرحة ، فهن فى حال . شققن الثياب ، وتذرعن بالسخام ، وعلا صياحهن وصراخهن ، ينعين العروس التى تزف لموتها ..

غالب الوزير تأثره ، وشخط بما وسعه :

ـــ لا صوت ! ..

امتدت الزينة والبهرجة ، من بيت الوزير دندان الى قلعة الجبل . البيت بظاهر القلعة . أمر شهريار بتشييده للوزير . أنفق عليه من ماله الخاص . عرف عنه أنه يكره سكنى عماله فى القاهرة، حتى لا يتسلط حواشيهم على الرعية ، ولتفويت الفرصة على

ما قد ينشب فى نفوسهم من تآمر ، وميل الى الفتنة . اقيمت المنصات ، تعزف من فوقها جوقات المغنين والمغنيات على النشاب والطنابير والدفوف ، وعلت القصائد المقرونة بالأصوات المطربة ، وارتفعت عقائر النساء بالزغاريد من الشرفات والطرقات ، وشهرزاد داخل هودجها بين النمارق والحشايا والطنافس الجميلة . فى مقدمة الموكب ، الجهاز الذى تقدم به الملك ، والهدايا التى قدمها لها أبوها ..

سار الموكب من حى الطبالة ، على الجسر الطويل بين بركة الرطلى والخليج الناصرى . فى المقدمة حملة المشاعل ، ثم المئات من فرس الديلم ، يرتدون الثياب الموشاة بالقصب ، ويحملون الحراب . ثم حملة العصى ، يتقاذفونها فى الهواء ، فراكبو الجمال ، يضربون كؤوسا معدنية . وركب الآلاتية ظهور الحمير ، يضربون على الطبل ، أو يعزفون على آلات النفخ ، يتبعهم الصهبجية وأولاد عبد السلام ، بثيابهم الواسعة ، الملونة والمزركشة . يتقدمون ويحيطون بالهودج الذى جلست شهرزاد فى داخله ، تنثر عليه خفائف الذهب والفضة ..

استمر الموكب فى سيره ، حتى وصل الى القلعة . لما بدأ الصعود ، دقت الكوسات من جميع الابراج ، تلاها ايقاع الطبول والدفوف والزمور والأبواق ، على امتداد الأسوار ..

كان القصر الأبلق مضاء — على سعته — بالقناديل والشموع . احتشد فى داخله الوزراء والأمراء والقضاة وأبناء البيوتات ومياسير الناس ، وأهل الوكائل والخانات والقياسر والتجار وأرباب الحرف ..

أعلن النائب الكافل — فى وقفته أعلى درجات القصر الأبلق — أن موكب العروس قد وصل الى القصر .

الليلة الثالثة

مضى عبد النبى المتبولى — عبر ممرات وحدائق — الى الباب الرئيسى للقصر الأبلق . المداميك حجرية ، تتناوب ألوانها بين الأصفر والأسود . تبدو — من الخارج — قصرا وحيدا ، لكنه ـ من الداخل ـ ثلاثة قصور ، يتلو أحدها الآخر .. بابه الخارجى يفضى الى دهاليز مفروشة بالرخام ، وأنواع لا حصر لها من الطنافس والبسط ، تنتهى بالقصر الأول ، يشتمل على ايوانين هائلين ، يجلس فى أولهما الملك ، لنظر شئون الدولة . ثم يتجه الى الداخل ، مارا بالقصور الجوانية ..

خلف ايوان الملك وراءه ، واتجه الى القصور الجوانية . أهمل النظر الى الجالسين على المقاعد المصطفة على جانبى البهو الطويل ، تحف به أشجار الورد والياسمين والفل والنرجس وغيرها مما تضوع رائحتها المكان . ثم عدل الى قصور الحريم . دهليز طويل ، فرشت أرضه بالرخام المجزع ، وموهت أسقفه باللازورد ، وفى الجانبين أصص زهور تحمل العديد من الأغصان والأوراق والزينات الحلزونية . أما الجدران ، فقد تدلت منها قناديل وتنانير نحاسية ، مكفتة بالذهب والفضة ، ومشكاوات صغيرة تتوسطها نافورة من الرخام الأبيض .. تنبثق المياه فى الحوض الذى أخذ شكل ثمرة كمثرى هائلة الحجم ، تندفع الى أعلى ، ثم تسقط رذاذا فى خرير هادىء ..

كان دائم التنقل بين القصر الأبلق وقاعات البيسرية والدهيشة والبحرة . ربما نزل الى الأسواق والحدائق داخل القلعة ، يطمئن على الأحوال بنفسه ، ويبدى الملاحظات ، ويصدر الأوامر ، فيظل كل شيء في غاية اكتماله . أضفى عليه زى الوزير مهابة : الدراعة القصيرة ، المفتوحة من النحر الى اسفل الصدر ، وعلى رأسه عمامة ذات طبقات ، ينزل طرفها ليدور حول الحنك ، ويضع حول رقبته طوقا من ذهب ، ويتقلد سيفا محلى بالذهب ، علامة على خضوع أرباب الأقلام والسيوف لأوامره ونواهيه ..

تفقد الدواوين ــ كما اعتاد ، واعتاد الجميع ، كل صباح ــ بعين شاردة : ديوان الجيش ، وقاعة الانشاء ، ودار الوزارة ، وبيت المال ، والزردخانة ، وديوان البريد ، ودور كبار الأمراء . حتى أماكن حفظ السجلات والأضابير ، حرص على أن يتفقدها بنفسه ، ان لحقها اهمال ، أو مزقت ، أو دشتت . أبدى الاهتمام الزائد ، وان كان ذهنه مشغولا بما يعانيه . هل كان يتوقع أن ينتهى أمره الى ما يحياه الآن ؟ . الرحلة طويلة ، منذ أنهى حفظ القرآن فى الكتاب ، وجلس الى إمام المغاربة فى عموده بجامع الأزهر . ثلاث سنوات وأربعة أشهر . أفادته حياة المجاورين ، اختلاف المشارب والاتجاهات ، والمناطق التى قدموا منها . دل على متآمرين من طائفة البهرة ، جعلوا من جامع الأقمر وكرا لنسج مؤامراتهم . بلغ شهريار ما فعله ، فطلب استدعاءه . أدناه منه ، وسأله عن اسمه وبلدته وأحواله . خلع عليه ، وأمر بالحاقه فى طباق القلعة ..

استولى ــ بتقضى الأعوام ــ على أمر الملك ، وعظمت منزلته عنده ، وتحققت له الحظوة فى مجالسه . فهو يقرأ

بين يديه كل الرســـائل الصادرة من دواوين الدولة ، والواردة اليها ، والتى فيها التولية والعزل ، ويكتب الرد على الرســائل الســياسية . واســتغنى عن عامل البريد ، فلا ترفع الى الملك أخبار لا يطلع عليها . ثم أصبح مســئولا عن دار العدل بالقلعة . له أعوان يدعون كتاب الدســت ينســبون الى « دســت » المملكة ، وهى مرتبة جلوســهم بين يدى الملك . يخاطب كلا منهم بالشــيخ الأجل كاتب الدســت الشريف ، وعددهم عشــرون . فاذا ركب كاتب الســر ، كانوا فى خدمته . ثم تعددت مناصــبه ، فتولى ديوان الجيش ، وديوان الخراج ، فرئاسة ديوان الافتاء . فلما صــار كاتب الســر ، آلت اليه أســرار المملكة وخفاياها . فالمكاتبات ترد اليه ، وتصــدر عنه ، وتوقيعه يذيل الرســائل المرسلة الى الولاة . وكان يصحب الســلطان — وربما سبقه — الى رحلات الصيد والنزهة ، يستوثق من الطريق ، ويؤمنه ..

لم يعد السلطان يحفظ عنده مفاتيح ابواب القلعة ، يحضرها اليه المســئولون على الأبواب كل مساء ، ويتسلمونها منه فى الصــباح . ترك الأمر لعبد النبى المتبولى ، فهو يحتفظ بالمفاتيح فى حوزته ، ويشرف بنفســه على فتح أبواب القلعة ، وعلى اغلاقها . وعادته اليومية قبل أن ينزل الى قلعــة الجبــل الى قصــره بالجمالية ، أن يجول خلف أســوار القلعة ، يتفقدها ، ويتفقد الأبراج ، ويطمئن الى يقظة الحراس .

أفلح فى أن يتبوأ مكانته فى مجلس الملك ، وان تكون له منزلة خاصــة فى نفســه . لم يستند الا الى ذكائه وموهبته . كل العاملين فى قصــور الملك والمقــربين اليه ، من الترك والجركس وجنســيات أخرى ، فاقهم باخلاصه ودأبه وحرصه

على رضاء الملك . كاتب السـر منصـب يقترب ، وان نقص قليلا ، من منصـب الوزير . أمر له بأموال وعبيد وغلمان ، وبخلع عظيمة ، وجمال وبغال وجياد من خاص مركوبه . وعين له الرواتب والجرايات . وأهداه أراض زراعية وأخرى للبناء . وأجرى عليه راتبا من الخبز واللحم والتوابل والحـلو والعليق والمسامحات .

لم يقتصر دوره على ابداء المشورة للملك ، انما جاوزه الى تنظيم المناسبات الدينية ، والنفقات الزائدة ، واعداد الجيوش ؛ وجباية الخراج ، وتصريف أمور الكافة ، واقامة الحدود ، والنظر فى جميع وجوه القضـاء ، والحكم فى الدماء والابضـاع والأموال والحلال والحرام ، وجميع وجوه الحسـبة والسواحل والاعشـار والجوالى والأحباس والمواريث والشرطتين وتوزيع الاقطاعات . ثم أوكل اليه الملك مسـئولية تدبير أمور المملكة ، وجعله رسولا الى ولاته ، يبلغهم تعاليمه ومراسـيمه وأحكامه . وكان يؤم المصـلين ــ أحيانا ــ فى صـلاة الجمع والأعياد بالجامع الأزهر ، نائبا عن الملك . خطبته عفو الخاطر ، لا يقرأ من ورقة ، ولا يعد كلاما محددا . انما هى كلمات يختارها وفق المناسبات ، وان أكد فى كل خطبة على دعوة الدين الى طاعة أولى الأمر . لضمان سير الأمور ، تخلص من كل الذين يشتبه فى منافستهم على السـلطة ، أو أنهم قد يثيرون الفتن . وعين أعوانه فى الوظائف الرئيسـية . وكان يشـدد على اختيار أعوانه ، يطمئن من أحوالهم الخاصـة والعامة ، ومن ارصاده ، انهم لا يخامرون عليه ، ولا يخضـعون لسلطة رأى آخر ، ولا يخونونه ، ولا يغدرونه ، ويعتبرون قراراته ومراسـيمه واجبة النفاذ . عرف مـكانة الوزير دندان عند الملك ، فلم يبادر نحوه بشـر . ثم تعقب كل من يخشى منافسـته من كبار الموظفين ،

فتخلص منهم الواحد بعد الآخر ، حتى خلاله الجو تماما . سيطر على الأمور داخل قلعة الجبل وخارجها ، وأشـــرف على تولية الوظائف الكبـرى كقضـــاء العســـكر ، وافتـاء دار العـدل ، والحســـبة ، ووكالة بيت المال ، ومشـــيخة الشيوخ ، وعلى دواوين الدولة : الخراج والنفقـات والرسـائل والتوقيع والخبر والنظر فى المظالم والبريد . وصـــار اليه تعيين الولاة والموظفين — بعد مراجعة الوزير — وادارة مالية البلاد ، والاشـــراف على جمع الضـــرائب ، وانفاقها ، حتى صـــار مقدما — فى واقع الحال — على الوزير نفســـه . بيده الحل والعقد والأمر والنهى والبذخ والانفاق ، وهو المتصرف المطلق فى كل أمر . لم يكن يخفى عليه من أحوال موظفيه شىء . وكانوا — من ناحيتهم — يخافونه مخافة شـــديدة ، ويترددون فى الاتيان بعمل قد يثير حفيظته . . وكان يعزل حالا أى أميرين قائدى ألوف يتعـــارك جنودهما فى الشـــوارع . لا يدقق فى الواقعة ، ولا ينصـــر أميرا أو قائدا على الآخر ، مهما كان لصـــيقا به ، أو قريبا الى نفســـه . يبلغ المتبولى نبأ ما حدث فى أحد الأحياء . يلتقى الجنود فى معركة دامية . تغلق أبواب البيوت والنوافذ والدكاكين ، وتخلو الشوارع والعطوف ، الا من المتاريس ولابسى الثياب العســـكرية ووقع الضـــربات والصـــرخات وحشـــرجات الموت والدماء المتناثرة فى أرض الطريق وعلى الجدران . يأمر فيعزل المتســـببان فى الفعلة الدامية ، ويســـرح جنودهما . يواجهان عقوبة الحبس ، أو بلزوم مقبرتيهما ، لا يخرجان الى المدينة ، ولا يصـــعدان الى قلعة الجبل ، الا اذا أصدر الملك أمر العفو .

عرف عنه ميله الى التشـــدد مع النســـاء . منعهن من الخروج الى الأســـواق ، والى المقابر . حتى الحمامات العامة حظر عليهن دخولها الا فى أوقات محددة تخلو فيها من اى رجل .

حتى الحراس ، وضـــع بدلا منهم حراســـا من النســـاء ، وظيفتهن الأولى منع أى رجل من التصلص على ما بداخل الحمام . وحرم الزار ورقص النســـاء ، ووضـــع الرجال أيديهم فى يد أية امرأة أجنبية ، ومشى النساء الى القبور ، والأفراح ، وحفلات الزفاف . وحظر اختلاط النســـاء بالرجال فى الأسواق . ومنع النســـاء من الجلوس فى الطرقات العامة ، وأمام البيوت . وقام بنفســـه ــ أحيانا ــ بمتابعة وظائف المحتسب . فهو يفاجىء الأسواق ، يتأكد من نظافتها ، ومن توافر الســـلع ، ومن انعدام الغش والاحتكـار والظلـم .. ويشـدد على أيدى المعلمين ، فلا يضربون صـــبيانهم . وأمر بازالة مصـــاطب الدكاكين فى بعض الشـــوارع ، كى يفسح الســـبيل للعابرين . وألزم أصحاب الدكاكين بكنس الأسواق ، ورشـــها ، ومنع طرح الكناسة فى الطـــرقات ، وحظـــر على الجزارين ذبح الماشـــية على أبواب الدكاكين ، حتى لا يلوثوا الطريق بدمائها . ومنع الباعة المقعدين من الجلوس على الطريق . خصص لهم أســـواقا منظمة يبيعون فيها ويشترون . وحظر دخول الأســـواق على جلابى الحطب والتبن وأحمال الحلفاء والشـــوك وغيرهم . وربما اســـتوقف ســـائرا فى الطريق ، فسأله عما اشـتراه ، وثمنـه ، والأحوال التى يشكو منها . ينزل الأســـواق ، فى يده درة من جلد البقر ، يهوش بها ، فلا تنزل على جســـم بائع ، الا اذا ظهر غشـــه وخيانته ، فهو يسبق بها مقارع الجند فى ضرب الرجل

شـــدد ، فاتجهت الاســـواق نحو الشوارع الفسيحة ، حتى لا تجرح الســـكان الآمنين ، ولا يتأذى أصـــحاب حرفة ما بأصـــحاب الحرف الأخرى . وانتشـــر رجاله فى الاسواق والشوارع والدروب والعطوف والأزقة ، يراقبون النظافة ، يمنعون

طرح الكناسة على الجوانب ، وقذف قشر البطيخ أو الموز ، أو رش الماء الوسخ ، حتى لا يواجه المارة الزلق والسقوط . بحظرون ارسال الماء من المزاريب ، يشددون على كسح مياه المطر والأوحال . وعهد الى المهندسين باصلاح الطرقات وتوسعتها وهدم ما قدم منها . خصص الأموال لاصلاح السدود ، وشحن الثغور ، وضبط الأطراف . وتجفيف المستنقعات ، واحياء الأرض البور ، وفتح القنوات المسدودة . خصص الاموال لبناء مسجد جامع ، فيه مجلس للخاصة ، ومجلس للكافة ، وثالث للنساء . التقى — بعد غيبة — تحت أعمدة الأزهر وبين جوانبه ، العلماء والطلاب ، يتدارسون أصول الدين وأركانه ، ويتدبرون آيات القرآن ، ويحيطون بسنة الرسول وأحاديثه . أجرى عليهم الرواتب الدائمة من الخبز واللحم والتوابل والحلوى والعليق والمسامحات . أمر ببناء الكثير من الدور والقصور والقلاع والحصون والأبراج والمساجد والكتاتيب والمدارس والربط والزوايا والخانقاوات ودور العلم وقنوات المياه والجسور والقناطر والأسبلة والحمامات والبيمارستانات والخانات والقياسر في الأسواق ، والتكايا للصوفية ، والمناظر والمتنزهات . خصص المبالغ لاقامة المستشفيات والمدارس الى جانب المساجد ، فلا تقتصر على العبادة . ترافقها مهام أخرى ترعى شئون الناس ، وتلبى احتياجاتهم . أوقف على الجوامع والمساجد والمدارس والزوايا والربط ومساقي الحيوان وأنواع البر والقربات وجهات الخير .. بدأ شغل الأراضي الفضاء فيما حول القاهرة بالعمائر السكنية والمساجد والمعامل والمدارس وغيرها ... واصل عمران المدينة ، وتتصل مبانيها ، فلا تظل منفصلة . وخصص المبالغ لانشاء دار للضيافة ، تستقبل القادمين الى القاهرة من مدن الاقاليم ، وبلاد

العالم . حاسب رجاله على التهاون فى ابعاد من كانت صناعته تحتاج الى وقود نار كالطباخ والحداد والفران ، عن دكاكين العطارة والبزارة والنجارة ، حتى لا تنتقل النار اليها ، وتحدث الاضرار . حظر على الدكاكين فتح أبوابها عند صلاة الجمعة ، لا تعيد فتحها الا بعد انقضاء الصلاة · أبطل بيوت الحشيش والخمر والنبيذ والبوظة· وحرم تعاطى الخمر والقهوة وتدخين الطباق واستحلاب الأفيون والحشيش . وفرض الحد على كل من شرب الخمر ، وان لم يسكر ·· عمل بفتوى العلماء ان كل ما أسكر كثيره أو قليله من خمر ، حد شاربه سواء سكر منه أو لم يسكر . ارتفعت — بعد غيبة — أصوات موالج البنائين . ولم يعد التجار يعبأون باغلاق دكاكينهم ، فلا خشية من السرقة أو اقتحام اللصوص ..

صار يحكم بين الناس ، الى حد أنه استغنى — فى بعض القضايا — عن عمل القاضى . وكانت ترفع اليه الأمور المتعلقة بجرائم الفوضى والشغب واقلاق راحة الناس ، فهو يتخذ فيها أحكاما سريعة ، باترة ، أسرع مما يتخذه قضاة الشرع . يحكم بالقرائن ، ولا يتقيد بشهادة الشهود ، ويأمر بضرب المتهم ، أو يضربه بنفسه ، لحمله على قول الصدق ·· ولا يقضى الا بعد أن يقلب المسألة ويتدبرها ·· ينظر اليها من زوايا مختلفة ، ويزن الممكنات والمحتملات ، وينظر فى التفصيلات والدقائق ، فيقضى بما يرى أنه الصواب ·· شدد على رجاله ، فهم لا ينالون المجرمين بأى عقاب . حدد لذلك قواعد ومواصفات . لابد أن يكون فى السجن حد أدنى لما يجب أن يحيا فيه الانسان . اذا جلد المجرم ، يجلد — فحسب — بسوط معتدل بين القضب والعصا ،

لا رطب ولا يابس . ويفرق السـياط على الأعضـاء ، ويتقى الوجه والمقاتل . وعرف عنه أنه لم يأمر بالكبس على بيت لشائعة ، أو لهوى شخصي . لكنه يتأكد مما ينسـب الى صاحب البيت . يأمر رجاله بالبحث والتقصى والمراقبة ، حتى يطمئن الى الخطأ الاتهام تماما ، فيأمر بالكبس على البيت . ألزم شـيخ كل طائفة بأن يقدم تعهدا بأنه مسئول عن الأمن والنظام بين أبناء طائفته ، وانه يرشـد عن الغرباء الذين يندسـون فى مهنته ، وعن مثيرى القلاقل والفتن . أذن لرجاله أن يقتحموا أى مكان ـ بيتا أو دكانا أو حماما ـ تتناهى منه ضحكة عابثة ، أو كلمات معيبة .. لا ادعاء بأن المكان أغلق أبوابه ، أو تعلوه الأسـوار . مادامت الآذان التقطت ما يختفى وراء الجدران ، فلابد أن ينـال المخطىء جزاءه . بث عيونه فى المسـاجد والقصـور والخانات وداخل الأسواق . وعلى نواصى الشوارع والميادين .. يختلطون بالناس ، ويتقصون الأخبار ، فيحملونها اليه بلا تأخير ، ينقلون كل ما تراه عيونهم ، أو تلتقطه آذانهم . لا يسـلم جنبه الى النوم قبل أن يقف على ما يجرى فى المدينة . يقلب كل أمر على وجوهه ، ويقضى بما يرى انه الصـواب . ربما اعتبر ما حدث من تبيل الثرثرة فلا يؤبه له .. قد يقضى بالاعتقـال والمصـادرة ، أو التصـفية الجسـدية ان جاوزت التصـرفات حد التحسب . كان يصل اليه فى كل يوم مئات الرقاع ، تتحدث عن الأحوال فى الأقاليم ، أو حارات القاهرة . يطلب من معاونيه ابلاغه برءوس الموضوعات ، وما يمس الأمن .. يترك لهم ما لا خطر منه ، ولا يؤثر على أمـن البلاد .. أكثر من ولاة الطواف ، يطوفون بالشـوارع والدروب والعطوف والأزقة ، يتأكدون من استتباب الأمن ، وغياب ما يريب . وزاد ، فجعل على رأس كل سـوق من أسـواق القاهرة ، راصـد يعنى بمراقبة الوجوه الطارئة والمشـبوهة . يعطى

الاشـــارة المعينة . وأكثر من العسس وحراس الليل . يراقبون أبواب المدينة . يوقفون من لا يحمل مصـــباحا فى الســير ليلا . وطالب الجنود والعسس بألا يأذنوا لأحد بالانتقال من حارة الى أخرى ، ما لم يتبينوا هويته ، وســلامة مقصــده ، وما اذا كانت الحاجة تدعو الى ترك حارته بالفعل .

اتضــحت أمامه أحوال مصــر والقاهرة ، لا يخفى عليه منها شىء . لا أحد من ســكان المدينة يتحدث بحديث فى أية ســاعة من اليوم الا ويبيت خبره عنده . لا يخفى عليه ســر فى قصــورها ولا مخادعها ولا أســواقها . الملاحظة أو الدعابة تصــله بعد لحظات من قولها . ينقلها اليه عيونه المبثوثون فى كل مكان . حتى لو بدت تافهة ، فانه يجد فيها من المعــانى ما لا يجده الآخرون . فلما انصــرف الملك الى حفلات الاعدام اليومية، سيطر على الدولة ، وتصــرف فى الأمور بما يرى انه الصواب . يثبت ، ويخلع ، ويكافىء ، ويسرف فى العقاب ، ويبسط يده فى الاطلاق والعطاء والصــلات بالأموال والثياب . حتى القصــر الأبلق ، وضع به رقباء من الحاشية ، يعطون انتباههم لكل تصرف وقول واشــارة ، يبلغونه اليه بالكيفية التى شــاهدوه عليها ، لا يضيفون ولا يحذفون ، ولا يلجأون الى الخيال . الحادثة كما جرت . الكلمات كما قيلت . الاشارة من البدء الى الختام . المعنى يفطن اليه كاتب السر وحده ، هو الذى يتوصل اليه .

صار تدبير المملكة اليه ، يعزل ويولى ، من غير مشورة الملك نفسه . ألزم الناس بالترجل عليه ، وتعالى على رجال الدولة ، وأعطى لنفسه الحق فى أن تدق الطبول على أبواب قصره ، مثلما يحدث فى قصر الملك . زاد ، فصــنع لنفســه — فى مجالســه ومواكبه — شعائر مقصورة على الملك . اقتنى الجوارى والمماليك

والعبيد والخصيان . يتقدم موكبه فى المناسبات المهمة والأعياد : الطبول والأبواق والاعلام ، يختلف فى التفصيلات بما لا يغير نفس الملك عليه ، وان سار حوله الحجاب ورجال الحاشية ، فبلغوا ستمائة ..

حين بدأ تسلسل الحلقات ، لم يتخيل انها ستنتهى الى زهرة الصباح . أخبرته القهرمانة نجوى بالأسماء ، قبل مثوله أمام الملك ، ليبلغه بخطبة ابنته . خمسة وعشرين اسما لخمسة وعشرين يوما متتالية . كان قد أعد نفسه ، وان أذهله قول الملك :

ـ خطبت ابنتك زهرة الصباح لنفسى ..

هل أنجب ، وربى ، وأحب ، واختزن التفصيلات الكثيرة ، والذكريات ، ليحصد الملك ذلك كله بضربة سيف ؟! .

***

عدل الى قصور الحريم . دهليز طويل ، مضاء ، مفروش بالسجاد . ينتهى بقاعة واسعة ، علق فى سـقفها وجدرانها القناديل الموقدة ، والشموع المضيئة . وعلى النوافذ والشرفات ستائر من الحرير المنسوج بخيوط الذهب ..

وقف على باب الجناح ، وخاطب المخصى الواقف فى مدخله . لا يؤذن لأى كان بعبور الباب ، ولا رؤية ما بداخله ..

غاب المخصى بالنداء ..

أحس باقترابها من وقع خلخال قدميها . تنبه من شروده ، وترقب خروجها من الباب المغلق :

ـ نجـوى ! ..

قالت للقلق فى عينيه :

ــ الحمد لله .. يبدو أن الحكاية ستتحول الى حكايات

فى حوالى الثلاثين . تذكر له أنه هو الذى الحقها بالقصر ، وتوسط لها حتى أصبحت القهرمانة ، المشرفة على القصر ، وعلى الجوارى . أتت من بلادها بالشرق البعيد . يتيمة الأبوين .. اشتراها ــ كما صارحها ــ لبراءة ملامحها ، ولاشفاقه من تعرية جسمها فى سوق الرقيق . ألحقها بالقصر ، فأنستها الفرحة ما هو معروف من أنه اذا دخلت الجارية حريم الملك ، فان عليها أن تنسى تماما حياتها فى الخارج . الناس والتصرفات والأقوال ، تنسى حتى أهلها وأصدقاءها ، كأنها ولدت فى القصر ، وتظل فيه حتى يقضى الله ــ سبحانه ــ بانتقالها الى مقابر حريم الملك فى الناحية الغربية من قلعة الجبل .

أهمل عبد النبى المتبولى سؤالها عن أصلها وأهلها ، والبلد الذى أتت منه ، وان وشى بياض بشرتها ، وعيناها الزرقاوان ، وأنفها الواسع المنخارين ، وقامتها الفارعة ، انها من بلاد الشرق كارمينيا أو القوقاز . وبدت لغتها العربية سليمة واضحة النبرات ، كأنها ولدت فى القاهرة . استوقفه ــ حين رآها للمرة الأولى فى صحبة النخاس ، وناقشها ــ خفة روحها ، وذكاؤها ، وسرعة بديهتها ، فلم يناقش فى ثمنها ، وطلب أن تلزم حريمه ..

لم تكن بالغة الجمال ، وان استهوته ، وشدت بحضورها كل من يلتقى بها ، أو يجالسها . لا تسرف ــ على عادة الجوارى ــ فى استخدام المساحيق والأصباغ . انما هى تحاول اظهار مواطن الحسن فى وجهها ، دون مغالاة ..

عرف من مجالساته لها انها قرأت القرآن والعلوم ، وحفظت الكثير من الحكايات والقصائد والنوادر والأخبار ، وتعلمت الحكمة

والأدب ، وتبحرت فى أحاديث الملك وحكايات المحبين ، وأجادت أنواع اللعب والآلات ، وبرعت فى المغنى وآلات الملاهى . تجيد الغناء بصوت شجى ، وتحسن الضرب على العود بما يضارع افضل العازفين . تحسن التصفيق بيديها فى ايقاع منغم ، فهى تعد مكملة للفرق الموسيقية ..

كانت تحسن ادارة القصر ، لا تغفل عيناها عما يدور فى قاعاته وأبهائه . حتى أحوال الخدم والعبيد كان لها فيها كلمة . لم تكن تحابى جارية على أخرى الا بمقدار رضاء عبد النبى المتبولى عنها ، واخلاصها فيما يوكل اليها من مهام . ترعى التفصيلات الصغيرة ، فلا تفلتها ، وتجيد الحديث والحوار والأخذ والرد والتأدب فى مجالس الكبار ، والترقق فى مجالس البسطاء ، والمغالاة فى الشدة اذا اقتضى الأمر ذلك . حتى آداب الطعام تعلمتها ، فهى تسمى فى أول الأكل ، وتحمد الله وتشكره فى آخره ، وتأكل بأطراف أصابع ثلاثة ، وتصغر اللقمة ، وتطيل المضغة ، فلا تبتلعها ، انما تتركها تذوب مع لعاب الفم الى المعدة ، وتحرص فلا تتكلم أثناء الأكل ..

جربها فى الكثير من التصرفات والمواقف ، فكانت على حسن توقعه . أظهر ثقته فيها ، وزاد فى اكرامها ، وعهد اليها بما يشغله من أمور القصر ، فالتمعت الغيرة فى عينى زوجته . لم تصرح بما فى نفسها ، وان توضح فى نظرات عينيها واحتداد طبعها ، وانصرافها — وهى صاحبة القصر — عن المكان الذى تدخله نجوى . أصرت أن يقتصر جوارى القصر على الزنجيات ، رفضت الحبشيات والشقراوات . يرغبن فى خدمة السيد لا خدمة البيت .. يتطلعن الى دور المحظية ، وان أدى الأمر الى انشغال الرجل عن نساء بيته ..

رفضت نجوى منذ أرسلها الى البيت . رفضتها لبشرتها البيضاء ، وشعرها الحنطى المرسل ، وعينيها الزرقاوين . الزمها بالبقاء فى المطابخ طيلة الأيام العشرين التى قضتها فى القصر . زاد اصرارها على رفض الفتاة لما أشاد عبد النبى المتبولى بمزاياها . لم تظهر رايها حتى لا تغضبه أو تدفعه الى ركوب راسه ، لكنها أعرضت عن استخدامها ، أو المناداة عليها ، أو حتى التحدث اليها . تلحق استدعاء عبد النبى لها بدفع جوار من اللائى يشغفى بهن القصر ، أو تأتى بنفسها ، فلا يحرص على نجوى . لم يشأ المتبولى اغضاب زوجته ، ولا ابتعاد نجوى عن حياته ، أهداها الى الملك شهريار . يتردد علبها حسين يتردد على القصر . يحادثها ان التقى بها فى احدى القاعات ، أو يستدعيها ان كانت مقيمة فى أجنحة الحريم . يستشيرها فيما استعصى عليه من مشكلات ، ويطلب النصيحة دون ان يجد فى ذلك ضعفا أو غضاضة . يساعده على ذلك تأدبها فى مجلسه ، وخضوعها ، ولين عباراتها . فضلا عن الآراء السديدة ، حين يصارحها بكل ما يشغله ، أو يطرأ عليه من مشكلات . اذا تحدثت ، لم يجاوز صوتها الهمس . اما اذا انصتت ، فان عينيها لا تفارقان الأرض ، وتبدى الاهتمام والخضوع والطاعة . لم تطمع — يوما — فى أن تكون محظية الملك . ولم تطمع من قبل فى أن تكون محظية لعبد النبى المتبولى . لزمت حدودها ، وقنعت بالمكانة التى تتسع بتفانيها ، دون أن تبتذل نفسها ، أو تترك جسمها يبول فيه رجل ، ولو كان سيدها . وعندما قال لها المتبولى مداعبا : هل انت سحاقية .. ظلت على صمتها المؤدب . ثم استأذنت ، وانصرفت .

لم يدهشه انها ارتقت فى قصر الملك ، وتميزت بين الجوارى : حضورها ، وقوة شخصيتها ، وسرعة تلبيتها ، وتفانيها فيما يوكل اليها ، وحسن قيادتها للموظفين والعبيد والجوارى ، قربها من نفس شهريار ، فصار يعهد اليها — أحيانا — بما كان يعهده الى رجال القصر . يتابع النتائج ، فتسره ، ويزداد اعتماده عليها . ثم الزمها أن تظل بالقرب من مجلسه الخاص مع زوجاته . الباب من خلفه عليه ستور ، والحركة الهامسة تشى بوقفتها ، لا تبتعد ، حتى ينصرف الى غرفة نومه ، ويقتاد السياف مسرور زوج تلك الليلة الى مصيرها المحتوم .

كان قصر الملك بلا محظيات . كل الجوارى وصيفات ، فيما عدا نجوى . لم تكن جارية الا بالاسم ، فهى ليست محظية ولا وصيفة . انما هى أقرب الى الملك من أعوانه واقرب مستشاريه. ولولا ان السياسة ليست شغلها ، فانها كانت تستطيع أن تؤدى دورا — فى حياة الملك ومصر — لا يؤديه الوزير نفسه . أوكل اليها الكثير من شئون القصر وملحقاته ، مما يعد من مهام الوزير وكاتب السر . أوكل اليها حتى اعداد الفتيات فى أيام زفافهن اليه . تستقبل الفتاة ، من أهلها ، أو من الشرطة ، فتعهد بها الى الوصيفات والدلالة والماشطة ، لا تتركها — ولا تتركهن — حتى تكون قد استعدت تماما لاستقبال الملك . توصيها بما يجب عليها ان تلتزم به عندما يدخل عليها ، وعندما تجلس اليه . حتى مضاجعة الملك لها . كانت تشدد على الفتاة أن تجعلها لحظات سعادة فى نفس الملك ، فلا تشرد ، أو تسرح ، فيما ينتظرها بعد أن يطأها شهريار . تخلص فى عناقه . تعلن الفرحة — ولو بالتظاهر . تبذل كل ما تعلمته من أفانين . تضع فى بالها ان الليلة الواحدة سيتبعها ليال

وليال، الى ما لا نهاية . وكانت هى المســـئولة عن ابقاء الجوارى الجدد ، أو اعادة بيعهن . ان تأكد ذكاؤها وصـــحة جســمها ، ابقتها فى اجنحة الحريم ، وكلفتها بما تســـتطيع اداؤه . فاذا كانت تعانى مرضـــا كالشـــخير ، او صرير الاسنان ، أو التحدث أثناء النوم ، تأمر باعادتها الى النخاس الذى جلبها ..

قال وهو يتجه ـ بقلق ـ الى عينيها :

ـ ماذا حدث بعد أن روت له الحكاية .. ؟

شملته بنظرة اشفاق :

ـ ناما بعد أن وعدته باستكمالها اذا جاء المساء ..

همس بلهفة :

ـ لم يقتلها اذن ؟! ..

وهى تغتصب ابتسامة :

ـ غادرا مخدعهما وهما يتضاحكان ..

قال فى لهفته :

ـ هل هى الحكاية نفسها ؟ ..

ـ نعم .. حكاية التاجر مع العفريت ..

عض ابهامه كالمتأمل ، ثم قال :

ـ وماذا ترين ؟ ..

واجهت عينيه :

ـ الفتـاة ذكيـة .. ومن الواضح أن حكايتها بداية حيلة لاطالة عمرها ..

المكانة التى تحققت لها فى القصر ، جعلت فى مقدورها رؤية الملك . الاقتراب من مجلسه ، وتلبية نداءاته ، وخدمته فى كل ما يأمر . وكان أحيانا يوليها شرف المثول فى نهاية مجلسه . وكانت — فى معظم الليالى — آخر من يلقى تحية المساء عليه ، وتهمس له — بتأدب — فى ضوء كل نهار : صباح الخير ! ..

كانت تدخل قاعة الملك دون اذن ، وتنتظر واقفة ، دون أن تخشى النهر أو العقاب ، وتقترب بفمها من أذن الملك ، فلا يجد الحضور ، من الوزراء والأمراء وكبار رجال الدولة ، فى تصرفها ما يشين . عرف أنها — الى الليلة التى جلس فيها الى شهرزاد — كانت تنادمه ، وتنشد عنده الأشعار ، وتحدثه بنوادر الحكايات والقصص ..

أبدى عبد النبى المتبولى — ذات يوم — اعجابه بما وصلت اليه من مكانة داخل القصر . قالت بصوتها الهامس ، دون أن ترفع رأسها :

ـ انى ـ فى نهاية الأمر ـ جارية .. ومهما نسيت من أشياء ، فلن أنسى كشف النخاسين لوجهى ، وتقليبهم لى ، لأجل البيع ! ..

همس فى قلقه :

— هل أطمئن زهرة الصباح ؟

— انها ابنتك وليس بمقدورك سوى طمأنتها .

وهو يهز رأسه :

— هذا صحيح ..

غالبت ترددها :

ـــ سيدى .. من الذى يختار للملك التالية ، فالتالية .. ؟

فى استغراب واضح :

ـــ ألا تعرفين ؟! ..

أردف وهو يتلفت ـــ بعفوية ـــ حوله :

ـــ وأنا أيضا لا أعرف ! .. لكنهم أعدوا قوائم كاملة بكل بنات الناس فى مصر والقاهرة ..

وهى تمصمص شفتيها :

ـــ اليس لهم بنات ؟! ..

قال فى صوت منفعل :

ـــ لقد وضعوا أسماء الأخريات ، وأغفلوا أسماء بناتهم ..

التمعت عيناها باندهاش واضح :

ـــ من هم ؟ ..

زوى ما بين حاجبيه لحظات ، ثم قال :

ـــ لا أحد يعرف وظائفهم .. ولعلهم بلا وظائف محددة .. لكنهم أخطر من خاصة الملك ! ..

***

عاد ثانية من القصور الجوانية الى الايوان الكبير . دخل غرفته ، فارتدى بدلته الخاصة ، والعمامة التى لا يضعها على رأسه سواه . وحمل دواة الحبر ، ليكتب ما يمليه عليه الملك ..

دخل اليه الخدم برســـائل مما يحمل الطير ، وأوراق بريد الولاة ، وتقارير الصباح من محتسب القاهرة ، وولاة الاقاليم ..

سار فى الممر الطويل ، المفضى الى ايوان الملك . الأرض مرصوفة بالفسيفساء ، والأعمدة الهائلة من الرخام الأبيض والمجزع والأحمر ، والأسقف مزدانة بالزخارف الذهبية ، والماء يتصاعد من النافورات التى تتوسط المكان ، والأحواض ، والقنوات المرصوفة بالرخام ، وحدائق الطير والحيوان ..

تناثر الخدم فى الأبهاء ، حول خصورهم بنود من الحرير الأصفر ، وفى يد كل واحدة صينية ملأى بالحلوى والمشروبات ..

جلس الملك على كرسى عظيم ، مطعم بالعاج والأبنوس ، مكسو بالمخمل ، من حوله كبار الأمراء وقضاة القضاة الأربعة والعلماء ونواب الاقاليم وولاة الحسبة وسائر الاعمال ..

رحب الملك بدخوله . ادناه ، والطف سؤاله ، واجلسه على كرسى ، دون كرسيه بقليل ..

بدا الوزير — على يمين الملك — منكمشا على نفسه ، وبلا حول . لم تشفع له مكانته ، ولا الحفلات التى لم تشهد مصر والقاهرة مثلها من قبل ، وان أفلحت حكايات شهرزاد فى انقاذ عنقها — صبيحة الزفاف — من سيف مسرور . أنا أعانى مثلما تعانى وأكثر . ربما يعفو شهريار عن دنيا زاد ، حتى لا يثكلك بفقد ابنتيك . لكن زهرة الصباح هى ابنتى الوحيدة . واجهنى بأنها ستكون التالية لشهرزاد .. فأى معنى للحياة ؟ ..

قال الملك للفارس الواقف أمامه :

— أمامك ثلاث ساعات ، تصل فيها الى بلبيس . ثم غادرها قبل العصر لتصل الى مدينة القدس بعد يومين . لا تقابل أحدا ،

وانما واصل الطريق ـ بعد الراحة ـ الى مدينة البصرة ، لتصلها مساء اليوم الثالث . سيكون فى انتظارك والى المدينة ، لتسلمه هذه الرسالة ..

تنبه الى عبد النبى المتبولى :

ـ مع ان سيف مسرور لم يقطف منذ فترة ، عنق امرأة .. فان وزيرنا دندان بلا نفع من قبل زفاف ابنته الينا ..

أردف لأول صف الشاكين وذوى الخصومة ، أصحاب العرائض والطلبات :

ـ ان ما يقرره عبد النبى المتبولى هو مشيئتنا ..

هل ينسى الرجل أنه ربما يأمر الليلة باعدام ابنتى .. وهل يقبل قرارى لو أمرت بقتله هو نفسه ؟! ..

عرض الناس مطالبهم وشكاياتهم ، فقضى فيها بعقل غائب . لا يدرى مدى الصواب أو الخطأ، ولا اقتراب ما يصدر عنه من العدل أو ابتعاده عنه . ثبت وولى وعزل ورقى ونفى وأمر ونهى وأعطى ووهب . ساعده صمت الناس ، تقبلهم لما يقرره .. اعتادوا قسوة أحكام الملك . من يقتل امرأة كل ليلة بلا ذنب ، هل يصح مناقشته فى أحكام السجن والجلد والمصادرة ؟! . الملك هو كل شىء .. الوزراء والأمراء وعامة الناس بين يديه ، دمى لا حول لها ولا قوة . يتهددهم الموت لأسباب تافهة ، أو بلا سبب . يزهق أرواحهم متى شاء ، ويخلى حرياتهم فى الوقت الذى يحدده . وعرف انه يقتل أقرب الناس ، ومهما كانوا لصيقين بمجلسه اذا تسللت الى أنفه رائحة الخيانة . القتل بالشبهة أفضل من الندم على ضياع الفرصة .

نسى الناس – حتى عبد النبى المتبولى – كيف بدأ الأمر . متى بدأت الحلقات المشئومة ، حين تزوج شهريار فتاة ، وبات معها ليلة ، ثم قتلها فى الغد ! ..

قالت له رقية وهو يعد نفسه لمغادرة حجرة النوم :

– ربما لم تخنه المرأة أصلا ..

قال فى صوت متثائب :

– أية امرأة ؟! ..

– من يدفع ثمن خيانتها كل النساء ..

وهو يمشط لحيته :

– حدث مشهد الخيانة أمام عينى شاهزمان .. شقيقه الأصغر ..

– خانته امرأة .. فلماذا ينتقم من كل النساء ؟..

قال كالمتذكر :

– لم يكن فى زمانه من هو أحسن منه ! ..

أضاف بصوت غلبه التأثر :

– حكم بالعدل عشرين عاما .. ثم غيرت الملعونة فى حياته كل شىء ! .

وهى تنفض رأسها :

– لا أتصور ! .. الظلم عادة ! ..

قهره ما هو أقسى من الموت ، لما كتب بنفسه مرسوم السلطان . ينادى به المنادون فى الأسواق ، يعلنون منع التحدث

فى أمور القصر ، وأخبار الحاكم ، والا واجهوا العقاب . حتى التى تزف ابنته الى الملك ، تنتهى صلته بها بمجرد انتقالها الى قصره . كلما سمع عن جمال فتاة فى المدينة ، أمر بأن تنتظم فى عقد الفتيات اللائى يستقبل فراشه احداهن كل صباح ، لا يقربها سفاحا . انما يعقد عليها ، ويشهد الشهود . فاذا جاء الصباح ، أخلت فراشه ليصحبها العبيد الى مسرور ، فيقطع عنقها .

حين عملت احدى الأسر عزاء بطارات ، أمر ، فلطخت وجوه نساء الأسرة بالنيلة ، وعلقت الطارات فى اعناقهن ، وأركبهن الجند دوابا ، وشنعوا عليهن فى شوارع القاهرة ، كى لا يقلدهن بعد ذلك أحد .

ضج الخوف فى نفوس الناس . استبشعوا — حتى من لم ينجب بناتا — قتل الفتيات بلا جريرة . قصدوا الجوامع للدعاء والابتهال وتأدية الصلاة ، واشتد تزاحمهم عند المحاريب ، فمات البعض تحت الأقدام الملهوفة .

أمر الملك باغلاق الجوامع ، فلا يصلى الناس الا فى جامع الأزهر . وأمر ، فأحاط الجنود بالجامع من كل الجهات .

اقتصر الدخول على باب المزينين . يمسح الجنود على جيوب المصلين عند دخولهم ، ويقلبون فيما يحملون من أمتعة وكتب . لا يأذنون لمن تساورهم فيه شبهة . ربما صحبوه الى حيث يخضع لتحقيق صارم عن الجهة التى قدم منها ، ولماذا — ان كان من أبناء الولايات — لم يصل الجمعة فى بلدته .

يضغطون على الرجل ، تتوالى أسئلتهم ، ربما نالوه بالأذى حتى يصرح بما يخفيه فى نفسه . حتى من لم يكن له ابنة قد يحين اليوم الذى يطيح فيه مسرور برأسها ، نظر بتوجس الى

الايام التالية ، وكتم مشاريعه وأمواله . توقفت المعاملات ، فلا بيع ولا شـــــراء .

شـــــغل الناس بالفتيات اللائى يدخلن حياة الزوجية ليلة واحدة ، ثم يدخلن القبر . وتفرق الناس ، فروا الى بلاد بعيدة وقريبة . مع ان العساكر أجادوا حصــــــار أطراف المدينة ، لا يأذنون لمخلوق بمغادرتها دون التأكد من شخصيته ، وحصوله على اذن المتبولى بالتنقل من مدينة الى أخرى ، فان المئات أفلحوا فى ابعاد بناتهم خارج القاهرة . بذلوا من الحيل ما أعجـــــز العساكر عن اكتشافها . وضعوهن فى النعوش ، وفى كومات التبن والحطب . أخفوهن فى لباس البادية . لم يعد فى المدينة الا بنات الوزراء والأمراء ووجهاء القوم . يعرف شهريار آباءهن ، ويذكرهن بالاســـــم .

نال الاهمال ما تملكه الدولة ، وقل دخل البـــــلاد ، وخلت الخزائن من الأموال . عاش الجميع حالة دائمـــة من الخـــــوف والتوتر ، وتوقع المجهول ، دون أن يعرف الناس متى ولا كيف . جاوزت قسوة أحكامه اعدام الفتيات بلا جريرة . فحش أمره ، وتزايد ظلمه ، وأخذ أموال الناس ، وتتبع أرباب البيوتات والنعم والأعيان . سلبهم نعمهم ، ومال الى ســـــفك الدماء ، والزج بالأصوات المرتفعة ، أو المتسائلة ، فى السجون .

تعددت حالات التوسيط ، والتكليب ، والصلب ، والشنق ، والقاء الجثث فى الطرقات ، وتعليق الرءوس المقطوعة بالأسبلة والأسوار والأبواب . لم يكن يجلس فى قصره ، أو يغادره ، أو يطوف الأسواق ، الا ومسرور يتبعه .

ما تفعله بوسعى أن أكلف أى مشاعلى القيام به ! ..

قالت رقية :

ـ هذه ليست شهوة الجنس . انها شهوة الانتقام ! ..

وهو يعدل العمامة فوق رأسه :

ـ مضاجعة شـــهريار كل يوم لامرأة ليســـت دليلا على الفحولة ..

همست المرأة بالدهشة :

ـ هل الرجل الفحل هو الذى يضاجع امرأته فى المواسم ؟ .

فوت ملاحظتها :

ـ ربما أطار سيف مســـرور رقبة الفتاة دون أن يلمس شهريار جسمها ..

تبدى الاشفاق فى عينيها :

ـ هذا حـــرام ! ..

وتخلل صوتها نشيج :

ـ ما ذنب بنات الناس كى يدفعوا ثمن اســـتغفال زوجته له ؟! ..

الليـــلة الســـابعة

قال شـهريار كمن يهمس لنفسـه :

ـــ حمدا لله ان الخائنة لم تكن تعرف السحر ! ..

همست شهرزاد بالسؤال :

ـــ أية خائنـــــة ؟ ..

ـــ البغلة .. زوجة الشيخ المسكين ..

روت شهرزاد ـــ فى الليلة الثانية ـــ حكاية الشيخ صاحب البغلة . البغلة زوجته . سافر وغاب عنها سنة كاملة . عاد ـــ ذات ليلة ـــ فرأى عبدا أسود ، يحتضنها فى الفراش . كانت المرأة ساحرة ، فأسرعت الى كوز ماء ، تكلمت عليه . ثم قالت لزوجها :

ـــ أخرج من هذه الصورة الى صورة كلب ..

قالت شهرزاد :

ـــ كانت ساحرة يامولاى ..

وهو يغالب انفعاله :

ـــ أنا أتحدث عن زوجة أخرى .. عن زوجتى الأولى .. كيف حدث ما حدث ؟ ..

يقبل الوزراء والأمراء يده وقدمه . يقبلون الأرض أمامه . يفصل — طيلة نهاره — ويحكم ويأمر وينهى . ثم يجلس الى شهرزاد ، تروى له الحكايات ، تضعه فى حالة توقع دائم ، متجدد ، ينتظر اللحظة التالية .

يالشاه زمان المسكين ! . عشرون عاما مضت دون أن يرى أخاه ، والقاهرة بعيدة . بتصورها من رسائلك وأحاديث الوافدين . عندما ذهب اليه الوزير دندان ، وأبلغه بشوقك اليه ، وقصده أن يزورك ، وافق بلا تردد . لم يناقش الأمر ، وان كان قد أعد نفسه وأحوال المملكة ، لغياب قد يطول . وافق ، وأمر بالتجهيز ، وأقام وزيره حاكما ، وخرج الى القاهرة . يراك بعد غيبة عشرين عاما ، ويرى القاهرة للمرة الأولى فى حياته . ترى — بعين التصور — عودة شاه زمان الى القصر . المسكين ! عندما تذكر ما نسيه ، كان قد قطع مسافة فى الطريق الى القاهرة . أذهله ما شهد . بدت له الدنيا أشد سوادا من بشرة العبد الراقد فى فراشه ، والزوجة الخائنة نسيت فى عناقها حتى المحاذير . حتى الباب لم تغلقه . دفعه بأصبعه ، فانفتح على المشهد القاسى . اذا كان هذا الأمر قد وقع وأنا ما فارقت المدينة ، فكيف حال هذه المرأة اذا غبت عند أخى مدة ؟! .

تم الأمر كحلم أو كابوس . لم تهدأ نفسه ، ولا استرجعها ، يعرف أين هو ولا ماذا حدث ، الا بعد أن هوى بسيفه على المرأة والعبد ، فقتلهما فى الفراش .

عاد الى القافلة ، الخيام والجمال والبغال والخدم والأعوان . لم يذكر مما جرى شيئا . سار به الذهول ، فأمر وسأل وناقش وشخط ونطر ، لكنه أودع المأساة داخله ، فلم يفلتها . غالب انفعاله أن يبين على وجهه ، فيفطن أحد الى ما يخفيه . لم تسأل

شاه زمان — حين رأيته — عن الذبول فى وجهه . كأنه مريض ، او انه يعانى . ربما غلبه الحنين الى بلاده ، الى قصـــــره وأهله وجواريه وغلمانه .

ظلت التكشيرة فى وجهه ، والهم ملازما لمشاعره . لما زاد — فى الأيام التالية — شحوبه ، وذبول جسمه ، فأعلنت اشفاقك .

همس :

— أنا فى باطنى جرح ! ..

لم يزد ، ولم يحدثك فيما فعلته زوجته ، ولا أقدامه على قتلها . حتى عندما شاهد من الشباك المطل على بستان أخيه ، عناق العشرين جارية للعشرين عبدا ،وامرأة أخيه تسلم نفسها للعبد الأسود ، ظل على صمته ، وان بدا شاه زمان — فى عودتك من السفر — متغيرا عما كان قبل ذلك . يا أخى : كنت أراك مصفر اللون . والآن قد رد اليك لونك . أما تغير لونى ، فأذكره لك ، واعفنى من أخبارك برد لونى . مع ان المشهد بدا كما رواه شاه زمان ، فان شعورك بالصدمة فاق ما تصورته . الجوارى والعبيد والزوجة الخائنة . من الصباح الى العصر .

قاومت الغضب ، وكتمت المناداة على الحراس . بدت الحياة تافهة وبلا معنى .

قال شاه زمان — كما صارحك فيما بعد — لنفسه : والله ان بليتى أخف من هذه البلية . وهذا أعظم مما جرى لى ! .

هانت عليه مصيبته ، بعد أن شاهد مصيبة أخيه . أقبلت نفسه على الطعام والشراب ، فاسترد ما فقده من صحة . بدا

كأنه قد نسى حتى أهله وبلاده . عندما أزمعت الرحيل ، لم يشغلك عاقبة الأمر . لم يشغلك الملك ولا الرعية ولا القصور التى تشغى بالجوارى والعبيد والخدم . ليس لنا حاجة بالملك حتى ننظر : هل جرى لأحد مثل ما جرى لنا ؟ .

لم يعترض شاه زمان ولا ناقش الأمر ، ولا تحدث عن العودة الى بلاده . وافق فى بساطة لم تتوقعها . كأنه لا يهجر الملك الى حياة يغلفها الضباب والتوقع . غادر مدينته وقد استقر عزمه على ألا يعود أبدا ، حتى يشــاهد ما يمكنه الوصـــول اليه من المدن والبلاد . هل يدركه السأم ذات ليلة ؟ .. هل يتذكر ما فعلته فى حياته خيانة امرأة ، فيفض المجلس ، ويستدعى السياف ؟ ..

ـــ متى ياشهرزاد تتصورين أنى سأنفذ قرارى ؟..

وهى تتحاشى النظر اليه :

ـــ **أى قرار ؟ ..**

انفرجت شفتاه فيما يشبه الغمغمة :

ـــ أن أصل بك حلقات السلسلة ..

أخلت وجهها للفزع :

ـــ مولاى ! ..

قال فى جـــــد :

ـــ انى أداعبك ! ..

الليلة الثالثة عشرة

قال شهريار :

ـ هذا الوزير الذى حدثتنى عنه فى حكاية الحمال والبنات . ماذا فعل ؟ ..

بهمس لا يكاد يبين :

ـ يبدو انى لم أحسن الحكى ..

ثنى اليها ملامح متسائلة :

ـ بالعكس .. انما أريد أن اتحدث فى دلالة ..

غالبت تردد صوتها الهامس :

ـ قتل الوزير أخا الملك ، وجمع الجند ، ليهجموا على المدينة فى غفلة ..

وهو يضغط على الكلمات :

ـ وزير خائن لولى نعمته ..

دهمها توجس :

ـ هكذا تقول الحكاية ..

ثبت نظرته فى عينيها :

ـــ أن أباك يا شهرزاد هو وزيرى ..

أردف ضاحكا فى تخابث :

ـــ على اذن أن ألزم الحذر من أبيك .. أليس كذلك ؟ ..

تعثر صوتها فى الخوف :

ـــ ما رويته حكاية من نسج الخيال ..

مط شفتيه :

ـــ تروين الحكايات باعتبارها عبرا من الحياة .. فاذا اقتربت من أبيك صارت من نسج الخيال ! ..

لملمت نفسها :

ـــ كيف يفكر أبى فى خيانتك ، وهو الذى كان يعلم ـــ عندما قدم لك ابنته ـــ أنها ستقتل صباح اليوم التالى ؟! ..

الليلة الرابعـة والعشرون

مع انها ولدت فى القصر ، ألفت قاعاته وحجراته ، صعدت الى السطح ، أطلت من أخصة المشربيات ، غادرت جناح الحريم فى الطرف الأقصى من القصـــــر الى حجرات الخدم بالقرب من الواجهة .. فانها لم تلحظ الشباك الصغير المطل على الحديقة الخلفية . فتحته ، فهبت نسمة خريفية منعشة . تشابكت أوراق الاشجار ، فبدت البيوت المقابلة كالبقع المتناثرة ..

القصر يحيط به سور هائل ، تتخلله أبواب فى الأماكن التى تطل على الشوارع والميادين . تفتح فى الفجر ، وتغلق عندما يأتى الليل . تعلو الأسوار أبراج للمراقبة ، تحيط بالدائرة السكانية من حول القصر الى مدى النظر . لا نوافذ تطل على وجه الطريق ، وان أطلت الحجرة على فناء واســـــع ، مبلط بالحجارة ، يتوسطه بئر ، يتزود القصـــــر منه بما يحتاجه من الماء . وفى جوانبه الثلاثة أبواب تفضى الى الداخل . وأمامه ســــور يتوســـــط حديقتين ، واحدة داخل القصـــــر ،والثانية داخل القصر المقابل ، السلاملك بالطابق الأرضى ، يســـــتقبل فيه عبد النبى المتبولى ضـــــيوفه ، وتقام الحفلات . اما الحرملك ، ففى الطابق العلوى . له مداخل خاصـــــة ، تعزل ما بداخله عن نظر الجالســـــين فى السلاملك ..

كانت تعانى شعورا جديدا لم تألفه من قبل . ليس هو الخوف . اعتادته ، وعرفت تأثيراته داخلها ، منذ بدأت حفـــــلات الزفاف

اليومية . انما هو شعور غريب ، أقرب الى السأم أو الملل أو الرغبة فى النهاية على أى نحو . لما طال عمر شهرزاد الى الليلة الثانية ، ظلت الزينات على حالها . ثم جاءت الليلة الثالثة ، وتوالت الأيام والزينات فى مواضعها ، والبشائر تدق كأنها العادة التى ألفها الناس . لم تعد تطيق ما هى فيه ، لا أبويها ولا خدم البيت ولا الأحاديث . حتى المشوار الذى كانت تغادر به البيت كل ثلاثة أيام الى حمام البيسرى ، لم تعد تجد فيه التسلية التى كانت تراها من قبل . لم تكن مسئولة عن أداء شىء من الواجبات المنزلية . بالقصر أعداد من الجوارى المملوكات والوصيفات والخادمات ، بالاضافة الى أعداد أخرى ، هائلة ، من العبيد والخدم . حتى القراءة لم تعد تقبل عليها . تمضى الساعات دون أن تتحرك فى موضعها ، تنوشها الأفكار ، تسلم التصورات الى غير مدى .

رسمت للحياة فى القصر الأبلق صورا متناثرة من أحاديث أبيها وصديقات أمها من المترددات على قلعة الجبل . تبدل فى الصور ، وتقدم ، وتؤخر ، وتمزق ، وتصل ،و تضيف من عندها . تطلق خيالها فيما يرويه أبوها عن الحياة فى قصر الملك . القاعات والحجرات والحدائق والأسوار العالية والجوارى والخدم .

يخرج الملك من القصور الجوانية الى القصر الكبير . يجلس على تخت الملك . ينادى الحاجب ، فيدخل الوزراء والأمراء والحجاب والأكابر والاشراف والمشايخ والقضاة الأربعة وخواص المملكة وأرباب المناصب على حسب مراتبهم . تناثر فى الأركان ما يزيد عن مائة مملوك يلبسون الحرير ، وفى أيديهم السيوف مجردة .

يضـــــرب الملك بقضــــيب فى يده ، على حلقـــة مدورة امامه ، يفتح الباب الجانبى ، فيدخل الموظفون وذوو الحاجات .. يقبلون الأرض بين يدى الملك . يعرضــــون مالديهم من تقارير ومطالب ، فيقضى فيها بما يراه . يمنع محدثه من أن يبتدىء الكلام ، والا يتكلم الا جوابا ، وينصــــت جيدا قبل أن يجيب . تشمل هيبته الحضور . تتأثر نفوســــهم بوقاره وقوة شـــخصيته ، فلا ينطق احدهم بكلمة الا اذا طلب منه الملك ذلك . لا جرأة حتى فى طلب الكلام . انما يعرف الملك ماذا لدى كل من أعوانه من علم فى الأمر المعروض ، وماذايمكن أن يفيد به من رأى . يصــــدر الملك أوامره من القاهرة ، فتلبى — فور تبليغها — فى بغداد ودمشق والقيروان والبصــــرة والحجاز وعمان وغيرها من حواضــــر الاقاليم وأمهات المدن .

دان له حكم الديار المصــــرية والبلاد الشـــامية والحلبية وبلاد الفتوحات ، وســـائر ممالك الاســـلام . يأتى المســاء ، فتوقد القناديل والشــــموع ، وتضـــاء القاعة الفســـيحة فى القصر الأبلق ، موعد جلوس الملك الى شـــــهرزاد كما حدده الأب تماما . تصف الأوانى ، وأدوات الشــــرب ، والطبق الهائل يتوسط المكان ، فيســــهل وصـــــول الأيدى اليه . شهريار وشهرزاد ، ودنيا زاد تجلس على مقربة من الاثنين . وضـــــع فيه من سائر الفواكه ما بين تين ورمان وعنب وبلح وجوافة وموز وغـــــيرها من الفواكه التى لم يكن بعضـــــها فى أوانه . يبعث به ولاة الملك من أقاليمهم . وترش الروائح العطرية ، وبحرق البخور . ومن داخل أحد أجنحة القصر بتناهى غناء كالســــحر لمجموعة من المغنيات ، تلامس أيديهن بالكاد أوتار العود ووجه الدف . تقف القهرمانة نجوى خلف ســــتار ، على بعد أمتار من المجلس . الهدوء يمتد على المكان ، يعمقه صـــــوت شــــهرزاد ، تبدأ بقولها : بلغنى أيها

الملك السعيد ، وتنتهى بصياح الديك . لا تفلت شاردة ولا واردة ، تنفيذا لطلب عبد النبى المتبولى . ما قد يبدو تافها ، ربما يستخرج منه ما يعرفه بصورة الأيام التالية ..

تناهى صوت أبيها ـ ليلة ـ من الطابق السفلى:

ـ هذه امرأة ولا كل النساء . قطعت حكايتها عن هارون الرشيد والصعاليك الثلاثة والحمال والبنات ، لتروى حكاية جديدة عن جار يحسد جاره ويؤذيه .. لا أدرى كيف ـ ولا متى ـ تنهيها ..

وعلا صوته :

ـ من كان يتصور أن الحدوتة وحدها هى التى أفلحت فى وقف مسلسل الاعدام ؟! ..

يعيد خيال زهرة الصباح ترتيب المواقف . يجرى حوارات تسبق الحوادث . تنساق فى امتدادات التصور : كيف تحبا شهرزاد فى ظل التهديد بالموت ؟ كيف تعينها جرأتها على حكاية الحواديت ، واذن مسرور ـ وسيفه ـ بالقرب من نداء الملك ؟ ومتى يمل الملك حكايات الوزراء والمغامرين والجان والمدن البعيدة ؟ متى يسأم الحواديت ، ويلتئم الخيط المتصل بقتل شهرزاد ؟ متى تكف شهرزاد عن القول : واين هذا مما سأحدثكم به الليلة المقبلة ان عشت وأبقانى الملك ؟ . تنقل القهرمانة نجوى قولها الى أبيها ، فيعيده عليها ، ويتواصل خوفها الى الغد ..

اعادت النظر الى الجزء الظاهر من قصر يهبط عن مستوى النافذة .

بدا الشاب ـ الذى رأته للمرة الأولى ـ خلال أشجار البرتقال والليمون ، بجسمه النحيل ، وملامحه الباسمة .

الليلة الحـادية والستون

حين روى عبد النبى المتبولى لزهرة الصباح حكاية الملك عمر النعمان وولديه شــــركان وضوء المكان ، لم يناقش مع نفســـه المعنى من الحكاية : هل يريد تســــليتها ؟ هل شـــدته العبرة فى حكاية شــــهرزاد ؟ ولماذا لم يرو لها ما نقلته له القهرمانة نجوى فى الايام السابقة ؟ .

جلستهما فى الحديقة الخلفية للقصر الأبلق ، يتصـــورها الطواشون والخدم لمناقشة أحوال القصر . تمر ساعة أو اثنتان فى استعادة ما روته شهرزاد فى الليلة السابقة . أعياه ــ فى البداية ــ اجتذابها من آفاق الشرود .

كرر البداية . أضاف ونمق ، واخترع الوقفات المبهرة ، وتأمل الانعكاسات فى الوجه الجميل ، الحزين . فاجأته ــ وهو ينهى ما نقلته اليه نجوى الليلة الفائتة ــ انها أعطت انتباهها ، واستحثته على المواصلة ..

اغتصب ابتسامة ، وقال :

ــ عندما يأتى الصباح ، تقطع شهرزاد حكايتها ، لتواصلها فى الليلة التالية .. وهذا ما سأفعله .

الليلة الثامنة بعد المائة

قال عبد النبى المتبولى لرقية :

ـــ هذه المرأة شواهى ذات الدواهى .. تفعل من الأعاجيب ما لا يخطر ببال .. أتابع مؤامراتها ضد جيوش المسلمين ، كأنها حكاية مسلية .. أنسى ان ما يشغلنى فى الأمر هو حياة ابنتى ! ..

ثم وهو يحاول التعبير بيديه :

ـــ لقد ارتدت زى مسلم ، وتزعمت المسلمين ، وأشـــــارت عليهم بالقتال ، وذكرتهم بمجدهم الاسلامى .. وكانت ـــ بالطبع ـــ تضمر غير ذلك تماما ..

ونزع عمامته ، ووضعها الى جانبه :

ـــ المرأة لها من اسمها نصيب .. فهى بشعة الخلق والخلقة . وصفتها شهرزاد بأنها أكثر مهارة من ابليس وقومه المتاعيس ! ..

لم يكن يروى لرقية ما يرويه لزهرة الصباح . يجلس الى ابنته بالساعات ، ينقل ما روته له القهرمانة نجوى من حكايات شهرزاد .

يتجنب الاختصار ، ويحرص على الافاضة . لما حاول ذلك فى روايته للأم . قاطعته : انى متعبة ! .

ادرك انها أسلمت نفسها للقلق على مصير زهرة الصباح .

تصمت عن الكلام ، وتسرح فيما لايتبينه ، وتمصمص — دون حديث — شفتيها ، وتكثر من الهمهمة بالآيات القرآنية والأدعية ، وتبدو أحيانا ، ببريق عينيها ، واختلاج شفتيها ، كمن بها مس .

أكتفى — ان تبين اســـــتجابتها — بذكر الحكايات ، وبعض المواقف ، فلا يطيل التوقف . همه أن يطمئنها باستمرار شهرزاد فى رواية حكاياتها . .

كانا يجلسان فى قاعة الاستقبال . مستطيلة ، واســـــعة ، تعلوها قبة من الخشب المزخرف . وفى أركانها الأربعة أعمدة من المرمر ، والجدران منقوشة بالمقرنصات الجبسية . وفى أعلى فتحات ينفذ منها الضوء والهواء .

كان الحر شديدا فى خارج البيت ، بعكس الجو اللطيف فى الداخل . ترك الخدم تيارات الهواء تدخل من خلال فتحات البيت والفناء ، وأداروا — بلا توقف — نافورة المياه فى وسط صـــــحن البيت . .

استطرد وهو يتحسس دملا صغيرا فى جبهته :

— قيل أنه همس لنفســـــه : والله لا أقتلها حتى أسمع بقية حديثها ، فهو حديث عجيب ! . .

قالت رقية :

— وماذا بعد أن تتم حديثها ؟ . .

وهو يتأمل تكوينات ، صنعها — فى الســـــقف — تراقص الأضواء :

— انها لا تنهى حكاية قبل أن تصلها بغيرها . .

شاب صـــــوتها تهدج :

— فماذا أعوزتها الحكايات ، أو أدركه الملل .. ؟

قطب جبهته متفكرا :

— لما أقنعت أباها بتزويجها من الملك ، كانت تعلم بما عندها

علا القلق بصوت المرأة :

— كانت سكرة وجرأة فتاة ، أهملت عاقبة فعلها ..

احتواها بنظرة مشفقة :

— شهرزاد ليســـت مجرد فتاة . أكاد أوقن انها الحلقة الأخيرة فى سلسلة الاعدام ..

الليلة الحادية عشرة بعد المائة

مع انه لم يثبت ان البستانى معروف خضر هو الذى صنع على الريحان — بالمقراض — جملة « شهريار قاتل » ، فان الملك — لما أبلغه ارصاده بما رأوه فى الصباح الباكر ، على امتداد البساتين المفضيةالى القصر الأبلق ، أمر باطفاء عينى البستانى ، وقطع يديه ، ثم توسيطه ، والقاء جثته طعاما للكلاب . .

صرخ البستانى ، وتوسل . قال انه لم يبت ليلته فى قلعة الجبل ، انما كان يعود طفلته المريضة فى بيته بحى الديلم . .

قال عبد النبى المتبولى :

— اذن . . هات لنا الفاعل . .

قال معروف خضر بلهجة متسائلة :

— كيف وقد أمضيت ليلتى خارج القلعة ؟ . .

بدا على المتبولى استياء :

— لابد للفعل من فاعل . .

قال معروف فى تساؤله :

— وهل لابد أن أكون أنا الفاعل . . ؟

— لا أحد بيده مقراض ويقضى يومه فى الحدائق الا أنت . .

ـــ والعشرات ممن يتنزهون فى الحدائق ويجلسون فيها .. ؟

ادركه الضيق ، فنطق الكلمات مدغمة :

ـــ ما كتبت ..

قاطعه معروف :

ـــ أنا لا أعرف الكتابة ..

شاب صوت المتبولى رنة انفعال :

ـــ اذن .. دلنا على الفاعل ..

ـــ لو أنى أعرفه ما ترددت فى البوح باسمه ..

فى لهجة حاسمة :

ـــ أنت الفاعل اذن ..

صرخ الرجل :

ـــ هذا حرام ! ..

أطلق المتبولى أ ف ف ف طويلة ، شأن الذى نفد صبره . أمر بوضع الرجل مقيدا فى السجن ، فلا يفك قيده الا على دكة المغسل .

قال الرجل فى استسلام يائس :

ـــ مادام حكمك قد صدر .. فانى استسمحك أن أعود ـــ برفقة حراس ـــ الى بيتى . ساعة زمان وأعود ..

حدق فيه بملامح مستنكرة :

ـــ لماذا ؟ ..

ـــ ديونى كثيرة .. وأخشى أن يلاحق الدائنون زوجتى وأولادى . سأعطى كل ذى حق حقه ، وأعود ! ..

ـــ فلتمت كما أنت ! .. جريمتك فى حق الملك أعظم من أية جريمة ! ..

الليلة السادسة عشرة بعد المـائة

بعد أقل من ساعة لقراءة الحاجب عريضة الشيخ بهاء زينهم ، كان الجند قد أوقفوا الشيخ بين يدى الملك ..

ـ من أملى هذه العريضة ؟ ..

قال الشيخ بهاء :

ـ انما كتبتها بنفسى ..

قال الملك :

ـ ماذا ذكرت فيها ؟ ..

قال الشيخ :

ـ قدمت النصيحة ..

رمقه بنظرة مستنكرة :

ـ من طلب نصيحتك ؟ ..

قال فى همس منفعل :

ـ هذه نصيحة لوجه الله ! ..

صرخ شهريار بآخر ما فى صوته :

ـ لا تتمسح بعمامتك ..

اذهل أمره باعدام الشيخ فى بقعة الدم ، جلساء الملك ووزرائه وامرائه . كان من أقرب أصفياء الملك وندمائه . يلجأ الى رأيه ومشورته ، ويأخذ منه موقف التلميذ من الأستاذ . لما طال غيابه عن مجلس الملك ، أحزنه ما أبلغه به الخدم عن مرض الشيخ ، فهو لا يغادر بيته ، ولا يؤم المصلين فى جامع الامام الشافعى . حين قرأ الحاجب عريضـــــته ، أذهلت المفاجأة شـــــهريار ، وأذهلت الحاضرين . لم يكن الشيخ مريضا اذن ، لكنه لزم بيته بعد العريضة المفاجأة ..

التمعت عينا الشيخ بنظرة استغراب واضحة :

ــ أى شىء يوجب قتــــلى ، وكل ما فعـــــلته انى بذلت نصيحتى ؟ ..

اشاح الملك بيده :

ــ نصيحة متأخرة .. سبقها تدبيرك المكشوف ! ..

وردت على الملك شفاعات من الفقهاء والصـــالحين وذوى المكانة والرأى ، يلتمســــــون العفو ، ووضع ما حدث فى اطار النصيحة التى يقبلها الملك ، أو يرفضها . لا يتجاوز ذلك الى تآمر ، أو ما يشبهه . لكن شهريار كان قد قلب الأمر ، وتوصل الى قناعة بأن النصيحة كانت نية الشيخ الظاهرة . أما النية المدبرة ، والتى حاول ــ بالخديعة ــ اخفاءها ، فكانت تغيير نفوس الناس ، بما يدفعهم الى مخالفة الملك ، والثورة عليه ..

أخرج الجند الشيخ بهاء زينهم ، ليعدم فى بقعة الدم . لفت ساقاه بحلقتين من حديد ، أغلقهما الحداد بالمطرقة ، ووصـــــلهما بسلسلة قصيرة ، من الحديد أيضا . ألبس طرطورا أحمر مكللا

بروث البهائم ، وقدامه مناد ينادى : هذا جزاء من يسىء الى مقام الملك ! ..

ازدحمت الساحة بالفلاحين والعمال وأهل الصنائع والباعة الجائلين وغيرهم ..

طلب الشيخ شربة ماء . بادر أحد الجنود بتقديمها ، لكن المشاعلى أطار الكوز بسيفه ..

سل المشاعلى سيفه على رأس الشيخ بهاء زينهم ، وقال :

ــ يا نائب مولاى . هذا عبدك المذل بنفسه ، السائر الى رمسه .. هل أضرب عنقه وأنا برىء من دمه ؟ ..

قال قائد المئين :

ــ نعم .

واستأذن المشاعلى مرة ثانية . ثم استأذن مرة ثالثة .. وهوى بالسيف ، فتدحرج رأس الشيخ على الأرض .

الليلة السابعة والعشرون بعد المـائة

رفع الخدم أطباق الطعام ، وقدموا بالطست والابريق .. غسل الجميع أيديهم ، وتطيبوا بماء الورد والمسك ..

استند عبد النبى المتبولى الى وسادة على الجدار القريب من المشربية . كان يخالف مألوف زمانه ، وما عرف عنه من تشديد على النساء ، فهو يجالس زوجه ووحيدته ، يحادثهما ويسامرهما ، ويدعوهما الى مائدته . يتولى الخدمة جوارى القصر وخدمه ، فلا تكاد المرأتان تجدان ما تفعلانه ..

قال عبد النبى المتبولى :

ـــ كأن هذه المرأة شهرزاد تحولت الى معلم ، وكأن الملك شهريار قد أصبح تلميذا ..

وعاد بنظرته من المشربية :

ـــ نقلوا لى فى القصر عن شهرزاد قولها للملك : أن الكذب عند الملوك منقصة وعار ، ولاسيما عند أكابر الملوك ..

حتى لا تسىء امرأته الفهم ، كان ينسب ما ترويه له القهرمانة نجوى الى غير مصدر . سمعت أو قيل . مكانته المهمة فى قلعة الجبل ، وخارجها ، تبعد الشبهات عنه . والمرأة تنصت ، وتصدق كل ما يرويه . تثق انه قد حصل على معلوماته من مصادر مؤكدة . اعوانه مبثوثون فى كل مكان ، يلتقطون التصرف والشائعه والعبارة

الهامسة والايماءة ، لا يخفى عليه من أحوال القلعة ، ولا الحياة فى القاهرة ، والاقاليم ..

قالت رقية :

ـــ وهل ظل منصتا ؟ ..

وهو يضرب ركبته بأطراف أصابعه :

ـ كرر ما قالته : ان الكذب عند الملوك منقصة وعار .. وأضاف قوله :

أنا أرفض الكذب من نفسى ، ومن الآخرين . ثم بلهجة ذات معنى : حتى لو كانوا من المقربين ..

قالت المرأة فى خوفها :

ـــ هل كان يقصدها ؟ ..

أحاطها ببسمة مشفقة :

ـــ أكاد أثق ان شهرزاد لن تسلم رأسها الى سيف مسرور بسهولة ..

استطرد بصوت يخالطه أمل :

ـــ بعد أن أماتت فى حكاياتها الملك عمر النعمان وابنه شركان .. روت عن قيادة ضوء المكان لجيوش المسلمين ضد قوات الصليبيين . وهناك روايات أخرى عن الأميرة صفية وابنتها نزهة الزمان ..

ثم وهو يتأمل أصابع قدميه :

ـــ حكايات متشابكة الخيوط .. أرجو ألا تنتهى حتى يفيق شهريار من غوايته ، أو يموت ..

التمعت عيناها بالفرحة :

ـــ هل تعد اقتله ؟ ..

اختلجت عينــــاه :

ـــ تحدثت عن موته لا قتله . الموت مشيئة الله ! ..

عبرت بيديها ، فبدا باطنهما مصبوغا بالحناء فيما يقرب من الحمرة :

ـــ والقتل ايضا ! .. أقتله بمشيئة الله ! .. القتل عقابه الذى يســـــتحقه ..

أغمض عينيه فى تأثر :

ـــ تبدو لك الأمور سهلة . ان حراسه يشمون رائحة الغدر فى البلاد البعيدة ..

قالت رقية :

ـــ قد يشكون فى كل الناس .. ألا فيك أنت ..

رمقها بنظرة متوجسة :

ـــ أنت اذن ترشحيننى لقتله بنفسى ؟ ..

قالت فيما يشبه التهيؤ للبكاء :

ـــ تقتله لتنقذ ابنتك ..

حدق فيها بملامح مستنكرة :

ـــ ثم ماذا ؟ .. أقتله لأقتل من بعده ، ويقتل كل من يمتون لى بصلة قرابة ؟! ..

مدت يدها ، فأمسكت ساعده :

ــ وابنتنا ؟! ..

وهو يتخلص من قبضتها :

ــ تعلمين انى لو استطعت أن أغتدى زهرة الصباح بحياتى ما تأخرت .

اتجه بنظرة مشفقة الى ابنته فى جلستها الساكنة . عيناها معلقتان بأعلى الجدران ، كأنها تتأمل الكتابات الذهبية ، والرسوم المطلية بالألوان ، والسياجات ذات الخطوط . تمنى لو أنها شاركت فى الحديث . تسأل ، أو تبدى ملاحظة ، أو حتى تعلن رفضها لما يحدث .

لكن الفتاة ظلت على صمتها ، لا تطرف ، كأنها مشدودة الى عالم لا يراه ، وان حدسه ..

اختفت صـــــورة حفلات الاعدام ــ دون توقع ــ من ذهن الفتاة . حلت بدلا منها صورة الشاب فى النافذة المقابلة . لم تناقش ان كان قد استهواها أم شدها اليه أنه شاب ، رجل ، فى دنياها التى اقتصرت على أبيها وأمها والجوارى والخصيان ، فهى تكاد لا تغادر القصر ، ولا تجالس أصدقاء أمها ، ولا تعطى انتباهها كما كان يحدث من قبل ، الى أحاديث أبيها ، مع أمها ، أو مع أقاربهم ، فى زياراتهم المتباعدة الى القصر .

لم تعد مشـــغولة بالخوف وحده، ولم تعد تنثال ــ وحدها ــ صـــور الملك وشهرزاد ومسرور والحياة فى القصـــــر الأبلق . امتدت صورة الشـــــاب . اتســـعت فملأت مساحة خيالها ..

رافقتها فى الصـــــحوة والمنام . اســـتعادت الوقفة والتصرفات والملامح البعيدة . قلبت الايماءات والنظرات . حاولت أن تجد لها تفسيرا غير الصورة الظاهرة . وقالت لنفسها، ليلة :

ــ اذا تقدم هذا الشاب الى أبى ، فليوافق عليه .. لأنى لا أريد ســـــواه ! ..

ثم تصورت نهاية حواديت شهرزاد ، فجرت على عنقها ، بعفوية ، وتنهدت .

الليلة الأربعون بعد المائة

قضت زهرة الصباح وأمها اليوم كله عند جدتها فى المغربلين .
جرى فى القصر تطويش خمسة من الصبية العبيد السود ، ليقوموا
بحراسة حريم القصر ، وخدمتهن . مع أن التطويش كان يجرى
فى مداراة داخل السراديب السفلية ، فان عبد النبى المتولى كان
بشدد على الأم والابنة ، فتغادران القصر .

قال المتبولى فى هيئة الذى كان ينتظر قدومهما :

ــ أخيرا .. انكشف أمر المرأة ذات الدواهى ، وصلبت على
سور بغداد ..

قالت رقية :

ــ تتحدث عن الخيال ، كأنه واقع ! ..

لجأ الى يديه موضحا :

ــ الحكاية طويلة . أحسنت شهرزاد روايتها . تابعتها فى
القصر الأبلق ، حتى عشتها ! ..

ثم وهو يسلم نفسه الى شرود :

ــ مائة ليلة وليلتان ، روت فيها شهرزاد حكاية الملك عمر
النعمان وأبنائه شركان وضوء المكان وكان ما كان ..

ووشى صوته بانفعال :

ــ ابطال حقيقيون ! ..

وهى تحدق فى قاع الفنجان :

ــ كنت تعيب على حواديتى لزهرة الصباح ..

تأمل نافذة من الزجاج الملون ، مغلقة ، أعلى الجدار ، رسمت عليها تكوينات زخرفية وبعض الزهور :

ــ هذه حكايات .. دنيا غريبة .. لا يدرى المرء اين تنتهى الحقيقة ، وأين يبدأ الخيال ! ..

الليلة الخامسة والأربعون بعد المـائة

احتج عقيل البابلى ، خادم زاوية سام بن نوح بالشـــارع الأعظم ، بأنه كان يستعيد قصيدة لابن الرومى . لكن الجند أخذوا عليه الهدف من استعادتها ، حين تصايح الحضور فى بيته بالدرب الأصفر ..

استلفتت الصيحات أرصاد المتبولى . ناقضت الهدوء الذى تسربلت به الطريق فى تلك الساعة المتأخرة من الليل ، ذبالة الضوء المتراقصة أوسط الغرفة المطلة على الطريق ، أتاحت تبين صاحب البيت ، وصوته يعلو بأبيات القصيدة ، تتحدث عن عسف الشرطة ، ومظالم الكتاب ، وصمت التجار فهم يشـــبهون البهائم ، حرموا شجاعة النفس ومزية الحمية ، حتى لم يعد فيهم مدافع عن حريمه ، ولا ثائر لعرضه ..

قال الشيخ عقيل :

ــ هذه قصيدة لابن الرومى ، كنت أستعيدها لجلسائى

قال عبد النبى المتبولى :

ــ وهل خلت دواوين الشعراء الا من هذه القصيدة ؟

قلب الرجل شفته السفلى ، ثم قال :

ــ وما يميزها عن بقية القصائد ؟ ..

وهو يهز أصبعه :

ـــ انها تعيب على التجار انهم حرموا شجاعة النفس ومزية الحمية ..

سرى التوتر بارتعاشة فى صوت الشيخ :

ـــ شغلنى جمال القصيدة دون معناها ..

رماه بنظرة رافضة :

ـــ لأى شىء تريد أن يستخدم التجار شجاعة أنفسهم وحميتهم ..

قال فى توتره :

ـــ أنها مجرد قصيدة ..

لاح الغضب فى عينى المتبولى :

ـــ استعادة القصائد للتدليل .. فعلام اردت أن تدلل ؟ ..

وهويحاول التماسك :

ـــ لا شىء ! .. كنا نستعيد أجمل القصائد ، فقلتها ..

تخلى المتبولى عن اتكائه . جلس فواجه الرجل . كان فى حوالى الخامسة والخمسين . ترك شعر رأسه على بياضه ، فلم يخضبه ، وان شذب ذقنه وشاربه بصورة ملحوظة . بدا مسكينا ومستذلا وبلا حول . ربما استعاد القصيدة دون أن يتدبر معناها ، لكن أعين شهريار المبثوثين فى قاعة القضاء ، مثلما هم مبثوثون فى كل مكان ، يعنون بنقل الأسئلة والأجوبة ، وما يلتقطونه من التصرفات والمشاعر . لو أنه أبدى اشفاقا أو تعاطفا ، قد يطوله هو نفسه ، أذى الجالس فى القصر الأبلق ..

عاد المتبولى الى اتكائه .

ـــ خذوه الى السجن ، فلا يتركه حتى يموت ! ..

الليلة التاسعة والخمسون بعد المائة

الفت الوقوف فى النافذة الخلفية ، حتى فطن الى ذلك ابواها. مسكينة ! .. تريد أن ترى الطريق ، ولو من نافذة ! ..

قالت رقية :

ــ لكن النافذة تطل على حدائق ومشربيات صامتة ..

قال عبد النبى المتبولى :

ــ دعيها على حريتها . يكفى انها لا تغادر حبس البيت ! ..

اردف فى تأثر واضح :

ــ هناك ملامح أمل ..

وهو يضغط الهواء بسبابته :

ــ أمس ، وضعت شهرزاد أصبعها على الجرح ..

شغل الاهتمام ملامحها :

ــ اى جرح ؟ ..

وهو يغالب انفعاله :

ــ خيانة زوجته الأولى .. قالت ، ضمن ما قالت ، فى حكاية اسمها « العاشق والمعشوق » : فلو اهتم الملك بتدبير أمور

بيته ، واختار النسب الرفيع ، لما حصل مثل هذا ، لأن العرق دساس ، ولابد من تخير المرأة ..

قاطعته فى لهفة :

ـــ وماذا قال ؟ ..

تنهد :

ـــ قيل أن وجهه تغير ، وان لم يعقب على الكلمات ..

ثنت اليه ملامح السخط :

ـــ خانته امرأة .. فلماذا تدفع بنات الناس الثمن ؟! ..

حدث ما توقعته ، وانتظرته . أطل الشاب من النافذة . تنبه الى وقفتها ، من خلال أغصان الأشجار المتشابكة . وجدت الابتسامة المترددة صدى ، فأعادها . وحدق بلا تردد . لما هز رأسه محييا ، بادلته التحية بهزة رأس مماثلة . لم تتدبر العواقب ، ولا خشيت من أن يراها أحد . كأنها أشفقت ألا يكرر الشاب تحيته ، فتضيع الفرصـــــة ..

تبينت ـــ بعد أن أغلقت النافذة. ومضت الى داخل القصر ـــ انها أردفت هزة الرأس ، بابتسامة لم تدر كيف واتتها ، ولا كيف أتاحت لها أن تملأ وجهها ..

تكررت الوقفة فى الأيام التالية ـــ فى النافذتين المتقابلتين . صده حياؤه عن مجاوزة التحية بهزة الرأس ، فالنظرة الثانية ، الى محاولة الكلام . بدا كأنها تستحثه على التحدث : صباح الخير ، كيف حالك ، الجو اليوم لطيف ، الاشجار أثمرت مبكرا .. لكنه ألف الوقوف ـــ مثلما ألفت ـــ خلف النافذة ، فى مواعيد ثابتة ، اتفقا عليها ، دون كلام .

الليلة السابعة والسبعون بعد المائة

صعد الشيخ طاهر العجمى امام جامع الصالح طلائع الى المنبر . وقف على الدرجة الأخيرة ، وطرق تحته بغمد السيف ، ليصغى الحاضرون ..

عرف أعوان عبد النبى المتبولى معنى التصرف ، فشقوا صفوف المصلين ناحية المنبر . أنزلوا الامام دون أن يبالوا بتساؤلات المصلين ولاعجبهم ..

تنبه أعوان المتبولى الى ما يجرى فى جامع الصالح طلائع ، من تزايد أعداد المصلين . فاقوا حتى المترددين على الجوامع الكبرى كالأزهر والعتيق وابن طولون وغيرها . سهل تبين الأمر بالدخول الى المسجد ، والوقوف بين المصلين ، وسماع الخطب ، والانتظار مثل الآخرين ، الى ما بعد صلاة العشاء ، يتابعون ، وينقلون ، ما لم يكن يعرفه أحد ..

قيل ان الشيخ العجمى يستقبل — منذ فترة — عشرات المريدين من المنكسرين والغلابة ، اتخذوا الجامع مأوى لهم . يجلس أمام العمود . يستقبل القبلة . من حوله المريدون فى هيئة حلقات . ربما جلس على مقعد القارىء ، والمريدون أمامه بلا تحلق . ينصتون الى دروسه وعظاته ، لا تخرج عما يلقيه ائمة الجوامع الأخرى . ثم جاوز الرجل مألوف الوعظ . سربل عظاته

بالصوفية . أدعى طريقة ، وجعل من نفسه قطبا لها . لم يكن للطريقة جذور ولا تعاليم ولا أحزاب أو أذكار . انما هى وليدة الأيام العصيبة . يلتقى اتباع الطريقة فى الجامع العتيق ، أو فى جـامع أحمد ابن طولون ، أو فى جـامع الأزهر . ينتقلون الى الصالح طلائع . تقتصر صلاتهم فى العشاء عليه . بعد الصلاة يطفأ النور ، وتدور أحاديث هامسة حول الأوضاع القائمة . ربما تسلل الجميع فرادى الى موقع يعلمونه فى صحراء الدراسة ، يحيكون الخطط والتدبيرات لتغيير الأحوال ، ويحـاولون اثارة العامة ، بستعدونهم على الملك بروايات ملفقة ..

همس الأرصاد أن اجتماعات المتآمرين المتتالية ، انتهت الى ضرورة عزل الملك شهريار ، واختيار الوزير دندان ، أو أى عاقل ، يكون خيرا من الملك ، فيختفى الخوف ، ويعود الى القاهرة آلاف الفتيات من قرى هربن اليها فى الأقاليم ، وتعود الحيـاة الى سيرتها الأولى ..

لاحظ الأرصاد نشاطا فى دكاكين سوق السلاح ، لا عهد للسوق به . كان يتردد على السوق تلاميذ للشـيخ ، يطيلون الجلوس — لساعات — مع أصحاب الدكاكين ، فلا تعلو أحاديثهم على الهمس ..

لم يبد عليه أنه اكترث لرؤية الملك على كرسيه . من حوله الحجاب والوزراء وأرباب الدولة . مسحهم بنظرة هادئة ، ثم أمال ذقنه على صدره كأنه ينظر الى قدميه ..

كانت تقارير الأرصاد قد روت ما تعمد اخفاءه . قيل ان الرجل كان يدعو اعوانه الى تعاطى الحشيش ، فيسهل عليه قيادهم ، يصدر أوامره فيرضخون ، ويعد بالجنة ، فيمتثل الشاب ، ينفذ ما

وكلف به . أوهم أعوانه أنه يعرف الطريق الى عين الحياة ، من شرب منها شربة ، لا يخشى الموت ، لا يأتيه الموت ، يظل خالدا ومخلدا ، فلا يقضى الا اذا سئم طول الحياة ، فتمنى الموت . وقيل انه دعا الى سائر المحرمات ، فاذن بنكاح الأمهات والاخوات والبنات ، ونكاح الرجال . أباح الفروج كلها ، فلا زواج ولا طلاق .

قال الملك من بين أسنانه :

ــ هل صحيح ما رواه الناس عنك ؟ ..

هز كتفيه باستهانة :

ــ كلام الناس لا ينتهى ..

صرخ الحاجب جوهر الدوادار :

ــ تحدث الى الملك بما يليق بمجلسه من الأدب ..

قال الشيخ العجمى :

ــ سألنى فأجبت ..

قال الحاجب :

ــ أنت تبدى رأيا ، ولا تجيب ..

وهو يعبر بيديه :

ــ أنه لم يسألنى فى واقعة محددة ، ولا وجه لى اتهاما ..

قاوم شهريار غضبه :

ــ الم تخطب فى الناس تستعديهم على الملك ؟ ..

قال الشيخ :

ــ هذا شأن الساسة .. ولا شأن لى بهم ! ..

علا صوت شهريار :

ــ ماذا تفعلون بعد صلاة العشاء ، فى الجوامع ، وفى صحراء الدراسة ؟ ..

اختلجت عينا الرجل :

ــ نتدارس أمور ديننا ..

اردف الملك فى غضب :

ــ وأمور دنياكم ؟ ..

قال الشيخ :

ــ اذا سئلت عن أمر من أمور الدنيا ، قدمت نصيحتى ..

انتفض الملك فى جلسته :

ــ حتى لو كانت السعى لعزل الملك ..

وأشار الى الرجل بلزمه الصمت ، وصرفه .

أمر بقتله فى صورة لم تحدث لأحد من قبل . صلب على شجرة فى انحناءة الطريق الى باب الفتوح . يشاهده الواقفون والمارة فى ميدان الرميلة ، والمطلون على الأسطح والمشربيات القريبة . ضربه المشاعلى ما لا يعد من السياط ، حتى أدمى جسمه تماما ، وفقد الوعى . أنزله المشاعلى من الشجرة . رش عليه سطلا من الماء ، وضغط على أنفه ببصلة . أنهضه ــ حين أفاق ــ قطع يديه ورجليه . ظل ما تبقى من الجسم فى موضعه ، فرفعه المشاعلى على الشجرة ثانية . ثم أشعل فيه النار ، وما بقى من الرماد طرح فى النيل ، فلا يبقى للشيخ ضريح ولا ذكر .

الليلة الثامنة والثمانون بعد المـائة

وضع الخدم ستارة من الجوخ على مدخل حمام البيسرى ، فمن غير المأذون به دخول الرجال ..

أمرت البـــلانة حكم الهوى ، فاختفى الرجال العاملون فى الحمام : صاحب الصندوق ، والقيم ، والوقاد ، والمزين ، والحمام ، والزبال وغيرهم . حلت خادمات بدلا من الخدم الذكور ، وان ظل فى مكانه منشد أعمى ، يعلو صوته — بين وقت وآخر — بما تسعفه به ذاكرته من البلاليق والموشحات ..

يتوسط القاعة حوض كبير ، به فوارة . يتصل بها غرف محماة بدرجات حرارة مختلفة ، تفضى الى بيت الحرارة : المغطس والأحواض المطلية بالملاط ونافورات المياه والمقصـورات الجانبية والزجاج الملون ، والبخار يضفى على المكان ضـبابية محببة . وتناثرت فى الزوايا كومات الفوط والأباريق والقلل الفخارية .. البخار المتصاعد من حوض الماء الساخن ، فى أوسط القاعة ، يختلط بالروائح الزكية المتضوعة فى المباخر ، والقبة تعلو القاعة الواسعة ، ثقوبها المستديرة ينفذ الضوء من خلالها ، تضويه قطع الزجاج المكسورة ..

أحست زهرة الصباح بالبخار يشمل كل جسمها . وسـال العرق ، فمسحته البلانة ، وكيسته بكيس « السافى » . ثم طقطقت أصابع يديها وقدميها ومفاصلها ، بيدين مترفقتين ..

بدا المشروب الساخن ضرورة . مضت — فى ممر طويل — الى القاعة الرئيسية . تستريح ، وتشرب القهوة ، وتسلم قدميها الى الخدم يدلكنها بالحجر الخفاف ..

تقدمت جارية بمنشفة ، فجففت وجه سيدتها ويديها ورجليها . ثم جففت — بمنشفة ثانية — شعر رأسها الذى أسترسل الى الردفين ..

امتدت مأدبة ، حافلة بأنواع المأكولات الخفيفة . العسل المقطر والقشدة والجبن المقلو . ثم أقبلت الجوارى بألوان من الفاكهة : تفاح وموز وعنب ورمان وفستق ولوز وبندق . وتداخلت أصوات الآلات الموسيقية : العود والقانون والكمنجة والرباب والناى والدف والمزمار والأرغول والدربكة ..

فوجئت زهرة الصباح برؤية الدلالة حمدونة تدخل من الباب الجانبى . اعتادت ترددها على البيت أيام الأعياد والموالد والمشاركة فى الأعراس . عرف عنها أجادتها لتسمين الفتيات بوصفات وأعشاب . وكانت تجيد نزع شعر الجسم . تتحدى المرأة أن تصدر آهة ألم ، وتزجج العينين ، وتشذب الحاجبين ، وتغسل الشعر ، وتجففه ، وتمشطه ..

قالت حمدونة :

— ليت مولاتى تسعدنى بخدمتها ..

ثم همست فى أذنها :

— معى رسالة من جار البيت المقابل ..

وأشارت بعينيها الى الخادمات والجوارى من حولها ..

لجأت زهرة الصباح الى بديهتها . قالت :

ــ ستظل حمدونة معى . انصرفن الآن ! ..

أولت المرأة أذنا منتبهة . عرفت عن الشاب ما جاوز صورته الظاهرة . لم يعد مجرد ملامح جسمية . كان سعد شابا على ثلاث بنات . أبوه المعلم الداخلى الملوانى تاجر قوافل بالحمزاوى . جلس الى عمود بجامع الأزهر ، درس النحو والشعر والفقه والتفسير واللغة ، وتعلم الرمى بالنشاب واللعب بالرمح ، والفروسية ، وسائر ما يحتاج اليه أولاد الملوك . فلما تقدمت أعوام أبيه ، شاركه الشاب فى تجارته . يكتفى الأب بمسامرة الزبائن ، والتحدث عن الأيام الخوالى ، ويشرف سعد على البيع والشراء وعقد الصفقات . يقضى يومه بين الأسواق والخانات والقيساريات والوكالات ، يلتقى بالتجار الوافدين ، يتعرف الى ما اشتروه ، وما يسعون لبيعه ، أو يعرض على أصحاب الدكاكين ما حملته قوافله من أسفارها فى رحلاتها الى الشرق والغرب . يستقبل القوافل ، محملة بالروائح والمسك والعنبر والتوابل المجلوبة من الهند ، والقرنفل وجوز الهند والفلفل والبهار والبخور والأفاوية من عدن ، والحرير من الصين ، والزنبق والمرجان والمعادن والزجاج من صور ، واللوز والمستكة والزعفران والأقمشة من الشام ، والسجاجيد من بلاد الترك وفارس .. يغيب مع القوافل الى الهند والسند والصين واليمن والحجاز والحبشة والسودان والشام والروم وديار بكر وجزائر البحار . تمضى الأشهر ، ثم يأتى ، ومعه الخيرات من كل نوع . حقق من ذلك أموالا عظيمة ، واقتنى الدواب والأراضى فى الريف ، وان حرص على أن يرعى الله دائما فى كل أعماله ..

لم يكن قد عرف عن الشاب ميله الى اللهو ، ولاهتك الحرم ، ومحاولة النفاذ الى المستور ، ولا عرف انه صادق الزعر ولا الشطار وذوى العياقة ، وان أحب الفرجة والتنزه والصيد والقنص .

اشتهر عنه تمسكه بأحكام الدين ، فهو لا يشرب الخمر ، ويؤدى الفرائض كاملة ، وحج — مرات — الى بيت الله الحرام . وكان كثير البذل والاحسان ، ويحب الفقراء والمساكين ، ويجالس العلماء وأهل العمامة . ويروى أنه أنفق الكثير فى وجوه البر والقربات والأجر والمثوبات ، فمالت اليه القلوب ، وأحبه الناس ، لكثرة مابذل من المعروف ، وقضى من حاجاتهم . أحبه حتى هؤلاء الذين لم يعملوا فى خدمته ، أو تعرفوا اليه لسبب ما ، وصاروا يحلفون بحياته ..

قالت زهرة الصباح :

— نفسى ليست ملكا لى ..

وهى تدارى ابتسامة فاهمة :

— أعرف أن الملك خاطبك .. لكن أباك له مكانته التى لا يخطئها حتى الملك نفسه ! ..

قالت زهرة الصباح :

— هل نسيت أن شهرزاد هى ابنة الوزير ! ..

أشاحت بيدها مهونة :

— ذاك شغل الكبار . ما أريده منك هو جواب السؤال : هل توافقين على الزواج من سعد الداخلى ؟ ..

الليلة الثانية والعشرون بعد المــائتين

قال عبد النبى المتبولى :

ــ هذه هى الليلة الثانية والعشرون بعد المائتين التى يشغل فيها شهريار عن زفافه لشهرزاد ، ثم قتلها ، بحواديت لا أعرف من أين أتت المرأة بها ..

قالت زهرة الصباح وهى تسوى شعرها خلف أذنيها :

ــ حياتى تنتهى بنهاية حكايات المرأة ..

قال ليطرد الخوف من نفسها :

ــ واضح انها تملك الكثير من الحكايات العجيبة ..

فى هدوء حزين :

ــ لكن .. الى متى ؟ ..

وهو يغالب تأثره :

ــ لقد أمسكت حبل النجاة بحياتها .. ما اظن انها تفلته ! ..

وضحك بعصبية واضحة :

ــ انها تظــــل تحكى له ، وتحكى .. حتى يهده التعب ، فينــــام ..

قالت فى هدوئها الحزين :

— الى متى ؟ ..

قال بنبرة واثقة :

— فتاة بهذا الذكاء لن تعدم الحيلة ..

كررت السؤال :

— الى متى ؟ ..

وهو يغالب الحيرة :

— قد يفطن الى قسوة انتقامه ..

قالت رقية :

— أتعنى ان شهرزاد لم تبذل له من جسمها ؟ ..

عانى الارتباك فى حضور زهرة الصباح :

— يا امرأة .. أنا لم أشاركهما الفراش ..

ثم وهو يدنو بفمه من أذنها :

— من حقه أن يعاملها كزوجة بعد أن تنهى كلامها ..

واجهته بعينين متسائلتين :

— وماذا عن قتله للفتاة التى تزف اليه ؟ ..

قال للخوف فى عينيها :

— يؤجل قتل شهرزاد ، لأنها تنام على بقية الحدوتة ..

وعلا صـــــوته :

— هذه ليســـــت مجرد حواديت .. لكنها تحذير من نملته النكراء المتجددة .

أطلقت تنهيدة :

ـ وهل يعى الملك معنى الكلمات ؟ ..

قال فى تأكيد :

ـ انه يناقشها فى كل ما يتصل بالملك والملكية .. فهو منتبه اذن ! ..

ذهبت هيبة الحكم ، فلم يعد للملك قيمة فى نفوس الناس ، الا خوفهم منه .. بات واضحا للكافة أنه انصرف الى حياة اللهو ، لا يشغله حكم ولا رعية ، فهو يقضى غالب النهار نائما ، بعد أن يكون قد قضى الليل ساهرا فى سماع حكايات شهرزاد . لا يلتقى ـ الا نادرا ـ بوزرائه وأمرائه وكبار رجال دولته ، ولا يتابع أحوال المملكة ، ولا يطالع رسائل حكام الولايات ..

قيل انه لم يعد ملك نفسه . لم يتبق له أمر ولا نهى سوى الاسم فقط . لا يشغله أمر البلاد والعباد . أسلم أذنيه ونفسه لشهرزاد ، لا يفكر فى غير ما ترويه له ، ولا يرى الا مشاهد حكاياتها ، حتى ما يبدو خرافة ، ولا يمكن تصديقه . وقيل انه استغرق فى المعاصى ، وشرب الكؤوس ، وسماع القيان ، وقطع أيامه باللهو وسماع الحكايات . وتدخل الحريم، نساء القصر والجوارى ، فى شئون الحكم ، فظن الناس أن الملك قد انشغل تماما ، فلم يعد له سوى الاسم ، دون غير حكم ولا تدبير ، ولا رأى ولا نهى . انما هو قد انصرف الى سماع الحواديت ، وقضاء النهار فى راحة ، حتى يأتى الليل ، لتصل شهرزاد ما انقطع من حدوتة الليلة الماضية . تسلل الاستخفاف الى مشاعر الناس . لم يعد فى نفوسهم ذلك التوقير القديم ، وربما طالت نكاتهم حتى الملك نفسه . تجرءوا على مقامه ، ولاحظوا معايب لم يفطنوا اليها

من قبل . الملك ينتقم من خيانة زوجته له ، فلماذا بنات الناس يدفعن الثمن ؟ وما ذنب هؤلاء الذين انشغل عنهم الملك بشهواته ؟! ..

وقال بنيامين شموع التاجر بالضببية :

ـــ من أين للرجل بكل هذه الفحولة ؟ ..

وأردف ضاحكا :

ـــ انا أضاجع المرأة ليلة فى الأسبوع .. فلا أغادر الفراش متعبا يومى كله ! ..

أســــرف الناس فى القاء المخلفات فى النيل ، حتى تهدد مجراه بالتحويل ، وقلت محاصيل الخضروات والحبوب والفاكهة وكل ما تنتجه الأرض . وأهمل من بقى فى المدينة من بنات الأسر الفقيرة ، ما درجن عليه من تأدب ، فهن يرتدين الثياب القصــيرة ، ربما كشـــفت عن عوراتهن . يخرجن متزينات . يضــــربن الأرض بأرجلهن أثناء المشى ، لتصــدر الخلاخيل صــليلها المنغوم ، يخرجن الى الأســــواق نهارا ، والى المقابر ، أو الى البركة ، ليلا ، يغتســـلن فى البركة أمام الرجال ، فلا يأبهن ، وفعل من شــــاء ما شـــاء . انتشر ما كان محدودا من انصراف الناس الى الرذائل ، مثل الزنا واللواط وشــــرب الخمر وتعاطى الحشيش، وأن اكدت التقــارير التى رفعهــا أعوان عبد النبى المتبولى ان انصـــراف الناس الى الرذائل هو من اختراع أعوان الملك ، ربما لتظل قبضــــتهم على أعناق الناس . كاتب الناس الملك مكاتبات كثيرة ، بلغ عددها المئات كل يوم ، بحيث لم يكن فى وســـعه قراءتها . ترك أمرها لمعاونيه ، فأهملوها . حتى ما اتصــل بحياة الناس وأمور أيامهم ، غضـــوا أطرافهم عنه . انشــــغل بســـماع الحكايات ، وأهمل حكم البلاد . فأسرفه

الأمراء والأعوان فى التزام جانب الدعة واغفال المسـئولية ، وتوقفت ـ أو كادت ـ أنفاس الحياة . عمت المظـالم بما لا يدركه حصـر . تعدوا واجباتهم ، وتفننوا فى المصـادرات ، وامتدت ايديهم الى أموال الدولة ، وتفشـت مظاهر الحسـد والحقد والبغض وغصـب الأموال والايذاء والنزاع . اختلت الأحوال ، وطغى الأكابر ، وفسدت النواحى ، وفزعت النفوس الى الأمل .

استولى الأمراء وكبار الاعوان على الدولة ، يوقعون المراسيم باسم الملك ، يضعون عليها خاتمه ، يخضع لها الناس ، كأنها من فكره وضميره . وصار الحجاب يتعاطون الأحكام ..

زاد من سوء الأوضاع ، انشغال عبد النبى المتبولى بقضية ابنته . بدا ـ غالب الأوقات ـ مهموما ومنصرفا ـ ولو بالذهن ـ عما حوله ، ووقوع الخلافات بين معاونى الملك ، وضعف نواهم عن التدبير ، لقصر المدد التى يقضونها فى وظائفهم . اكثروا من المظالم ، وجاروا على الناس ، واسرفوا فى اخذ الأموال والبراطيل والحمايات ..

ضـجر الناس من الجند والمماليك ، يركبون الخيـل ، ويتراكضون فى الشـوارع والأسـواق . يصـدمون المرأة والطفل والعاجز . فيواصلون الركض ، لا يأبهون ، كانما الطريق جعلت لهم ، وكأن أرواح الناس بلا قيمة . ووقع الكثير من المذابح والاغتيالات والمقاتل والمصادرات والاستعباد والاسترقاق ، وعلا شأن أسـواق النخاسة والمتاجرة بالرقيق ، وتهاونت الشرطة فى انتشـار الحشيش والخمر والدوظة ، وتعددت حوادث الزنا بالنساء ، والفسـق فى الغلمان ، ونهب أموال الناس ، وانتشر

طغيان الموظفين ، ونقصت الأجور ، وزادت أسعار الحبوب ، وارهق الناس بالضرائب والمكوس ، وكثرت الأتاوات على الفلاحين والتجار ، فضج الناس بالشكوى ..

زادت حوادث الشطار والعيارين بقطع الطرق ، ونهب الأسواق ، واغتصاب الناس ، وفتح الدكاكين ، واشعال الحرائق ، وكبس الدور ، واقتحام السجون ، وفرض الأموال على التجار وأصحاب البيوت ، وقتل السابلة . صاروا دولة داخل الدولة . أسلم الناس أعناقهم الى قبضة اليأس ، فاعتصرتها .. أيقنوا بعدم زوال المحن فهى باقية . لن يقضى عليها ، أو يبددها ، تمرد أفراد ، أو خطبة فى صلاة جمعة ، أو ثرثرات فى جلسات مخفية ..

مع ذلك ، فقد كثر تردد الجماعات على المساجد ، يبتهلون ، ويتقربون الى الله بالصلاة وتلاوة القرآن الكريم . وخشى كبار رجال الدولة من أن يفسد نظام الملك ..

انطلقت الألسنة فى حق الملك . وصنع بعض الصناع تمثالا من الحلوى على هيئة شهريار وهو مسمر . باعوه فى الأسواق ، فأقبل الناس على شرائه وأكله ، وهم يغنون الأزجال والبلاليق والمواليا . صاروا يصنعون كلاما ويلحنونه ، ويغنونه فى الميادين والشوارع والأسواق ..

سمع عبد النبى المتبولى أغنية أنشدها واحد من المستمعين للقاص فى وسعاية بالمغربلين . خشى أن يعرفه الناس ، ففوت اعتقاله ..

رسم الملك بقطع لسان كل من يغنى زجلا أو موالا أو بليقة يحاول النيل من الحاكم . لكن الناس ألفوا الـــكثير من الأزجال والبلاليق والمواليا . غاب المؤلف فلم يعرف المصدر ..

قال عبد النبى المتبولى :

ــ خانته امرأة مع عبد مثل مسرور .. فانتوى أن يقتل فتاة كل ليلة عبد مثل مسرور ! ..

وهمس كالمتحير :

ــ الى متى يظل السيف يلعب فى اعناق بنات الناس ! ..

الليلة الرابعة والثلاثون بعد المـائتين

دهشت المرأة لموافقة الام على أن ترى زهرة الصباح الشاب . لم تكن رقيبة ممن يتساهلن فى أمر يتصل بالاخلاق . كانت على صلاح، تحسن العبادة ، وتؤدى الفرائض فى أوقاتها ، وما كانت سجادة الصلاة تفارقها فى أى مكان .وكانت تحرص على الحجاب دوما ، فلا تأذن بالتعرف الى ملامحها حتى للاتباع القريبين والخدم ..

كان القصر يشغى بالخدم والجوارى والحواضن والمواشط والولائد والمغنيات والعوادات والعالمات . ومع ان المرأة كانت كثيرة التدخل ، تشـرف وتوجه وترعى ، فانها كانت كثيرة الاشـتغال بالمطالعات ، تعظم العلماء والصالحين ، تفسح لهم قاعات القصر ، تنصت — من وراء حجاب — الى قراءاتهم وما يطرحونه من علوم ومواعظ ..

لم تكن تأذن لجوارى القصر بالظهور سـافرات أمام زوجها ، الا لضـرورة . ولا يدخلن حيث يجلس الا اذا كانت بجواره . هى التى تدعو الجارية ، وتأمرها ، وتتابع ما تفعله ..

روى انها اشترطت — عند زواجها — الا يتسرى زوجها بجارية حبشية ولا رومية ولا غير ذلك من الجوارى . وبعد أن أمضها العقم فى أعوام زواجها الأولى ، لجأت الى بيت تعتزل فيه النساء اللائى يطلقهن أزواجهن . قضت أشـهرا فى التأمل ، بعيدا عن كل ما

بشغلها، قبل أن توافق على العودة الى بيتها . ومع أن البيت كانت تعتزل فيه نساء بلا أسر ولا موارد ، فقد فضلت أن تكون أقامتها فيه ، فتبعد عن مألوف الحياة ، وعن كل ما يشوب تفكيرها ..

قال عبد النبى المتبولى :

ــ شهرزاد المسكينة تصل حكاية بأخرى ، حتى يبقى الملك على حياتها الى يوم جديد ..

قالت رقية :

ــ ليست شهرزاد وحدها هى التى تشترى حياتها بالحكايات ..

وأردفت فى تساؤل هامس :

ــ ماذا كان مصير ابنتى ، ومصير بنات الناس ، لولا حكايات شهرزاد ؟ ..

قال المتبولى :

ــ شهرزاد هى الحدوتة الكبرى .. وهى تفوق كل ما تروبه من حواديت ..

قالت رقية كالمتذكرة :

ــ هل اكتفى بسماع الحواديت ؟ ..

وهمست :

ــ ألا يطؤها ؟ ..

لون نبرة صوته :

ــ أدركت شهرزاد أن ارواء فحولة الملك ليست هى الوسيلة الوحيدة لاستمالته ..

قالت رقية :

ــ الى متى يظل نهما لسماع حواديتها ؟ ..

اصطنع ابتسامة تطمين :

ــ الفتاة تدافع عن حياتها .. فلن يصيبها اليأس ..

التمع فى عينيها خوف :

ــ اذا أحس شهريار بالشـــــبع من حكايات شهرزاد ، فانه سيتطلع الى التهام عذراء جديدة ..

ــ هو طفل .. وشهرزاد ترضعه الحواديت ..

ثم فى تهوين :

ــ اذا كنا نخاف الغد، فان الوزير يخاف الليلة نفسها .. ان مصير ابنته يتقرر كل ليلة ! ..

رافق الدمع قولها :

ــ أما يستطيع أن يفعل شيئا .. أما يستطيع آباء الفتيات المقتولات واللائى سيحل عليهن الدور ، أن يفعلوا شيئا ! ..

وهو يمسح المكان بنظرة غير واعية :

ــ جنود الملك من المماليك .. فلا شأن لهم بفتيات المدينة ..

قالت فيما يشبه التوسل :

ــ فليدسوا له السم فى طعامه ! ..

فى صوت هده التعب :

ــ لا يتذوق طعاما الا اذا أكل منه أحد عبيده أولا ..

وهى تغالب دموعها :

ـ لابد من حل ! ..

رنا اليها بنظرة حانية :

ـ حتى يأتى ذلك الحل ، فان كل ما نأمله أن تواصل شهرزاد رواية حواديتها ..

ثم وهو يهز رأسه :

ـ الملك الجائر قصير العمر ! ..

غمغمت :

ـ ليس وهو يحيا داخل قصره ..

ربت كتفها :

ـ ربما أوتى من أحد أعوانه ..

بحلقت :

ـ ماذا تعنى ؟ ..

فتح راحتيه أمام صدره ، كأنه يتقى شرا :

ـ لا يا امرأة .. قلت لك انى لا أصلح لقتل دجاجة .. لكن غيرى آباء لفتيات ربما ينتظرن الدور ! ..

دلى ـ بموافقة الأم ـ سلم من الحبال المجدولة ، الى أرض الحديقة الخلفية . يتسلل ـ خلل الأشـــجار ـ فى الظلمة ، عبر السور القصير ، الفاصل بين الحديقتين .. ترقب رقية استقبال زهرة الصباح له فى بسطة السلم تخفيهما عن الأعين الفضولية والمتلصصة . خشيت اذا عرف الأب أن يمنع رؤية الشابين ، أحدهما

للاخر . تمتد احاديثهما بالساعات ، فلا تأذن الأم ، حتى للخدم ، بالدخول الى المكان ..

حدثها عن أسرته ، أبوه من كبار تجار القوافل . لم يرزق ولدا غيره ، وان تكفل برعاية ثلاثة أبناء لأخيه الأكبر الذى صرعه البدو فى خروجه على رأس قافلة ..

قال لها :

ــ معاملات أبى تمتد من جبل طارق الى اقاصى الهند ..

تساءلت فى دهشتها :

ــ الهند ؟ .. هذه بلاد بعيدة ! ..

قال فى بسمة مشفقة :

ــ انه يستورد الكثير من بضائع الشرق والغرب ..

وحدثها الشاب عن العقارات الكثيرة التى يمتلكها أبوه فى الحمزاوى والتربيعة وبركة الفيل وأرض اللوق ، وتجارة القوافل بين القاهرة ومدن العالم ، والدكاكين التى يعمل فيها لحسابه باعة وتجـــار ..

وحدثها عن أيامه بين وكالة قوصون وشارع بين القصرين ، وتنقله ــ أحيانا ــ بين رحبات وشوارع أخرى كخان الخليلى وسوق القناديل ، وعن ترقبه للبضائع الواردة من الهند وبلاد الشرق : الزيت والسيرج والصابون والدبس والفســـتق والجوز واللوز والخروب ، اشرافه على نقلها من القصير وعيذاب الى النيل ، تنقلها المراكب الى المقس وبولاق ، يسلم تجار القاهرة ما تعاقدوا على شرائه ، وينقل الباقى ــ بالمراكب نفســـها ــ الى دمياط ورشيد ، تنقل من هناك الى البحر المتوسط وبلاد أوروبا ..

كانت رقية ترقب الشابين ، من مجلس اختارته فى حجرة علوية تطل على الحديقة الفاصلة بين القصر والبيت المواجه .. لا تصل الى سمعها الكلمات ، وان حرصت فلا تفوتها حركة قد ترى فيها ان الشاب أساء الى ثقتها فيه . ظلت الاسئلة تشغلها : ماذا لو عرف الأب ؟ .. ماذا لو شاهد الخدم لقاءاتهما ، وأخبروه بها ؟ .. والى أين تمضى العلاقة ؟ .. وهل يوافق الأب — اذا وافق الشاب — على تزويجه منها ؟ ..

وهمست لنفسها :

— حمدونة الدلالة ..

الليلة الخامسة والستون بعد المائتين

أعلن عبد النبى المتبولى دهشته لرؤية حمدونة الدلالة ، تتوسط الباحة الداخلية للقصر . كانت تدخل القصور والبيوت المجاورة ، تعرض بضاعتها من الطيب والبخور وأدوات الزينة ، على الحرائر والجوارى . ألف الجميع زيارتها ، فلا يطردها الحراس . تسعد الأسر بها . تقدم لها البنات لدواع تتفهمها . هى العين التى يطل منها الرجال خارج البيوت على ما تخفيه الأسوار. لكنها ترددت فى طرق باب قصر المتبولى . لم يصل الى اذنها انه تمنى تزويج ابنته من أحد أبناء السراة ، وكانت تعلم ان الرجل يكفى أهل بيته مؤونة شراء ما يحتاجونه من الأسواق ، فلا حاجة لقدم غريبة كى تتردد عليه . يشدد فلا يدخل القصر هؤلاء الباعة الذين يسيرون فى الطرقات ، ينادون على بضائعهم ، ويدخلون البيوت لعرض ما معهم على الحريم . حتى المطابخ وغرف الخدم ، لا يأذن لهم بدخولها . كل ما يحتاجه القصر يشتريه الخدم من الأسواق . فاذا استلفت نداء بائع فى الطريق نساء البيت ، دلى الخدم من المشربية سلة بحبل طويل ، وبها النقود ، ترفع محملة بما وضعه البائع من بضاعة ..

كانت المرأة تضع على راسها بقجة كبيرة ، مليئة بما تحتاجه السيدات داخل البيوت : البخور والفناجين واللبان والمنظرة والكحل والمر والابر والخيوط والمقصات وغيرها ..

زهرة الصباح وحدها غاب عنها التوقع بأن تبدأ المرأة فى اخراج ما بداخل البقجة ، قطعة قطعة ، وعرضها على أمها وعليها . كانت تعرف غرض المرأة ، ولماذا قدمت الى البيت . البقجة وسيلة تعرف الحراس والخدم اليها، وسيلة دخولها الى البيت . أنزلتها على الأرض ، وجلست بجانبها . لم تحاول فتحها ، ولا نظرت اليها ..

تبادلت زهرة الصباح والمرأة نظرة خاطفة ، لم يلحظها الأب فى اندهاشه لدخول حمدونة باحة القصر . ثم صـــــعدت زهرة الصباح ــ بخطوات مهرولة ــ الى الطابق العلوى . فوجىء الأب ، وان لم تفاجأ الأم ولا زهرة الصباح برؤية الدلالة . أهملت المرأة قول الأم بصوت همهاأن يصل الى الأب :

ــ ما نريده يشتريه لنا الخدم من السوق ..

قالت المرأة وهى تميل الى الأرض :

ــ جئت لمناسبة سعيدة ..

استطردت للدهشة فى عينى الأب :

ــ المعلم الداخلى الملوانى تاجر القوافل يريد مصاهرتكم ..

قال الأب بســـــرعة :

ــ لا يوجد عندنا بنات ..

شهقت مستغربة :

ــ وزهرة الصباح ؟ ..

وهو يشيح بيده :

ــ تعلمين انها خطبت للملك ..

قالت بلهجة الفاهمة :

ـــ أنهت شهرزاد حكاية الخطبة والزفاف والاعدام ..

أدرك أن المرأة لديها الكثير الذى تعرفه . تحركت فى داخله طبيعته التى تجيد الاصغاء والتأمل والتخمين . قال لمجرد مسايرة المرأة :

ـــ ربما .. لكن ذلك كله مرتهن بنفاد حصيلة شهرزاد من الحواديت .

ضربت المرأة صدرها بيدها :

ـــ هل يقتل الملك أم ابنه ؟ ..

هتف بالدهشة :

ـــ ماذا ؟ ..

ـــ أما تدرى أن شهرزاد أنجبت طفلا جميلا ؟! ..

همس فى دهشته :

ـــ كنت أتصور أنى أعرف كل ما يجرى فى قلعة الجبل ..

قالت فى لهجتها الفاهمة :

ـــ هناك أشياء لا يعلمها الا الذين يترددون على المطابخ وأجنحة الحريم ..

ونجوى ؟! .. هل تخفى ما تعلمه ، أو أنها ـــ مثله ـــ لا تعلم ! ..

قالت رقية ، تعين الدلالة بما اتفقتا عليه :

ـــ فماذا دخل عليها الملك ، واكتشف أنها ثيب ؟ ..

قالت حمدونة وهى تعبر بيديها :

ـــ دعى هذا الأمر لى .. اذا طلبها فى أى وقت ـــ لا قدر الله ـــ فستكون مثل التى بخاتم ربها ..

فى همس منفعل :

ـــ كيف ؟ ..

قالت المرأة بثقة :

ـــ هذه مهنتى ..

أردفت وهى تتجاهل نظرة الارتباك لارتفاع صوتها :

ـــ ما يريده الملك نقطة دم .. لن أعجز عن تدبيرها له ! ..

الليلة الثالثة والسبعون بعد المائتين

قال شهريار :

ـــ قولك : « ان الملك ينبغى له التـــأنى فى الحكم بين الناس » .. هل هى رسالة الى ؟ .. هل تشكين شيئا وتريدين ابلاغه ؟ ..

قالت شهرزاد :

ـــ مولاى .. لا تفسر أى شىء بعكس ما تستهدفه الحكاية . انما هى وقائع امتزجت بالخيال ، حدثت لأقوام آخرين ، أرويها للتسلية والعبرة ..

الليلة الخامسة والثمانون بعد المائتين

فاجأها بالقول :

ـ لقد جعلت من الحجاج المسكين قوادا . .

أضاف للارتباك فى ملامحها :

ـ ألم تقولى عنه : لابد أن احتال على أخذ هذه الجارية التى اسمها نعم ، وأرسلها الى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، لأنه لا يوجد فى قصره مثلها . ولا أطيب من غنائها ..

أفرد لها الملك قصرا وحدها . فرشه بفاخر الأثاث ، المطعم بالذهب والفضة والصدف ، وبالبسط والوسائد . أرخى عليه الستائر الجميلة ، والملونة . أوكل اليها من يخدمها من الجوارى والعبيد والخصيان والطواشية ، ورتب لها راتبا شهريا يعينها على الحياة الهانئة ، وقدم لها من أنواع الذهب والفضة واللؤلؤ والمرجان والزبرجد واليشب الأحمر والكهرمان واللازورد وسائر الألوان والتحف مالا يحصى عدده ، وملأ اسطبلات القصر برءوس الغنم والشعير والبقسماط والدجاج والأوز البلدى والسكر والدبس والأرز المبيض ..

أحسنت فهم المعنى ، فهى لم تعد اذن زوجة لليلة واحدة . همس لها وهى تغادره فى الصباح :

ـ لا تتركى مكانك .. فسأزورك هذه الليلة ! ..

داخلتها فرحة . انتقلت اليها ، ولم تنتقل اليه ، فأى تغير ؟! .

مدت أمامه مائدة من الدجاج واللحم والضأن والشـــــراب والحلوى ، وعزفت القيان ما تثق انه يحبه . ائتلفت ألحان ، شارك فى عزفها عود جلقى وجنك عجمى وناى تترى وقانون مصرى ..

أكل القليل من الطعام ، وقال :

ــ الأكل يجلب النوم .. أريد أن أستمع اليك ..

لجأت الى بديهتها :

ــ تلك مغنية وليست مومسا ..

عدل من وضع العمامة فوق رأسه :

ــ لكنه احتال ليأخذها الى مولاه ! ..

قالت بصوت متذلل :

ــ الوزير خادم للملك ، وعليه أن يسعى الى كل ما يرضيه ..

تقوس حاجباه :

ــ لقد سرق الحجاج المرأة ياشـــهرزاد .. وكذب لما قال انه اشتراها بعشرة آلاف دينار ..

ضغط على الكلمات :

ــ ياشهرزاد .. لم يكن الحجاج شرا خالصا ..

وهى تغالب ارتباكها :

ــ الحكاية تتحدث عن قسوته لا عن شره .. وهى قسوة فى تحقيق العدالة ..

وتشابك فى صوتها خوف :

ــ انه كان ينفذ تعاليم سادته الأمويين ..

اشفق عليها ، فقال :

ـــ لماذا لا تكملين حكايتك ؟ ..

أطالت فى الحكاية .. أضـــافت اليها حواشى وزيادات . شرقت وغربت . ابتدعت من الأحداث والشخصيات ما لم يكن موجودا فى الحكاية الأصلية ..

حين التصق نور الصبح بالستائر المسدلة ، أعفاها من عناء وصل حكاية الليلة بحكاية الليالى التالية ..

قال :

ـــ فلنكتف بما رويته هذه الليلة ..

كانت تلحظ ما يعانيه ، فهو يطيل النظر اليها ، كأنه يستشف ما وراء ثيابها ، كأنه لم يسبق له تعريتها ومضاجعتها . لم تحاول أن ترتدى ما يثيره . حتى فى ليالى الصيف ، كانت ترتدى ثوبا يغطى جسمها كله . أهملت نظرته المســـــتغربة فى البداية ، ثم اعتاد ما ترتديه . شغلته الحكايات عن سواها ، وتركزت نظراته فى شفتيها ، تتابعان ما ترويه . ثم تعددت مضـــاجعاته لها فى القصر الأبلق ، ثم فى قصرها الجديد ..

ألفت أن تلامس يده يدها عفوا . يزيح يده بالعفوية نفسها . لحظت أنه هذه المرة ترك يده ، وجاوز ذلك الى تحسس جسدها كله .. ثم مال عليها ، وقبلها . ودعاها الى غرفة النوم ..

فاجأها ـــ ليلة ـــ انه ـــ للمرة الأولى ـــ صلى ركعتين قبل أن يضاجعها ، فعلمت أنه يريد الانجاب . قال بعد انتهاء صلاته : « باسم الله . اللهم جنبنى الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا » .

أحست بأصابعه تتحسس أزرار ثوبها ، ثم تفكها . أهملت النظر الى يديه ، وهما تجوسان فى بطنها العارى . تصعدان الى الثديين ، تتأكدان من تكويرهما ، وتهبطان الى الساقين ، فتنرجان ما بينهما .

الليلة الثانيـة بعد الثلاثمائة

انتبهت رقية لدخول عبد النبى المتبولى . لم تشعر بجلبة الجياد خارج القصر ، ولا صوت انفراج مصراعى الباب الخارجى ، ولا وقع قدميه الى داخل البيت ..

كانت زهرة الصباح قد اختارت الجلوس ــ للقراءة ــ فى ركن القاعة ، أسفل مشربية اقتحم ضوء النهار أخصتها . احتوتها رقية بنظرة متأملة ، كأنها تراها للمرة الأولى . أخذت عنها بياض بشرتها ، وشعرها الأشقر ، وعينيها الزرقاوين . وأخذت عن أبيها امتلاء شفتيه ، والقامة الطويلة فى غير امتلاء ، والأنف الأقنى ، وان تميزت بنعومة فى الكلام والحركة ، وبخفوت الصوت ، فمعظم حديثها لا يعلو على الهمس . واذ، تحركت ، اندفعت الى الامام فى مشية طفلة .

قال المتبولى :

ــ حين روت شهرزاد تبرك الناس بمقام السيدة نفيسة فى حكاية علاء الدين ، بدا على الملك تأثر عظيم ..

أمنت الزوجة بهزة من رأسها :

ــ للسيدة نفيسة سر باتع ..

قال كالمتنبه :

ــ مضت فترة طويلة لم تزورى مقام السيدة نفيسة ..

فى لهفة لم تحاول اخفاءها :

ــ اذا أذنت لى .. هل أزورها فى الغد ؟ ..

وهو يهز رأسه :

ــ سأبلغ عيسى الطحاوى فيدرسك رجاله الى المشهد النفيسى ..

استطرد قبل ان يترك الحجرة :

ــ لا تنسى اللجوء الى شفاعتها ! ..

غالبت ترددها :

ــ لماذا لا تتبرك بالزيارة معى ؟

توقف فى مكانه :

ــ سأقضى الغد فى دار الحكمة .. وقد استمع فى المساء الى حكايات القصاص ..

وقال للدهشة فى عينيها :

ــ من يدرى .. ربما تصبح الحواديت هى سلاح زهرة الصباح للدفاع عن حياتها ..

استطرد متذكرا :

ــ كانت السيدة نفيسة فى رواية القاص أمس ، هى التى جمعت بين عتمان بن الحبلى والظاهر بيبرس . تم تآخيهما فى جامعها ، بالقرب من ضريحها ..

قالت فى همس كمن تحادث نفسها :

ــ أرى أن وقتك تمضيه فى التردد على الرواة والقصاص

الليلة الثامنــة بعد الثلاثمائة

قال الراوى :

الدنيا غازية مادامتش للناس ، ولا ليه

ولا دامتش لمصرى ولا للرومى اللى نشا سور اسكندرية

ولا دامتش لسيدنا داود اللى فتل الحديد ، ولان لما بقى ميه

ولا دامتش لسيدنا سليمان اللى طاعه الأنس والجنية

ولادامت لسيف اليزل اللى سعى وجاب كتاب الميه

ولا دامتش لأبو زيد ودياب أيام حروب الهلالية ..

الليلة الخامسة عشرة بعد الثلاثمائة

لم يخف المتبولى قلقه . انحط على الكنبة فى صدر القاعة وهو يزفر . انتقل القلق فى ملامحه ، تساؤلا فى عينى رقية ..

نزع صديريته ، وقذف بها الى الأرض ، وقال من بين لهاث انفاســــــه :

ــ لا أدرى ان كانت شهرزاد تستجمع الآن أنفاسها ، أم انها فقدت تلك الأنفاس ..

أضاف للتساؤل فى عينيها :

ــ انها تروى الآن حكايات تتعلق بالكرام . مجرد حكايات مما نقرأه فى كتب الطرائف والنوادر ، لا صلة لها بما اعتاد الملك سماعه منهــــــا ..

وقلب شفته السفلى كالمتعجب :

ــ كان آخر حكاياتها الطويلة عن علاء الدين ابى الشامات .. استغرقت فى روايتها ما يزيد على الستةعشر ليلة ..

نطق وجهها بالذعر :

ــ اتظن أنها ملت رواية الحكايات ؟ ..

تنهـــــد :

ــ الملل من ناحيتها غير وارد .. فالخشية أن يكون ذلك من جانب شهريار ..

ثم وهو يكاد يفارق أعصابه :

ــ أخشى انه لم يعد لديها ما تقوله ! ..

الليلة الثالثة والعشرون بعد الثلاثمائة

احست بتعثر خطواتها ، وهى تغادر البيت — للمرة الأولى — منذ فترة بعيدة ، ربما شهرين أو ثلاثة . لزمت البيت ، فلم تغادره . يقتلها التوقع : ضربات الجند على الباب ، يصطحبونها الى قصر الملك ، يخترق جسمها . ثم ينفصل الراس عن الجسم قبل أن يأتى الصـــــباح ..

اتجه اليها أبوها بنظرة مشـــــفقة ، وهو يلتقط قطعة لحم ملتصقة بأسنانه :

— متى تغادرين البيت ؟ ..

قالت فى خوفها :

— الى اين ؟ ..

وهو يتأمل قطعة اللحم بين اصبعيه :

— تتسوقين .. تزورين عمتك ..

تبدى الذهول فى عينى الأم :

— هل تأذن لها بالخروج ؟ . .

قال كالمستغرب :

— من حقها أن تتفرج على الدنيا ..

قالت فى ذهولها :

ــ لكنك تحرم علينا رؤية الطريق ..

كان يمنع أهله من مغادرة البيت ، لا محجبات ولا سافرات ، وان اذن لهما ــ أحيانا ــ بالخروج ــ الى جانب التردد مرتين أو ثلاثا كل أسبوع ، على حمام البيسرى ــ لزيارة أولياء الله ، أو للفسحة ، أو لزيارة الأقارب ، أو مشاهدة الأسواق ، من داخل هودج ، أو على عربة يجرها جوادان ، ويحرسها عبيد وخدم ..

وكان يحرص ألا تقع عليهما حتى أعين الخدم ، فلا يراهما ، أو يدخل أجنحتهما ، سوى الجوارى والعبيد والخصيان . اذا اضطرت المرأة للقاء رجل ــ مهما صغر شأنه ــ فانها تضع نقابا على وجهها ..

كانت تحلم ــ وهى فى مكانها ــ بمواكب المحمل ، ووفاء النيل ، وفتح الخليج ، وركبة الرؤية ، ومولد النبى ، وشم النسيم ، وليالى رمضان ، وطلعة الحج ، وصلاة العيدين ، وعودة الحج ، وموكب الملك يشق القاهرة من باب النصر . القبة والطير على رأسه وقدامه وحوله الوزراء والأمراء وأكابر القوم . والشقق الحرير مفروشة من باب زويلة الى قلعة الجبل ، وخفائف الذهب والفضة تتناثر على الجميع ..

اصطبغ صوته باشفاق :

ــ أما يكفى البنت حياتها فى الخوف ؟ ..

وأعاد تأمل كلام المرأة :

ــ ثم .. ألا يرافقك الجوارى كل أسبوع لزيارة السيدة نفيسة ؟ ..

واتجه الى زهرة الصباح بنظرة حانية :

ـــ اذا ظللت فى البيت ، فاعلمى ان اقامتك ستطول ..

تالق وجهها بالأمل :

ـــ هل ؟ ..

قاطعها :

ـــ لم يمت الملك ، ولا أعلم أنه أقلع عن عادته ..

شاب صوتها خيبة امل :

ـــ ما الجديد اذن ؟ ..

وهو يوقع على الفراغ بأصابعه :

ـــ لا جديد ! .. انما علمت أن الملك ينام هذه الأيام على حكايات ستطول ـــ ربما ـــ لأشهر قادمة ..

اخلى وجهه لارتياح ظاهر :

ـــ انها حكاية لا تنتهى عن الجاسوسية والمؤامرات والغدر والخيانة والقتل ..

استطرد موضـــــحا :

ـــ مات الملك عمر النعمان ـــ كما رويت لك ـــ مسموما بيد جواسيس الروم . وخلفه فى القيادة ابنه شركان . فلما مات ، تسلم القيادة من بعده أخوه ضوء المكان . ولا احد يدرى ـــ سوى شهرزاد ـــ الى أين تنتهى هذه الحكايات ؟ ..

حين وقع اختيار شهريار على ابنته ، لتكون عروس الليلة التالية لاعدام شهرزاد ، خطر بباله أن يرتدى ثياب الحزن ، وينقطع

عن الديوان . لكنه تذكر أوامر الملك بألا يكون للحزن مكان فى نفوس الناس ، ولا فى وجوههم أو تصرفاتهم . خشى أن يمتد أذى شهريار الى أهل بيته ، لا يغلت زهرة الصباح ولا أمها ، ولا يفلته هو نفسه ..

هجر مجالس أصدقائه ، وانقطع فى القصر — ماعدا الساعات التى يجلس فيها للوظيفة ، أو يتردد على قعدات الرواة — لا يزور ولا يزار . وشدد على أهل القصر ، ان من يأتى لزيارته ، يخبرونه بغيابه ، أو بنومه ..

لم يعد يهنأ له طعام ولا شراب ولا نوم . واذا جلس للحكم ، فان ذهنه يظل شاردا . يشرق ويغرب ، ويهبط فى جزر بعيدة ، ويتصور نجاة زهرة الصـــباح فيما لا يقوى على عمله . حتى مسئولياته المهمة أصبحت لا شىء أمام ارادة شهريار الباطشة . واذا لزم البيت تتابع عيناه — باشفاق — حركاتها وســكناتها . كيف تحيا الخوف ، والصورة التى رسمتها للأيام التالية ..

تيقظت فيها رغبة — لا تدرى بواعثها — الى مغادرة البيت . لم تكن تعرف عن الحياة فى الخارج شيئا ، ولا اشتاقت أو تطلعت . ظلت عمرها فى البيت ، لا تغادره الا للفرجة — من داخل هودج — على بركة الفيل ، وزيارة أولياء الله ، دون أن تغادر مكانها فى الهودج ، أو مشوارها الى حمام البيسرى ، فى حراسة جوار وخدم وعبيد . لم يخطر ببالها انها تتجه الى غير الأماكن التى صحا عليها وعيها ، فهى صورة الحياة خارج البيت ، تســـمع عن الأســـواق والموالد والســـهر والأذكار والقصـــاصين .. لا تجد فى داخلها رغبة للتعرف الى ما تناولته الأحاديث من حولها . تيقظت الرغبة قوية ، فلم تحاول السؤال عن بواعثها ولا قررت

اهمـــــالها . كأن كلمات أبيها قد حركت فى داخلهـــــا مالم تكن فطنت الى وجوده أصــــلا . هزت رأســــها ـــ بعفوية ـــ بما يعنى الموافقة .

ارتدت قميصا واسعا ، طويلا ، تصل أطرافه الى الأرض ، وله أكمام واسعة ، وفوقه ازار غطى كل جسمها ، وعلا ملابسها . ثم وضعت فوق الوجه نقابا ، لا يبين حتى العينين ، بالاضـــافة الى عصبة ، أولها فى الجبين ، وتمتد حتى الظهر . .

اطمأنت الى ما ارتدت فى عينى أمها ، فغادرت البيت من بابه الخلفى ، تتبعها الجارية ، متأخرة بعض الشىء عنها . .

لحقها صوت الأم فى اشفاق :

ـــ هل يصحبك عبيد ينحون الناس عن طريقك ؟ . .

وهى تخطو خارج القاعة :

ـــ افضل أن تصحبنى الجارية نسيم وحدها . .

تابعها صوت الأم :

ـــ فليتبعك اذن اثنان من الحراس . .

اضافت فى لهجة محرضة :

ـــ لن تشعرى بوجودهما . . فسيتبعانك من بعيد . .

وسألها أبوها وهى تمضى الى الباب الرئيسى :

ـــ هل تخرجين على قدميك ؟ . .

قالت مهونة :

ـــ معى حارسان وجارية . . وعلى وجهى نقاب ، فلن يعرفنى احــــد . .

* * *

طالعها شارع التصبة . اعتادت المرور فيه مع امها ، عند الذهاب الى المشهد النفيسى . انحسر الزحام بما لم تعهد رؤيته من قبل ، وان بدت الدكاكين غاصة بأنواع المآكل والثياب والأمتعة . فهل القت حفلات الاعدام ظلها على حياة الناس ؟! ..

الدكاكين مفتوحة ، أمامها مصاطب يجلس عليها الباعة ، وارباب المقاعد افترشوا الأرض ، يبيعون المأكولات والمشروبات والفاكهة والخضر والفطائر والمقنيات والخواتم والأساور ، والخيول المطهمة ، والجمال تهتز بكومات الحطب ، وصليل الأجراس فى رقاب الدواب ، والمكارية والتراسون وحمالو الحطب ومزابل الطين وأهل السوق وسقاءو الكيزان وارباب الروايا والقرب والدلاء ، والحلاقون بمراياهم المعلقة فى الرقاب ، ينادون على مهنتهم بصوت منغم ، وأصوات العتالين تتبعها ، تربكها ، لا تدرى أى اتجاه تسلك : حاسب ! .. حاسب ! .. افسحى الطريق ! .. وصيحات الحمارين : يمينك .. شمالك ! .. افتح عينك ! ..

ابتسمت لعربة ـ حاذتها ـ يقودها حمار ، وفوقها نساء ، يضربن الدفوف ويغنين . ولمحت سقاء يصب الماء من فتحة فى جدار بيت ، فأهل البيت لا يأذنون له بالدخول . وزاحمها جمل يحمل حطبا ، فاندفعت داخل دكان صف بضاعته على الرصيف تساندت على الأرفف ، وساعدتها نسيم فى هندمة ثيابها ..

فى نظرتها السريعة ، المتأملة ، للمكان ، لمحته . هائل القامة ، أسود البشرة ، غطى الشعر الأكرت رأسه الى الأذنين واهم ما يميز سحنته شفتان غليظتان ، كأنهما منفصلتان عن بقية الوجه ..

قالت للجارية نسيم وهى تميل من شارع القصبة :

ـ من هذا العبد ؟ ..

ثنت نسيم نظرة متسائلة :

ـ اى عبد ؟ ..

وهى تومىء الى الوراء :

ـ الذى رأيناه فى الدكان ..

قالت نسيم متذكرة :

ـ آه .. هذا مسرور .. صاحب السيف والنطع ..

داخلها قلق :

ـ هل هى وظيفة مهمة ؟ ..

ـ انه المسئول عن عملية قطع الرءوس على النطع ! ..

الليلة التاسعة والعشرون بعد الثلاثمائة

شددت على الجارية والعبدين ، فلم يصل الى عبد النبى المتبولى نبأ نزولها عن هودجها وسيرها على القدمين ، وسط زحام الشوارع ، أسلمت نفسها الى عزلة داخل حجرتها ، لا تغادرها . صورة الرجل الأسود احتلت ذهنها . تنام عليها ، وتصحو . تراه فى الهيئة نفسها التى رأته فيها داخل الدكان . تغالب رعشة تسرى فى جسمها ، كلما تذكرت ماحدث ..

تناهى صوت الأب من الطابق الأسفل :

ـ أى رجل يرضى لنفسه بمضاجعة امرأة تخافه وتكرهه ؟ .

قالت الأم مستغربة :

ـ لو أنها تكرهه ، ما واتتها القدرة على رواية كل تلك الحكايات ..

ولونت نبرة صوتها :

ـ هل تحب قاتلها ؟ ..

قال بلهجة باترة :

ـ تخافه نعم .. لكن الكراهية شعور مختلف ..

* * *

قال الأب وهو يتهيأ للنوم :

ـــ ذلك الشاب .. هل مازال على عرضه بالزواج من زهرة الصباح ؟

اعتدلت فى جلستها ، واتجهت اليه بنظرة غير مصـــــدقة . اعتادت ـــ لطول معاشرته ـــ أن يعلن الموافقة ـــ بلا تردد ـــ على ما ينال رضاه . يطالب مهلة للتفكير فيما انتوى رفضه ، يســــلمه لتوالى الأيام بمحوه من الذاكرة . لم تكن تتصور أن يوافق على خطبة زهرة الصباح للشاب بهذه البساطة . كأنه كان يعلم ، فأعد موافقته قبل أن يعرض الأمر عليه . هل لأنه أشفق على ابنته من المصير المؤلم ؟! ..

قالت لمجرد أن تطمئن الى ماينتويه :

ـــ فاذا طلبها الملك ؟ ..

وهو يغالب انفعاله :

ـــ شهرزاد تحيا فى ظل الموت .. فهل اعتبر ابنتى ميتة ، وهى حية ؟! ..

الليلة الخامسة والثلاثون بعد الثلاثمائة

التقت بهارون الرشيد فى جولة ليلية . كان جعفر الوزير يصحبه ، والخادم مسرور يفسح طريقهما . هو الخادم الذى التقت به فى الشارع الأعظم . الجسد العملاق ، والسحنة السوداء ، والشعر الأكرت ، والأنف الافطس ، والشفتان المتدليتان ..

كانت الظلمة تلف شوارع بغداد ، فيما عدا أضواء متناثرة من مشربيات البيوت ونواصى الدروب ، والمارة قلة ، غاب فى خطواتهم السريعة تعرفهم الى أن السائر فى الطريق هو الخليفة هارون الرشيد ، يرافقه الوزير جعفر البرمكى ، يسبقهما الخادم مسرور ..

لاحظ الخليفة ما ارتسم فى عينيها من ذعر لمرأى الخادم . سأل فى بسمة اشفاق :

ــ هل أخافتك سحنته ؟ ..

قالت فى ذعرها :

ــ انه المسئول عن قتل نساء شهريار ..

سأل الرشـــــيد :

ــ من شهريار ؟ ..

قالت بســـــرعة :

ـ حاكم هذه البلاد ..

اردفت للدهشة فى عينيه :

ـ انه زوج شهرزاد التى تحفظ حياتها الآن بما ترويه من حكاياتك ..

نظر الرشيد الى جعفر فى عجب :

ـ صار لى حكايات ترويها هذه الشهرزاد ..

قال البرمكى :

ـ انها تدعى اسما غريبا لسلطان البلاد ..

واستطرد متشككا :

ـ لعل الفتاة مخبولة ..

غلب الغضب خوفها :

ـ لو اننى ما قلت .. ما عرفت الخليفة وعرفتك والخادم مسرور ..

وشى صوته بسخرية :

ـ هذا الذى يقتل نساء الحاكم ..

وهى ترافق الكلام بهزات من رأسها :

ـ نعم .. ظل يقتل امرأة فجر كل يوم .. حتى أوقفته حكايات شهرزاد ..

غمغم الرشيد :

ـ شهريار وشهرزاد والخادم القاتل ..

قال البرمكى فيما يشبه الردع :

ــ هذا هو مولانا خليفة البلاد هارون الرشيد .. وانا ــ كما عرفت ــ وزيره جعفر البرمكى ، ومسرور القاتل فى زعمك ، لا يقوى على قتل ذبابة .. اما شهرزاد زوج حاكمك ، فهى فى حياة مولانا زوجته وأم أولاده ..

شملها الخليفة بنظرة مشفقة ، ومضى . يتبعه البرمكى بخطوات قليلة ، ويسبقهما ــ بأمتار ــ الخادم مسرور .

الليلة التاسعة والأربعون بعد الثلاثمائة

أعطى عبد النبى المتبولى انتباهه ـ وهو عائد الى البيت ـ لصوت الشاعر يعلو بالموال :

البنت قالت لابوها ولا أختشـــت منه

توب الحيا يا با انقطع والنهد بان منه

والفحـــل أن يمنن يقتـــله منـــه

ومطــــرح كتر دا بيه خف القدم عنه

لتروح منه حـــاجة يتهموها فيـــك

تبقى أنت متهوم . وغيرك يكتسب منه

الليلة الخامسة والخمسون بعد الثلاثمائة

قال شهريار :

ــ هذه الجارية زمرد .. تصلح للحكايات والحواديت ، لكنها أبعد ما تكون عن حياتنا ..

أردف متسائلا :

ــ أى حاكم يجر على نفسه الوبال ، بفتح الخزائن وابطال المكوس واطلاق من فى الحبوس ورفع المظالم اطلاقا ؟! ..

قالت شهرازاد :

ــ هذه ــ كما قلت يامولاى ــ شخصية حواديت ..

ــ هل تحاولين تنبيهى الى ما تتصورين انى غافل عنه ؟ ..

اضطرب صوتها بالخوف :

ــ حاشا لله يامولاى أن ألمز فى عدلك ! ..

الليلة الثامنة والسبعون بعد الثلاثمائة

دعا الشيخ جعفر الوزان ، خطيب جامع الصالح ايوب ، الى اقامة الشرع ، والتقيد بالسـنة ، وابطال مايتنافى مع تعاليم الاسـلام ..

قال الرجل : ان الملك خان الأمة .. فلابد من خلعه ، لتبرأ البلاد من الطغيان والظلم ..

أورد الشيخ الوزان بعضا مما يذكره الرواة والقصاص فى سيرة الملك الصالح أيوب . أمضى حياته فى زهد وتبتل ، طعامه الدقة والقراقيش ، سيفه من خشب ، لكنه عند اللقاء امضى من سيوف الحديد . يحتفظ لنفسه بمال قليل ، وان كان عيشه من صناعة يديه . يجدل الخوص ، ويصنع الأسبتة . يتمتع بما خص الله به أولياءه من القناعة والعدل والكرامات والقدرة على العلم بما كان وبما سيكون ..

أضافت تقارير الأرصاد الى ما قاله الرجل ، تشنيعات الناس على الملك انه يقتل النساء لعجزه عن مضاجعتهن . عرض أحدهم — فى نكتة نقلها أعوان المتبولى — أن يولج ذكره فى دبر الملك ، ربما يعينه على الانتصاب ، فتزول المشكلة برمتها .

اقتيد الشيخ الى السجن بتهمة تعاطى التمسخر مع الاراذل

والزعار والمناسر . واتهم بأنه اتخذ من بيت الله ذريعة لنشر الباطل والرقص واللواط فى المردان ، والانهماك على حطام الدنيا ..

أمر الملك ، فحلق المشاعلى رأس جعفر الوزان ، ولحيته ، وشعر حاجبيه ، وأزال رموش عينيه ، فبدا فى هيئة بشعة ..

قال من بين أسنانه :

ــ هكذا تعود الى أصلك . مجرد فاسق ، تمسح بالدين ، وانصرف الى الزندقة والخلاعة والشذوذ ! ..

الليلة الرابعة والثمانون بعد الثلاثمائة

طالت وقفتها فى برج المطار . من أسفل ، تمتد المآذن البيضاء والقباب واشجار النخيل وأسطح البيوت والشوارع المستقيمة والمتعرجة والأسواق والقلاع والحصون والقرافة والأهرام وخضرة الحقول الممتدة الى نهاية الأفق ..

اذن لها شهريار بالتجول خارج أجنحة الحريم ، يصحبها جوار وخصيان . كثر ترددها على ما بالقلعة من قصور ودواوين وايوانات ومجالس وغرف وطباق وأحواش وحمامات واصطبلات ومدارس وأهراء وطواحين وملحقات . الواقف فى الأبراج وبنايات القلعة ، لا يرى منها داخل القاهرة ، لارتفاع أسوارها . حتى الواقفون على المآذن يصعب عليهم رؤية شىء ، فيما عدا مئذنة المسجد الملاصق للسور ، وسوارى الأعلام فى الأركان الأربعة ..

اذا غلبها الملل ، جلست فى الحديقة ، وراء القصر الأبلق . تحوى مالا حصر له من النبات والحيوان والطير . اشجار من أندر الانواع ، ونباتات تتضوع بروائح زكية . تآلف الورد والياسمين والبان والزنبق والسوسن . حتى أقفاص الطيور ، صنعت من خشب العود والصندل ..

فاجأها ــ ذات ليلة ــ بالسؤال :

ــ من أين لك كل هذه الحكايات ؟ ..

أضاف دون أن ينتظر جوابها :

ــ ما رويته من الخيال .. رأيته فى الواقع ..

لم تخف اهتمامها :

ــ كيف ؟ ..

وهو يعدل العمامة فوق رأسه :

ــ بعد أن غادرت ، وشاه زمان ، بلادنا الى بلاد الله خلق الله . وصلنا الى شجرة فى سهل ، بالقرب منها عين ماء . شربنا من العين ، وجلسنا للراحة ، ساعة أو أقل . ثم هاج البحر أمامنا ، وعلت أمواجه ، وطلع منه عمود أسود صاعد الى السماء ، فلذنا خائفين بأعلى شجرة ..

قاطعته :

ــ هل كان جنديا ؟ ..

قال فى تأكيد :

ــ لم أر فى مثل طوله ، ولا امتلاء قامته .. كأنه جبل يتحرك ! ..

استطرد للدهشة فى وجهها :

ــ هذه ليست حدوتة من حواديتك .. فقد رأيت الجنى فى الواقع . وكان على رأسه صندوق ، مضى به الى الشجرة تحتنا ، وجلس ، وأخرج علبة من الصندوق ، فخرجت منها امرأة فى مثل جمالك ..

قال ما قال بعفوية . هل هذا هو رأيه ، أو أنه أراد مجاملتها ؟ . رقيق ، فكيف يأمر بالقتل ؟!

قالت لمجرد أن تغالب التوتر :

ــ كأنها حدوتة ! ..

قال شهريار :

ــ لو لم تحدث معى ، ما كنت أصدقها ..

وشاب صوته رنة انفعال :

ــ نظر اليها الجنى ، وقال : ياسيدة الحرائر .. اختطفتك ليلة عرسك ، لكننى أريد أن أنام قليلا . ثم وضع رأســــه على ركبتها ، ونام ..

قالت مدفوعة باهتمامها :

ــ هل ظللتما فى مكانكما حتى استيقظ ؟ ..

وهو يغالب انفعاله :

ــ رفعت الفتاة رأسها الى أعلى فراتنا. لاحظت ــ بالتأكيد ــ خوفنا ، فقالت : انزلا ولا تخافا . ثم أضافت للتردد فى وجهينا : أقسمت بالله عليكما أن تنزلا ، والا نبهت العفريت فلحقكما أذاه ..

وفعلنا ــ تحت تهديدها بتنبيه العفريت ــ كل ما طلبته .. ما تطلبه النساء من الرجال .. ثم روت لنا حكاية العفريت ..

أعادت القول متسائلة :

ــ حكاية العفريت ؟! ..

ثم اصطنعت ضحكة قصيرة :

ــ سأتحول الى دور السامعة ..

اتجه الى الفراغ ، كأنه يواجه مجهولا :

ـــ استمعت الى حكايات الخيال أياما طويلة .. فلابأس من أن أروى لك هذه الليلة بعض ما عشته ..

وقال فى تأثر واضح :

ـــ أتدرين ؟ .. كان العفريت قد اختطف المرأة ليلة عرسها . وضعها فى علبة ، وجعل العلبة داخل صندوق ، ووضـــع على الصندوق سبعة أقفال . فكان اذا أخرجها ليهنأ بقربها ، فعلت مع من تراه من بشر مثلما فعلت مع شاه زمان ، ومعى ..

وتخلل صوته حشرجة مكتومة :

ـــ وودعت شاه زمان ، فعاد الى بلده ، وعدت أنا الى قصرى . شاف مســـرور شغله ، فطير عنق زوجتى ، وأعناق الجوارى والعبيد .. وقررت أن أتزوج كل يوم بنتا بكرا ، فأقتلها فى نفس الليلة .. ثلاث سنوات ، حتى أتيت بحكاياتك ! ..

وقال لها ذات ليلة :

ـــ ان كل ما رويته حتى الآن حكايات جميلة .. فهل عندك المزيد من أحاديث البلاد والعباد ؟ ..

وقال فى ليلة أخرى :

ـــ زدتنى بحكاياتك مواعظ .. فهل عندك شىء جديد من احوال البشر ؟

وقال فى ليلة ثالثة :

ـــ ما أحسن هذه الحكايات .. هل عندك شىء مثلها من قصص الأولين ؟ ..

قالت شهرزاد :

— ان ابقانى الملك — أعزه الله — فسأروى فى الصباح ما يبدو من الغرائب ، مع أنه صحيح ، وغالبية أبطاله من الأحياء ..

قال بلهفة :

— زيدينى من حديثك ..

لما بلغت السابعة ، أحضر لها أبوها فقيها يقرئها فى القصر ، وأوصاه بتعليمها كأنها صبى ، وحسن تربيتها . أقرأها وعلمها فوائد فى العلم ، وعلى السنن ، بعد أن حفظت القرآن الكريم فيما لا يزيد عن ثلاث سنوات ، وتعلمت الخط والقراءة والحديث والأخبار والنحو واللغة والتفسير وأصول الفقه والدين وعلم المنطق والبيان والحساب والجدل والطب ، وقرأت التذكرة ومفردات ابن البيطار وكتب الشافعية ، وعرفت الروحانى والميقات ، وتبحرت فى علم النجوم ، وطبائع الكواكب وأسرارها ، وحفظ الأشعار وأساطير الأولين وأخبار المتقدمين ، وأجادت ضرب العود ، وعرفت مواضع النغم فيه ، ومراقع حركات أوتاره وسكناتها ، وتعلمت النقر على الطنبور ، والدق على الدف ، والنفخ فى المزمار .

كانت أمها تقص عليها السير ، وتقرأ لها الكتب . وعهد بها أبوها الى معلمة ، تولت تربيتها ، وتدريبها ، وتسمها بتصرفات بنات الأصول : الوقفة والمشية والصمت والكلام والجلوس والزى والقاء الأشعار والكلمات البليغة ، والامتناع عن الضحك الا فى أوقاته ، وجمعت الف كتاب ، تروى عن الأمم السالفة ، وعن الملوك السابقين والأدباء والشعراء ..

حين رحبت — وأصرت — أن تكون هى العروس التالية لشهريار ، كان أبوها يتجه بكلامه الى أمها :

ـ لم يعد فتيات فى المدينة . صـــــحبهن آباؤهن الى مدن بعيدة ..

أردف فى أسى :

ـ تقلصت القوائم ، وشهرزاد على رأسها ..

شرخت شهرزاد ذهول أمها وأختها :

ـ أنى أوافق يا أبى على الزواج من الملك ..

وقالت للصمت المستغرب فى الوجوه :

ـ ربما يجعل الله خلاصـــك وخلاص بنات هذا البلد على يدى ..

همس الأب فى ذهوله :

ـ ماذا جرى لك .. تزفين الى الموت ؟! ..

قالت فى لهجة تطمين :

ـ سيكون خيرا باذن الله ، ولن يمس السيف رقبتى ..

رمقها بنظرة متشككة :

ـ كيف ؟ .. من تزف الى شهريار تقتل فى ليلتها ..

أعادت القول :

ـ زوجنى هذا الملك ..

تقلصت ملامحه بالغضب :

ـ هل تخاطرين بنفسك ؟ ..

دون أن تزايل هدوءها :

— لابد من ذلك ! ..

لم يكن الرجل يملك أمر الموافقة على مطلبها ، ولا رفض قرار الملك . كان قد أبلغه باضافة شهرزاد الى حلقات السلسلة ، لا يأذن باستعطافه ولا مناقشته ، أوامره حتم . حتى اسقاط دنيا زاد من القائمة ، لم يكن بطلب من أبيها . هذه هى ارادته التى لا يناقشه فيها أحد ..

قال دندان متوجسا :

— هل تنوين قتله ؟ ..

قالت فى هدوئها :

— تكلمت يا أبى عن تخوفه من غدر المرأة ..

علا صوته :

— كيف تواجهين الموت اذن ؟! ..

وهى تتأمل أظافرها المصبوغة :

— لا تخف يا أبى .. سيكون خيرا باذن الله ! ..

دنيا زاد ! .. هل كان الدور يأتى عليها ، لو أن الملك قتلها فى الليلة الأولى ؟ .. من كان يضمن أن شهريار يفى بوعده ، فيؤجل دخوله على دنيا زاد ، حتى لا يفقد الأب المسكين ابنتيه فى ليلتين متعاقبتين ؟ .. قالت لدنيا زاد ، وهى تعد نفسها للانتقال من قصر أبيها :

— ليتك تأتين معى الى قصر الملك ..

أضافت للفزع فى عينى أختها :

— لا تخافى شيئا . أدعوك لمجالستنا ، فتقولين : يا أختى .. حدثينا حديثا غريبا ، نقطع به السهر .. واتركى الباقى لى ..

هتف الأب فى عدم تصديق :

ــ أية مغامرة تدبرينها ؟ ..

قالت بثقة :

ــ سأحدثك حديثا يكون فيه الخلاص ان شاء الله ! ..

وقالت دنيا زاد :

ــ بالله عليك يا أختى ، حدثينا حديثا نقطع به سهر ليلتنا ..

قالت شهرزاد :

ــ حبا وكرامة .. ان اذن لى الملك المهذب ..

هالها ــ فى روايتها للحكايات ــ تذكرها لحكايات قديمة ، تصورت انها نسيتها . استمعت اليها من أمها وجدتها ، ومن اقارب كانوا ينزلون فى بيت أبيها ، عند قدومهم من دمشق وبغداد والبصرة ومدن أخرى ، ومن الجوارى والخصيان الذين تولوا تربيتها حتى كبرت . وكانت غالبية القصص مصحوبة بهوامش وحواشى وتفصيلات ، من ست الكل ــ جدتها لأمها . تصحبها الجارية نسيم الى بيتها فى الصنادقية ، تجلسها الى جانبها . يتناهى عبر المشربية لغط الطريق ، وتروى لها ما يحضرها من حكايات . لا تمل شهرزاد السماع ، فتستزيد ، حتى يدرك التعب الجدة :

ــ ان أمهلتنى ساعة زمان ، فسأروى لك حكاية أجمل من كل ما سبق ..

تتحدث عن غدر النساء ، ترضى الشر الكامن داخله ، وعن فساد الوزراء ، تخاطب الشك الذى يعتصره ، وعن الحب والتسامح .. فمن يدرى ؟! ..

يأتى الصباح والاعياء قد تملكها . حتى لو كانت قد نامت طيلة يومها . تمط فى أحداث الحكاية ، وتضيف اليها . تصـــل الحكاية بحكاية أخرى . تدس فى الكلمات ما يهمها أن يعرفه . لن تقضى العمر فى الحكى والرواية ، ولابد أن يفيق — يوما — من هوسه المجنون . فماذا لو مل حكاياتها ؟! ..

فطن الى ما أحدثته فى حكاية الحكماء وأصحاب الطاووس والبوق والفرس . حذفت وأضافت بما يهب معنى لم يكن موجودا فى الحكاية . قتلها الخوف ، فأرادت التعبير عنه ما وسعها .. لا يلغى ما استقر فى أعماقها ، ما تراه من حنوه واقباله . ماذا عندك من جديد يا شهرزاد ؟ . هذه حكاية جميلة ، لا أريد لها ان تنتهى . عندما تبدأين أنسى الملك وأحيا فى الأماكن التى تصفينها ..

فاجأها بالسؤال :

ــ هل تخشين الموت ؟ ..

خمنت انه فطن الى ما بدلت ، مواطن الحذف والاضـــافة والتحوير ..

قالت وهى تغالب التوتر :

ــ الموت حقيقة .. لكننا نخشاها ..

واجهها بنظرة محدقة :

ــ توهمت أنك ستزهدين الحياة لمعرفتك بعبرها ..

اغمضت عينيها فى تأثر :

ــ بالعكس .. لقد عرفت الحياة ، فأحببتها ..

وهو يهز سبابته :

ــ حتى فى ظل الخوف ..

همست كمن تؤكد لنفسها معانى الكلمات :

ــ ربما الخوف هو الذى أكد حبى للحياة ! ..

الليلة الثانيــة بعد الأربعمائة

هتف شهريار بفرحة طفل :

ــ هذه الفتاة فى حكاية الورد فى الأكمام ، قدمها الوزير للملك ، تنادمه بعلمها ، تساقيه ويساقيها . انها أنت يا شهرزاد ..

أسعفتها بديهتها بالقول :

ــ شرفى يامولاى انى زوجة ..

وهو يهز الهواء بقبضته :

ــ ولكن أباك هو الذى زوجك منى . انها نفس الحكاية ، مع اضافة الزواج ..

أستطرد كالمتنبه :

ــ مع ذلك ، فانى الاحظ فى حكاياتك ، أن غالبية الوزراء يسكتون عن عيوب ملوكهم ، ليفيدوا من مناصبهم فى تحقيق الثراء السـريع ..

دهمها قلق :

ــ وفى معظم الأحيان ، ينتهى أمر الوزير السىء بمصير سىء كذلك .

اتجه اليها بنظرة متحيرة :

ـــ أين الحقيقة وأين الخيال فى حكاياتك ياشهرازد ؟ ..

وهى تغالب قلقها :

ـــ ربما الواقع أغرب من الخيـــال أحيـــانا .. والعكس صحيح ! ..

غمغم فى اصرار :

ـــ لا أملك الا أن أطابق ما تقولين على وقائع شهدتها ..

قالت ، لتطرد الشك فى نفسه

ـــ ثق يامولاى ، انى جاريتك المخلصة ! ..

الليلة الثامنـــة بعد الأربعمائة

بدأ كأنه فوجىء بدخـــــولها عليه .. ألقى تحت قدميه بأحد اثوابها . كان ـــ دون أن يفطن لوجودها ـــ يتشممه ، ويقبله ..

اهملت مغالبته لارتباكه ..

قال :

ـــ لماذا تخليت عن هذه الثياب الواسعة ؟ ..

اردف فى تساؤل مشفق :

ـــ ارتديتها زمنا .. ثم عدت الى الثياب الضيقة ؟ ..

وهى تدارى شعورا بالنشوة :

ـــ انى أفعل كل ما يرغبه مولاى

قال فى مودة معلنة :

ـــ حكاياتك الجميلة شغلتنى عما هو اهم من الثياب التى تلبسينها .

الليلة التاسعة بعد الأربعمائة

أعاد الراوى فى مولد مار جرجس حكاية القديس مع الوحش المخيف . بدت الحكاية لعبد النبى المتبولى — هذه المرة — مختلفة عن المرات السابقة . التنين الهائل يصر — مرة كل عام — على ابتلاع عذراء ، يجرى فيها الدم الملكى ، تناقصت أعداد الأسرة المالكة . فلم تعد الا ابنة الملك الوحيدة . هدد التنين بأنه اذا لم ينل الأميرة . فسيحرق المملكة باللهب المنبعث من منخاريه . يظهر مار جرجس فى قصر الملك . متطوعا لمنازلة التنين . ينزل الى النهر بدلا من الأميرة . تدور بينه وبين التنين معركة قاسية . يذبح فيها القديس الوحش ، ويعلن انتصاره .

الليلة الثانية عشرة بعد الأربعمائة

سرت شائعات بأن رقاعا وجدت فى طرقات القاهرة ، فيها شتم للملك . ألصقت على جدران الجوامع والمساجد والزوايا ، وعلى أبواب البيوت والقياسر والدكاكين . أخذها أرصاد الملك الى الوزير دندان ، رفعها الى شهريار ، فأمر بسجن كل من يضبط منشور أمام بيته أو دكانه . فح صوته بالغضب ، وهو يخير المتبولى بين تشديد قبضته ، أو اعتزال المنصب .

أمر المتبولى الناس بلزوم أعمالهم ، وترك الاجتماع ، ومنع أهل الفتيا من القعود فى المساجد . تنتهى الصلاة ، فيغلق المسجد حالا ، لا يفتح الا فى موعد الصلاة التالية . وكبس الجند على الكثير من حارات القاهرة وبيوتها . لم يفلتوا مكانا فاحت منه رائحة خيانة . يفتشون فى كل ركن ، ويقبضون على العشرات من اللائذين بالبيوت ، أو المارين فى الطرقات ، أو المحتمين بداخل المساجد ..

قيل ان المتآمرين حلفوا على الختمة الشريفة ، مع رجال فى بولاق ، من العياق والزعر والحرافيش ، بأن يمدوهم — فى لحظة متفق عليها — بالمقاليع والحجارة . أخفوا أسلحة وسط كومات الخضر فى السوق ، داخل باب الفتوح . لم توضع فى مبنى ظاهر ، أو مختف ، لثقتهم فى أن أيدى الجند لابد أن تطاله . هجم الجند على أوكار العياق والفديوية والمناسر والعيارين والشطار والجعيدية والبدورة وفتوات الحسينية .

سحبوا عقيل العداس ، خادم جامع الحاكم بأمر الله ، من فراشه ، والقوا به فى صحن الدار . جردوه من ثيابه ، وضربوه بالمقارع على كل جسمه ، وهو يصرخ ويستغيث ، وأهل بيته ينتحبون ويكتمون الصرخات . وضعوا يديه فى كلابات خشبية ، ومضوا به فى الشارع الرئيسى .

قبض العساكر على خلف الفلاحى ، التاجر بالخرنفش ، وهو يعبر القاهرة ، جهة باب النصر . ضربوه ، ومزقوا ثيابه ، حتى انكشف جسمه . وضعوه فى الحبل ، وطلعوا به قلعة الجبل .

ذهبت اعداد من الجند الى دكان أيوب شيبان ، الخياط بالحبانية ، فهدموها ، وكتفوه بعمامته ، وجروه أمام الناس .

هجم العساكر على بيت بيبرس معين الدين ، الحداد فى الشارع الأعظم . نهبوه ، وهدموه ، واتوا به موثقا ، وسحبوه على وجهه ، ودخلوا به قصر الملك ..

أمر شهريار بحبسهم فى حاصل ارباب الجرائم . لم يقبل منهم شفاعة . اتهمهم بنزع أيديهم من طاعة الملك ، والسعى فى فرقة الجماعة ، والمروق من دين الاسلام ، فحق عليهم خسران الدنيا والآخرة ، وانهم سفكوا الدماء ، وخوفوا السبل ، وانتهبوا الأموال ، وضربوا العباد ، ونشروا الفتن ، وفعلوا ما تأباه نفس المسلم ، وترفضه النفوس الطيبة ..

اقتادهم الجند الى الطوابق السفلية فى القصر الأبلق .. أودعوهم حبوس الظلمة ، ومنعوا من الصدقة التى يتلقاها أهل السجون ، ومنعوا من الزوار ، وثقلوا بالحديد ..

لما أمر شهريار بقتلهم فى بقعة الدم ، ســــار المنادون فى الشوارع والميادين : من أراد أن يتفرج على ضرب رقاب المتآمرين على الملك شهريار ، فليأت الى باب زويلة ! ..

سلموا الى المغانى . تزفهم وهم فوق حمير . فى أعماق كل منهم ماشة وهون . فلما أنتهى الموكب الى باب زويلة ، وضعوا لصق الجدار ، وانهال عليهم الجنود بالضفائر الخوص ، حتى دميت أجسامهم تماما . ثم سلموا الى المشاعلى ، فأقبل على خلع أضراس كل واحد ، وأسنانه . ثم توالى بسيفه — بقوة — عليهم ، نحو أسفل السرة . يتهاوى الجسم على الأرض منقسما الى نصفين ، وامارات الفزع تعلو وجوه الناس المحيطة ..

حمل المشاعلى رءوسهم ، فنشرها على حبل يصل بين بيتين متقابلين ، فى ناصية الشارع الأعظم . ظلوا فى أماكنهم ثلاثة أيام ، ثم دفنوا بلا غسل ولا كفن ، ولا صلاة عليهم ..

أمر الملك ، فاستبيحت أموالهم ، وهدمت بيوتهم ، وصودر كل ما يملكون ، وسيقت نساؤهم لمتعة الجنود ..

الليلة الواحدة والعشرون بعد الأربعمائة

لحقت حمدونة عبد النبى المتبولى ، قبل أن يستقر فى مجلسه :

ـ اذا كنت حرمتنى من اعداد زهرة الصباح لجلوة الزفاف المشئوم ، فأنى سأعوض ذلك فى ليلة زفافها الحقيقى ..

كانت تعانى الارتباك وهى تلف الملاءة حول جسمها الضئيل . يبين ميلها الى الحركة ، حتى وهى قاعدة ، فهى كثيرة التململ والتلفت . اذا تكلمت ، لونت صوتها ، وعبرت بيديها ، وأغمضت عينيها ، وفتحتهما ، وهزت رأسها ، ورفعت حاجبيها ..

قالت لها رقية يوما : مالك كالأراقوز ؟! ..

لاحظت عبوسها ، فلم تعاود الملاحظة .

همس فى ضـــيق :

ـ من قال انه ستقام ليلة زفاف ؟! ..

كتمت شهقتها :

ـ هل بدل سيدى رأيه ؟! ..

تشابك فى صوته خيط حزين :

ـ سيتزوج الشابان دون احتفال ..

مصمصت شفتيها :

ـ حـــرام ! ..

قال فى حزنه :

ـ سيف مسرور لا يفرق بين الحلال والحرام ..

أسندت جبهتها الى أصابعها فى أسى :

ـ انها وحيدتك ياسيدى ..

تحشـــرج صـــوته :

ـ اذا عرف شهريار بزواج زهرة الصباح ، فلن تفلت ، ولا احد فى هذا البيت ، من عقابه ! ..

استطرد فى تأكيد :

ـ سيشمل العقاب كل من يعرفهما ! ..

لم يشترط على الشاب من الصداق ولا مؤخر الصداق ، ما يعجز عن أدائه ، وان تيقن من سعة ظروفه ، ورخاء احواله . عرف أن الشاب من بيت تجارة ووجاهة . ابوه المعلم الداخلى الملوانى يعرفه أصحاب الدكاكين والتجار ، من الحســـينية الى المشهد النفيسى . أكدت أحاديث الأرصـــاد حســـن سيرته ، فهو يقضى جل وقته فى تجارة أبيه . وله أخوان ، يقضون ما بين صـــلاتى المغرب والعشـــاء فى جامع الأزهر ، لم تقـــده قدماه ـ يوما ـ الى « ربع الزينى » حيث يســـكن أهل الخلاعة والهنك والرئك . كان يخرج ـ فى الليل ـ مع أصـــدقائه الى شـــوارع القاهرة ، يتفرج على مطارفها ، يســـتجلى مغانيها وقصـــورها ، يرقب ماء النيل وهو ينســـاب من ناحية الجسر الأعظم . عرف عنه براعتـــه فى فنون الفروســـية ، كركوب الخيل والضـــرب بالســـيف واللعب بالرمح والرمى بالنشـــاب

ولعب الكرة . كان يجيد الغناء على النغم والايقـــاع ، وينظم الشـــعر . أرجع المتبولى الى ســـن الشـــباب ، سعى الشـــاب ـــ أحيانا ـــ الى ملاعب تطيير الحمـــام ، والمناطحة بالكباش ، والمناقرة بالديوك ، ورفع الأثقال ، والطعان بالرمح ، ورمى البندق ، والملاكمة ، والمشابكة ..

سأل عبد النبى عن بواعث اقدام الشاب على طلب الزواج من زهرة الصباح ، ان كان يريد الاحتماء بسلطته . صارح رقية بما فى نفسه .

قالت المراة وهى تغالب دمعها :

ـــ اية سلطة ؟! .. أنت اعجز من ان تنقذ ابنتك ! ..

لم يناقش المعلم الداخلى الملوانى أمر انتقال زهرة الصباح الى بيت زوجها ، ولا الى بيته . الفتاة لا تغادر بيت أبيها الا للزواج ، وان تفهم قول المتبولى :

ـــ انا أعلم ان المرأة لبيت زوجها .. لكن اذا غادرت زهرة الصباح هذا البيت ، فسيكون مصيرها ، ومصيرنا جميعا ، الى القبر ! .

مع ان حمدونة لم تفعل سوى تأكيد ما كان قائما بالفعل ، وهو حب الشابين أحدهما للآخر ، فانها نالت من المتبولى خيرا كثيرا . أهداها صرة من الذهب ، وأقمشة مطرزة بالذهب والفضة ، وأنواعا مســـتوردة من البهارات والشمع والحلويات المســـكرة وزيت الزيتون ، ورتب لها الرواتب من الأشربة والسكر والأدهان .

قال للمرأة محذرا :

ـــ لا أحد خارج هذا البيت ـــ سواك ـــ يعلم بما حدث ..

قالت بتطمين :

ــ السـر فى بير ! ..

رماها بنظرة مستنكرة :

ــ أنا لا أخشى سوء نيتك .. لكننى أخشى لسانك ..

ثم وهو يهز أصبعه :

ــ مع كثرة الأحكام .. فقد أهملنا الحكم بتقصير ألسنة النساء ! ..

قالت المرأة فى خوفها :

ــ زهرة الصباح ابنتى .. وأنتم سادتى وأهل بيتى .. فهل يؤذى المرء أهله ؟! ..

صـرخ :

ــ يا امرأة .. أنا لا أتسول سكوتك .. وانما أهددك ! ..

انكمشت فى نفسـها :

ــ لو شئت ، بقيت فى قصركم ، لا أغادره .. فتطمئنون الى صمتى .

فطن الى انفلات أعصابه . قال وهو يزفر :

ــ كل ما أطلبه أن يبقى لسانك فى فمك ..

أردف بلهجة باترة :

ــ والا قطعته ! ..

* * *

اخليت للعروسين حجرات ، تطل مشربياتها على خرابة . ومن الجانب على حديقتى قصر المتبولى وبيت الملوانى . جاس الأب بنظره جيدا ، فى كل الاتجاهات . لم يجتذبه دليل حياة ، ماعدا ثلاث قطط ، تتناكح ، وتنبش فى القمامة ..

قال الأب بثقة :

ــ هذه حجرات مأمونة ! ..

امر ، فنقل الخدم اليها غرفة نوم زهرة الصباح . لم يستقدم اثاثا جديدا ، حتى لا تثور الاسئلة ، فيظهر ما حرصوا على اخفائه . بدت الحياة فى البيت كما كانت عليه ، وسعد مجرد خادم جديد ضمه المتبولى الى بيته ، لم يقدمه بصفة ولا باسم ..

نقل شوار العروس الى القصــــــر ــ فيما بعد ــ كتجديد لأثاثه . لم تصحبه ــ كما جرت العادة ــ فرق المغنين ، ولا رافقت دخوله الى القصر زغاريد أو ضرب دفوف . انما حمله العبيد والخدم ، اضافة الى الأثاث الموجود . بدت حجرة النوم واسعة ، أشبه بالقاعة ، مزدانة بالتراكيب والســــتائر ، وعلى جانبيها مصاطب وسدلات وخزائن ، عليها ســــتور . وفى الوســـط ســــرير من المرمر ، مرصــــع بالجواهر والذهب ، تعــــلوه ناموســــية من الأطلس الأحمر . وصــــل لها غرفتين بالطابق العلوى . أعدهما بفاخر الأثاث والرياش والبســــط الحرير . وأســــدل على الحوائط ديباجا وستائر مزدانة بالجواهر ..

ذهب سعد الى قصر المتبولى بصحبة المعلم الداخلى . لم ترافقه أمه ولا أهله ولا أصدقاؤه . واستدعى المتبولى امام جامع الأقمر ــ وكان له معه صداقة قديمة ــ عقد القران فى غرفة خلفية ، تطل نوافذها على داخل البيت . رأى بقبق وقاد الجامع ،

وهو فى طريقه فى غبشة الليل ، بالفنارات ، كى يشيع الامام الى بيته عقب صلاة العشاء ، فدعا الامام والمؤذن والوقاد .

طلب المتبولى من الامام أن يهمل خطبة الصداق ، فلا يلقيها . بدت الجلسة أضيق من أن تتسع لمراسم عقد القران كاملة . عقد الامام القران ، ووقع المؤذن والوقاد شاهدين . حلفهم الرجل على الختمة الشريفة ، وأخذ عليهم العهود والمواثيق ، ألا يبوحوا بما شاركوا فيه . نصحوا بعلانية الاشهار الشفاهى ، فأصر أن يكون العقد مكتوبا ، يتضمن قيمة مقدم الصداق ومؤخره ..

تولت حمدونة أمر اعداد العروس لزفافها . نزعت بحلاوة السكر المعقودة شعر الوجه ، وتحت الابطين ، والعانة . وتولت تحنية اليدين والقدمين فى ليلة الحنة . وعنيت بتطييبها وتعطيرها ، والباسها ، وتزيين شعرها ونحرها بالحلى والذهب ..

كانت زهرة الصباح جميلة فى الأصل ، فزادتها عناية حمدونة جمالا فوق جمال ، كأنها البدر ليلة اكتماله ، أو كأنها حورية من الجنة ..

قالت لها أمها فى تباه يداخله أسى :
ــ هل تحتاجين الى الزينة بالفعل ؟! ..

جلست الى أمها ، فأوصتها بما نوصى به العروس ليلة زفافها . ونسى سعد أن يمنحها حق كشف الوجه ، لولا أن نبهته الدلالة . أحزن الأم أن ابنتها لم تزف الى عريسها بالدفوف والمغانى وآلات الطرب . بل ان دخول الشاب على فتاته ظل مجهولا ، الا لمن يقيمون بصفة دائمة فى القصر ، لا يغادرونه . شدد المتبولى عليهم بألا يذيعوا السر . من يخونه لسانه ، فان قطع اللسان هو أهون ما يلقاه من جزاء . رفض كل المراسم التى تصحب عقد القران : الانارة والتبخير والتعطير والرش بأوانى

الذهب والفضة . وألغى المدة بين عقد القران والزفاف . جعل المناسبتين واحدة ..

خلا العرس من المواشط والمغنيات والمنقشـــــات . حتى الحمام الذى تتردد عليه زهرة الصباح فى الأيام العادية ، لم تذهب اليه فى ذلك اليوم ، ولا اليوم الذى قبله ، ولا الأيام التالية . تحرك الجميع فى سرية وتكتم ، حتى لا يفطن احد ــ خارج البيت ــ لما حدث . لما عرضـــــت الأم أن تنحر الذبائح ــ كالعادة ــ أمام البيت ، سخف الرجل رأيها ، واكتفى باطلاق حمامتين من سطح القصر ، طلبا للفأل الحسن ..

ملأ الأب جناح العروسين من أنواع الفرش الفاخرة ، وأوانى الذهب والفضة ، وجميع الآلات من كل ما يحتاج اليه الزوجان فى بيتهما . أخرج من خزانته قماشا ومصاغا ومجوهرات وأوانى ذهب وفضة ، فأهداها الى زهرة الصباح . وأهداها من أنواع الأمتعة والطرائف والطيب وافاويه والجوهر والثياب الجميلة .. واحتفظت فى خزانة الطيب والجوهر والطرائف ، بكل ما أهداه لها أبوها : مجموعات من الجواهر والأحجار الكريمة ، وتحف من البللور والصينى والمرايا ، وأطقم مصنوعة من الأبنوس والعاج والفضة والذهب ، وصحف ذهبية للطعام ، وكميات لا حصر لها من الطيب والعطور النـــــادرة ..

***

قالت حمدونة للأبوين ، وهى تتهيأ للانصراف آخر الليل :

ــ كان سعد يشترط فى زوجته أن تكون بلا أم ، حتى لا تنغص حياته .

وكتمت ضحكتها تحسبا لرد الفعل :

ــ لكنه نسى شرطه فى طلب يد ابنتنا زهرة الصباح ! ..

الليلة السابعة والعشرون بعد الأربعمائة

أطال عبد النبى المتبولى النظر — فى تحير — الى مجرى الماء المحمل بالوسخ والروائح الكريهة . أعلن الخدم عجزهم عن الوصول الى مصدر المياه . ينقطع فى أماكن من قلعة الجبل ، ويظهر فى أماكن أخرى . غابت فى سواد قاتم ، وتصاعدت منها الروائح المؤذية . فتشوا داخل القصور وخارجها ، وتحت الأبراج ، فى الحدائق ، ومراحيض المساجد . حتى الآبار الساكنة ، فتشوا داخلها ، وفى جنباتها . ربما شقت مجرى أحاط بالقلعة كلها ..

قال فى تحيره :

— ماذا يجرى فى القلعة ؟ .. كل الوقائع الآن مجهولة المصدر ! ..

أمر أعوانه ان يقضوا على الشائعة الوليدة قبل أن تصل الى الملك . قيل ان شهرزاد تحاول — بتوالى حكاياتها — أن تستميل الملك حتى تنال ثقته ، وأن أباها الوزير يسهل بث أعوانها داخل قلعة الجبل ، حتى يأتى يوم تعطى فيه الاشارة ، فيجتث الشر من جذوره . الطبيعة المتوجسة لن تتحرى الأمر ، ربما اذا كانت الشائعة صحيحة ، وسيف مسرور لن يدحرج رأس شهرزاد وحدها . انما ستتلوه رءوس يعلم الله عددها ، أولها — لو صدق الشائعة — رأس زهرة الصباح ..

الشائعة مصدرها القصر . هكذا أكدت التقارير . هؤلاء الذين عجزت سلطته ، وعيونه المبثوثة فى كل مكان ، عن الوصول اليهم . تسلل بالقهرمانة نجوى الى قرب فراش الملك . رجاله وزراء وحجـــاب وقادة ألوف ومئين ، لا يـــكادون يتركون مجلس الملك .. فمن وضع قوائم انتظار بنات الناس لليالى الاعدام .. ؟ ومن يخلق الشائعات ليغير نفس الملك على شـــــهرزاد ، فيأمر باعدامها ، وتتواصـــــل حلقات السلسلة ؟! . بدوا كالألغاز ، كالطلاسم المحيرة فى حواديت شهرزاد .

لم يحاول التدقيق ان كان الوزير دندان قد علم بالشائعة ، أو حاول ابلاغه بها . ربما يدفعه الخوف من الملك ، أو الدفاع عن ابنته ، وعن نفسه ، الى ابلاغ شهريار بالشائعة المكذوبة . وربما لن يجهد الملك نفسه فى التثبت من صحتها ولا كذبها . اجتثاث النبتة المشكوك فى أصلها أيسر من ترقب نوع ثمارها ..

فكر أن يسرب — بواسطة أعوانه — خبر وليد شهرزاد . لكنه خشى أن يكون رد فعل الملك بما لا يتوقعه . يطيح السياف برأس المرأة ، ويفتش شهريار عن الفتاة التالية ..

الليلة الثلاثون بعد الأربعمائة

روى القاص عن ذات الهمة ، قولها للخليفة : أن سيفى حجلى ، والغبار كحلى ، والحصان أهلى .. فما الذى أصنع يا أمير المؤمنين بالحارث ، وبغيره من العالمين ؟

وقال عبد النبى المتبولى :

ـ مضت أيام ، وشهرزاد تروى حكاية الجارية تودد . امرأة أسطورية ، ناظرت العلماء كلا فى تخصصه ، فهزمتهم جميعا .. أو هذا ما يبدو من سياق الحكاية حتى الآن ، كأنها شهرزاد نفسها ! ..

قالت رقية :

ـ هل أحبها لجمالها ، أو لعلمها ؟ ..

مط شفتيه للحظات ، ثم قال :

ـ الأصوب انه أحبها لجمالها وعلمها .. ولو كانت دميمة ، ما جلس اليها ، ولا أنصت الى حكاياتها ! ..

استطرد فى تحمس :

ـ علمت انها منذ صعدت الى القلعة ، صارت كل النساء ادنى لها فى الجمال ! ..

وقال شهريار لشهرزاد :

ــ لولا انى أعرف من أنت ، ومن هو أبوك ، لقلت أنك أنت الجارية تودد ..

أضاف لنظرتها المتسائلة :

ــ هذا الكم من المعارف والمعلومات ، لا تملكه الا شهرزاد ..

قالت شهرزاد فى تأدب :

ــ انما هى يا مولاى شخصية حكاية ! ..

الليلة الرابعة والثلاثون بعد الأربعمائة

القى عبد النبى المتبولى سلامه على حمدونة ، فى جلستها ، مام الباب المفضى الى المطابخ . واتجه الى خارج القصر ..

لم يعد تردد المرأة على القصر مما يثيره . كانت تقضى الأيام كأنها واحدة من الخدم ..

لحقه صوتها فى اقترابه من الباب الخارجى :

ـ سـيدى ..

أبطأت خطواته . واتجه اليها بنظرة متسائلة ..

قالت حمدونة :

ـ ألا أتمنى عليك ؟ ..

أظهر الضيق :

ـ بعد كل ما قدمته لك ! ..

وهى تسوى الملاءة بيديها حول جسمها :

ـ لا أريد شيئا لى . وحيدى عزوز يتمنى أن تجد له وظيفة تريحه من عناء عمله الحالى ..

مط شفته السـفلى :

ـ وما عمله ؟ ..

ومضت عيناها بالفرحة :

ـ نساخ بسوق الوراقين .. يظل يكتب من الصباح الى المساء ، حتى تعب نظره ! ..

قال متفكرا :

ـ يريد وظيفة كتابية اذن ؟ ..

ـ انا لا أعرف الوظائف .. لكنه يتمنى أن يجد وظيفة طيبة .

أضافت مبتسمة :

ـ وراتبا طيبا ..

ثم في صوت متذلل :

ـ انه جميل ، سأدين لك به حتى أموت ! ..

في الليلة نفسها ، عرض الأعوان تحرياتهم بما ينصف الشاب ، ويزكى وظيفته . قرأ القرآن على روايات سبع ، وقرأ الكتب على أربابها من مشايخ العلم في الأزهر وعمرو بن العاص وابن طولون وشيخون ، وحتى في المساجد الصغيرة والزوايا والتكايا والخانقاوات . كان يسعى الى حيث يوجد العلم ، لا يصرفه عائق . وكان على علم بأخبار العرب وتواريخ الخلفاء وأخبار من سلف من ملوك الاسلام . وتبحر في علوم الدين والدنيا والسياسة والطب والرياضة . واجتهد في علم الفلك ، وفي سائر العلوم ، حتى فاق أقرانه . حذق فنون الصراع ، ورمى البندق ، والنشاب ، وضرب السيف ، وطعن الرمح ، والنزال ، وركوب الخيل . وبرع في أساليب التنكر والمراوغة . وضعه أهل حارة الباطلية ـ حيث يقيم مع

أمه ، فى موضـــــع لم يحظ به من يفوقونه فى المكانة المادية أو الاجتماعية . عظموه وقدروه ، وألفوا اللجوء اليه فيما يغمض عنهم من مشـــــكلات . مع أن شيخ المدرســــــة الشيخونية عرض عليه أن يجرى طعاما وراتبا ، فلا يغادر الخانقاه ، فانه فضل أن يتردد على أماكن العلم ، وأن يظل على وظيفته كنساخ ، فهى تيسر له سبل القراءة والاطلاع ، فى عالم متعدد الجوانب ، بتعدد الكتب التى يتولى نســـــخها ..

أهمل عبد النبى المتبولى ما جاء فى التحريات ، عن ملازمة الشاب لأعوان ، يسهرون ـــ بعد صلاة العشاء ـــ فى الأرض الخلاء المجاورة لمسجد السيدة فاطمة النبوية . يتلون القرآن ، ويقرءون أحاديث الرسول ، ويتدارسون قصص الأنبياء وآل البيت والخلفاء والأولياء والسلف الصالح ..

قال مقدم الجند عيسى الطحاوى ، كمن ينبهه :

ـــ ربما أفاد الشاب من أجادته التنكر فى عمليات مريبة ..

وهمس محذرا :

ـــ قيل انهم يعقدون جلسات الأخوان لمداراة أفعالهم ! ..

فوت التحذير . وأمر بالحاق الشاب فى وظيفة بالقصر .. يتسلم دفترا ، تثبت فيه الخرج والدخل ، والفرع والأصل . لا يترك شاردة ولا واردة الا حواها ، ولا كثيرا ولا يسيرا الا ثبته بالأرقام .

الليلة الخمسون بعد الأربعمائة

طالت وقفتها وراء المشربية . لم تكن تطل منها الا لمشاهدة مواكب الملك : الركوب لتخليق المقياس ، والركوب لفتح الخليج ، والركوب لصلاة العيد ، أو لصلاة الجمع الثلاث من شهر رمضان .

كانت تعانى شعورا بالضيق . كأن شيئا قد استقر فى داخلها ، يقيد ذهنها وتصرفاتها ، فلا تستطيع التفكير أو التصرف بما عهدته فى نفسها . زاد فى قلقها انها التقت — فى الليلة الفائتة — بعنترة . قال وهو يشير الى الصحراء الواسعة ، ان طلب أبى عبلة أجهده فى البحث عن النوق العصافير التى يربيها المنذر ملك الحيرة ..

أهملت — بعد زفافها — ما كانت تحياه من خوف . سبحت فى بحار من الهناءة غائبة الأفق . اذا لم يكن سعد مسافرا على رأس قافلة ، فانه يلزم القصر ، لا يفترق عن زهرة الصباح ، يتسامران ويتنادمان ويأكلان معا . وكانت تحرص فى طعامهما على أن تلقمه أولا ، ثم تأكل هى من بعده ، وتحمل بنفسها دورق المياه ، فتصب على يديه ، وتقدم له المنشفة ، وترقب — بحب — الجارية نسيم وهى تدور بالمبخرة من فوق رأسه ، ثم تنثر عليه قطرات من ماء الورد ..

شمل التغير حياتها . لم يعد يشغلها حكاية شهريار ، ولا حواديت شهرزاد ، ولا الخوف من سيف مسرور . بدت اللحظات

كالجزيرة المنفصلة ، لا صلة لها بما جاورها ، ولا بما سبق وما لحق . هو الماضى والحاضر ، وهو المستقبل باذن الله ..

لاحظت أن الحراس والخدم يتناوبون السهر ، تحسبا لكل طارىء . اذا انتهت نوبة ، مضى الساهرون الى حال سبيلهم ، وحل آخرون محلهم ، يصيخون الأســـــماع ، يجيدون التفلت ، يعطون انتباههم لكل اشارة أو نأمة ..

تيقظت مخاوفها . أدركت المأزق الذى تعانيه . لم يعد ظل السياف مقصورا عليها . امتد الى أبيها وأمها وسعد والشـــــيخ والشاهدين . ربما أطار الســـــيف رقاب الخدم والجوارى لأنهم شاهدوا ولم يتكلموا . وربما أمر شهريار ، فنهب القصر بكامله ، ودمرت محتوياته ، ولم يعد له من أثر ..

الخوف ! .. أحست به متربصا متسللا ، منذ جلست فى الغرفة المطلة على الحديقة الخلفية ، تنتظر فراغ أمام جامع الأقمر من عقد القران . أكد الشيخ والشاهدان انهم لن يبوحوا بنبأ الزواج لأحد . كلما ضاقت دائرة السر ، قلت فرصة انتشاره . همت الجارية نسيم باطلاق زغرودة ، فأسكتتها نظرة من عينى المتبولى ..

أنستها الأيام التالية الزفاف وما أعقبه . ثم انتقلت عدوى التوجس فى عينى الأبوين اليها . حتى النظرات القلقة توهمت انها تلمحها فى أعين حراس القصر وخدمه . قذفت بها الى الخوف ، خوف دائم يحرك مشاعرها وتصرفاتها ، لا تدرى بواعثه الحقيقية . يبدو غامضا . يبين عن نفسه فى صمتها وســــــرحاتها وارتفاع صوتها ، وتوترها بلا مناسبة ..

أصبح الخوف حياتها . تصحو عليه ، وتنام ، وترتدى ثيابها ، وتأكل ، وتنتظر عودة زوجها . ترهف سمعها للأصوات فى القاعات

التحتية . تتأمل شرود أبيها وسرحاته . تأخذها التنهيدة التى تصدر عن الأم غصبا عنها. تغالب توترها ، ترقبا لهوية الطارق ، وهى أسبق الجميع الى النظر من ثقوب المشربية — حين تعلو دقات الباب الخارجى — تتوقع الشرطة والحجاب وذيوع السر . اذا تأخرت القافلة عن موعد عودتها ، توهمت اعتقاله .

تنهدت لسماع وقع أقدامه . تأكدت من خياله على السلالم المفضية الى الباب الرئيسى :

— شغلتنى ! ..

— كنت على موعد مع تاجر فارسى فى فندق خان الخليلى ..

قدم لها طبقا من الحلوى . به قطائف وميمونة وأمشاط وأصابع زينب ولقيمات القاضى ..

استطرد كالمتنبه :

— ربما أتأخر فى الغد كذلك ..

ثم وهو ينزع عمامته ، ويلقى بها على الكرسى القريب :

— معى موعد مع المحتسب لأناقشه فى العشور ..

اضاف للتساؤل فى عينيها :

— الدولة تحصل على العشر من قيمة البضائع .. نسميه العشور ..

همست بالدهشة :

— هذا عمل أبيك ! ..

قال فى تأكيد :

ـــ وعملى أيضا . مفروض انى اساعده ! ..

وأشرق وجهه بابتسامة :

ـــ قبل كليب دور المهرج فى قاعة عرش حسان التبعى ، ليفوز بحبيبته جليلة . وقد قبلت دور الخادم لأفوز بقلب زهرة كل أيامى ! ..

احتوته بنظرة محبة : قوامه الجميـــل ، وعيناه البنيتان ، الشديدتا الصفاء ، والحاجبان الأسودان الكثيفان يتناقضـــان مع الشعر الحنطى المنسدل على الكتفين ، والأنف المنمنم كأنه لفتاة . يعنى دائما بثيابه ، ويعطر لحيته برائحة طيبة ، نفاذة . ويرش ماء الورد على جسمه ..

لم تخف اشفاقها :

ـــ أظل فى خوف عليك ، منذ خروجك من البيت ، حتى عودتك اليه ! ..

تلاعب بأصابعه شأن المتحير :

ـــ جعلنى أبوك خادما فى قصره .. لكننى كذلك أشرف على اعمال أبى ..

فوتت المعنى :

ـــ وبماذا تقدم نفسك للمحتسب ؟ ..

وهو ينزع الشارب الأسود من فوق شاربه المائل للاصفرار :

ـــ كما تعلمين .. أغادر القصـــــر متخفيا ، وأعود اليه متخفيا ..

استطرد وهو يتهيأ لاحتضانها :

ـــ أنا عند أبى مشرف على أعماله . أما هنا ، فانى سعيد بأن اكون خادما لمحبوبتى الجميلة ! ..

الليلة الثانية والثمانون بعد الأربعمائة

أعاد عبد النبى المتبولى قوله ، لما واجهته الأم بعينين غير مصـــــدقتين :

ـــ حاذرى أن تعلق زهرة الصباح من زوجها ..

لاحظت رقية شرود زوجها ، منذ لزم مجلســــه فى القاعة التحتية . كان قد سهر لياته فى خلاء الدراســـة ، مع خضـــرة الشريفة : اسرها وعذابها فى ديار الأعداء ، وتحريرها على أيدى الأولياء والدراويش .

توالى الأيام كابوس عظيم ، متصل لا يدرى كيف ينتهى . بدا له زفاف زهرة الصباح الى الشاب مخرجا لم يعن بتدبر مســـاره ولا نتائجه . مجرد الرغبة فى مجاوزة أيام الخوف ..

تناوشته الأسئلة : هل تعلق زهرة الصباح من زوجها ؟ .. وماذا باستطاعته حينئذ أن يفعل ؟ .. هل يقوى على مواجهة الملك ؟ .. ربما استغنى عن كل من تحتاج اليهن زهرة الصباح أثناء الحمل، وفى الولادة ، وبعد الوضع . الخدم والحشم والدايات والمراضع . يشدد على أمها بألا تأذن للعـــاملين فى القصـــر بالدخـــول عليها : قولى انها ضعيفة . ونصـــح الأطباء بعدم زيارتها . فاذا ظهر الحمل ، وكبر بطنها ، يأمرها أن تلزم حجرتها ، فلا تغادرها . واذا أرادت أن تتمشى ، أخلى لها الحديقة الخلفية للبيت ، تمضى فيها وقتا بمفردها ، أو بصحبة جارية . واذا جاءها المخاض ، قد

تعين الأم الدلالة حمدونة فى أداء الأمر كله . لكن : ماذا بوسعه أن يفعل اذا أنجبت ؟ .. هل يقتل المولود أو يخفيه وهل يغيب الأمر عن شهريار ؟ .. وماذا لو أن العين التى لن يلمح تلصصها ، أشاعت نبأ زواج زهرة الصباح من سعد الداخلى ؟ ..

خطر بباله أن يطلب مشورة العلماء والحكماء وأصـــحاب العمائم ، يأخذ عليهم العهد والمواثيق انهما يردون استغاثته بهم .. لكن ماذا لو أن خوف أحدهم من شهريار أشد من حرصه على قسمه ؟ ..

وصرف الفكرة بلا تردد ! ..

اعتاد خدم القصر رد من يطالبون المتبولى بالقول : السيد فى الحريم ! .. لا يأذنون حتى لرجـــال الدولة الا اذا كان الأمر مهما ، أو أن الملك هو الداعى للقاء ..

ضاقت عليه الدنيا ، فصار يمشى فى الأسواق — بمفرده — بلا غاية . الشوارع ساكنة ، خالية ، الا من المراقبين والحراس وبوابى الحارات والدروب ، يعرفونه من سحنته ، طالما رأوه فى مواكب الملك . يبين عن تميزه بالسير بالقرب منه . يتجاهل التحية الخائفة ، ويواصل سيره . لا يقصد مكانا بذاته ، ولا وجهة بعينها ، انما هو يترك لقدميه السبيل ، تقودانه ، فلا يشغله التلفت ..

تســـلل بنظرة متفحصـــة من باب زويلة . هل بقيم القطب المتولى هنا ، أو فى رحلته التى لا تنتهى بين مكة وباب زويلة ، يطير دون أن يراه أحد ؟ . يؤدى صلاته فى المسجد الحرام ، ويطوف حول الكعبة ، ويلثم الحجر الأسود . ثم يعاود الطيران عائدا الى باب زويلة ، فيستقر فى فراشه خلف الباب الخشبى الضخم . هل يبثه همه ، فيستجيب له ؟! .. يعينه على انقاذ ابنته من نهاية ، أجلت قدومها حكايات شهرزاد ..

تنبه الى نفسه ـــ ذات مساء ـــ فالفى الخلاء يمتد أمامه . الصمت سادر ، ليس الا صفير الحيات ، ونعيق البوم ، وصريخ الجان ..

قالت رقية :

ـــ كيف نحرمها من حقها فى أن تصبح اما ؟! ..

وهو يرمقها بنظرة ساخطة :

ـــ هذا أفضل من أن تفقد حقها فىالحياة ..

تغلف صـــــوتها بنشيج :

ـــ الى متى ؟ ..

دهمه تأثر لتخاذلها :

ـــ سؤال يصعب أن يجيب عليه شهريار نفسه ..

مدت يدها ، فأمسكت بساعده :

ـــ ناقشــــه ! ..

وهو يتملص برفق من قبضتها :

ـــ ماذا أقول له ؟ .. زوجت ابنتى من آخر رغم خطبتك لها ! ..

اتجهت الى عينيه :

ـــ لم يخطبها ليتزوجها .. فعل ذلك ليقتلها ..

أضافت لصمته المتحير :

ـــ أذن الله للناس بمجادلته يوم القيامة .. فلماذا لا يأذن الملك لأعوانه بذلك ؟! ..

وجدت فى صمته السادر مشجعا ، فقالت :

ـــ مشكلة هذا الرجل أن عينيه فى قفاه ..

هز عبد النبى المتبولى رأسه موافقا :

ـــ انه لا يرى الا الماضى وحده ! ..

الليلة الخامسة عشر بعد الخمسمائة

سار فى الشارع الأعظم الى نهايته . عبر بوابة المتولى ، ومنها الى الخيامية ، حتى حارة قصبة رضوان . ابتسم لمرأى البيت، انشغل عمال بناء ونقاشون فى ترميم مدخله وواجهته ..

قالت زهرة الصباح ، وهو يغادر القصر فى الصباح :

ـــ فى حكايات شهرزاد للملك ، قالت امرأة خياط صينى لزوجها غاضبة : أنت طول النهار فى حظك ، وانا قاعدة فى البيت حزينة كئيبة .. فان لم تخرج بى وتنزهنى ، وتفرجنى بقية النهار ، كان ذلك سبب فراقى منك ! ..

قال سعد فى تكلف للغضب :

ـــ أنا طول النهار فى تجارتى ، ولست فى حظى ..

أستطرد متسائلا :

ـــ هل يأذن لنا الملك أن نخرج للنزهة ..

وقال فى لهجة هزمها التأثر :

ـــ أثق أنك لا تقوين على فراقى ! ..

البيت لأبيه ، وان ظل مهجورا منذ سنوات . قرر أن يرممه ، ويؤثثه ، ربما تأذن الظروف بانتقاله وزهرة الصباح اليه .. فمن يدرى ؟! ..

الليلة الواحدة والعشرون بعد الخمسمائة

أطال سعد الداخلى تأمل زهرة الصباح فى جلستها الساكنة ، كأنها تحصى التكوينات الزخرفية والزهور والفسيفساء المذهبة ..

قال ، يوقظها من غفوتها الصاحية :

ــ قضيت يومى فى سوق الرقيق بخان الخليلى . اشتريت فى عودتى هذا المشط من السوق المجاور ..

تأملت المشط . من الصدف الجميل . به نقوش وزخارف وتكوينات بديعة ..

قال :

ــ السوق به طرائف العالم .. لكن هذا المشط أميز ما شاهدته فيه ..

أضاف للسهوم فى عينيها :

ــ لماذا لا ننسى ــ ولو مؤقتا ــ حكاية شهرزاد وشهريار ..

علا صوتها فى انفعال :

ــ هل أنسى الموت ؟ ..

وهو يضغط ــ باشفاق ــ على راحتها :

ــ ننسى كل شىء الى حين ، ونحيا حياتنا ..

سحبت يدها بعفوية :

ــ صـــــعب ! ..

قال بترفق :

ــ ربما .. لكنه ممكن ..

بحلقت :

ــ كيف ؟! ..

نطر الهواء بظهر يده :

ــ ننساه .. كأن حياتنا خلو منه ..

تحشرج صــــــوتها :

ــ لا أقدر ! ..

وهو يدارى تأثره :

ــ كل ما اطلبه أن تحاولى ! .. لن نخسر الكثير ، ان لم نخســـــر شـــــيئا بالمرة ! ..

الليلة الرابعة والعشرون بعد الخمسمائة

قال شهريار :

ــ ماذا جرى لك ياشهرزاد ؟ .. انت لا تملين تخويفى من الوزراء ..

أضاف فى لهجته المستغربة :

ــ هذا الوزير فى حكاية حاسب كريم الدين .. يعالج الملك المريض ظاهريا ، لكنه يعد لقتله سرا ! ..

رسمت على شفتيها ابتسامة ود :

ــ هذه ــ كما قلت يا مولاى ــ مجرد حكايات ، مصدرها الخيال ، ولا شأن لها بالواقع ..

حدجها بنظرة متوجسة :

ــ أرى أن خيالك يكاد يقتصر على دنيا الملوك والوزراء ..

أردف كأنه يحذر :

ــ قالت احدى حكاياتك ان الاســــتخفاف بالملوك يذهب بالروح ! ..

الليلة الثالثة والثلاثون بعد الخمسمائة

غادرت — فى الصباح — الصندوق ذا السبعة الأقفال ، بعد أن قضت ليلتها داخله . خطفها المارد يوم عرسها ، ووضعها فى الصندوق ، وأغلق الأقفال السبعة ، ثم القاه فى البحر .

أهملت ما عانته ، وهى تستمع الى قول أبيها :

— أنها الآن تروى عن تاجر اسمه السندباد البحرى .. يركب البحر من أجل تجارته ، ويصادف — فى كل رحلة — غرائب وأهوالا .. لكنه ما يلبث أن يعاوده الحنين الى البحر مرة أخرى .. حكايات لا تنتهى ..

أردف كأنه يحادث نفسه :

— ليتها لا تنتهى ! ..

وهى تسوى شعرها خلف أذنيها :

— هل سيظل يرحل الى مالا نهاية ؟! ..

قال فى لهجة تطمين :

— أنها رحلات سبع .. لكن الحكايات فيها كثيرة ..

ثم وهو يعد نفسه لمغادرة القصر :

— ربما جلست اليك فى المساء ، لأعيد روايتها ..

الليلة الثانية والأربعون بعد الخمسمائة

اعتادت زهرة الصباح قول السندباد فى مطلع كل حكاية :
« اعلموا يا أخوانى انى لما رجعت من سفرى الى مدينة بغداد ، وغرقت فى اللهو والطرب والانشراح . وقد نسيت مالقيته ، وما جرى لى ، وما قاسيته . حدثتنى نفسى الخبيثة بالسفر الى بلاد الناس ، وقد اشتقت الى الفرجة والفوائد ، ومصاحبة الأجناس ، وسماع الأخبار ، والبيع والمكاسب » ..

وتسأل أباها : هل صادف السندباد أهوالا جديدة ؟! ..

همست لنفسها ، وهى تتأمل ملامحه الهادئة :

ــ هل يدرى ماذا يواجهه لو أن شــــهريار عرف بأمــر زواجهما ؟ ..

كان الوقت شتاء . أغلق الخدم الأبواب والفتحات الخارجية، فلا تمر تيارات الهواء . خضع لاشفاقها ، فلزم البيت ..

واجهته بالسؤال ..

قال فى لامبالاة محسوبة :

ــ أعرف أن رأسى سيفصل عن جسدى ! ..

هتفت متعجبة :

ــ هكذا ؟! ..

قال متضاحكا :

ـ رحل عنترة الى بلاد كسرى ، ولقى الأهوال لاحضار النوق العصافير من مواليه الغساسنة ..

قالت متظاهرة بنفاد صبرها :

ـ ليتنى ما أعدت عليك حكايات أبى ! ..

نقل اليها أبوها أمس ، عن الراوى ، ما قاله عنترة لأبيه : « يا مولاى : افعل بى ما تريد ، واحكم على حكم الموالى على العبيد .. والعبد ماله غير مولاه . ان أبعده أو أدناه . وأنا أشهد على نفسى انى من الآن فصاعدا ، قد امتثلت أمرك ، ولا أقصر عن خدمتك . ولا أفارق رعى الجمال . وأكون على حفظ أموالك واعيا ، ولا اركب جوادا ، ولا أجرد حساما مع الأبطال ، ولا أنطق بالشعر ابدا ، ولو شربت كاسات الردى مع الأنذال » ..

الليلة الثامنة والعشرون بعد الستمائة

قال الملك ، وهو يزيح الستارة خلف مجلسه ، فى طريقه الى داخل القصر :

ــ هل مضى على وقفتك هذه أيام كثيرة ؟ ..

قال مســــرور :

ــ أستأذن مولاى فى أن أجعل الأيام شهورا ..

توقف الملك فى مكانه :

ــ ماذا تعنى ؟ ..

وهو يتجه بعينيه الى الأرض :

ــ لقد مضت أشهر دون أن أؤدى واجبى اليومى ..

سألت الدهشة :

ــ واجبك اليومى ؟! ..

قال مســــرور :

ــ مهمتى أن أطيح برأس المرأة التى تزف الى مولاى ..

قال شهريار وهو يحدق فى اللاشىء :

ــ سل الحكايات يا مسرور ..

ملا حاجباه بالاهتمام :

ــ أية حكايات يا مولاى ؟ ..

وهو يتجه الى الداخل :

ــ فيما بعد يا مسرور .. لكن ابق فى مكانك ، فلا تغادره ! .

الليلة الخامسة والثلاثون بعد الستمائة

تساءل عبد النبى المتبولى ، وهو يغادر مجلس الراوى الى الخلاء : الى متى تظل الأميرة ذات الهمة تعـــانى مؤامرات عقبة وتدبيراته ؟ ..

قالت رقية :

ـــ هذه الحكايات .. ألا ترى أن زهرة الصباح أكبر من ان تستمع اليها ؟ .. انها الآن سيدة متزوجة ! ..

قال عبد النبى المتبولى :

ـــ وشهريار ؟ .. أليس أكبر من أن يســـتمع الى حكايات شهرزاد ؟! ..

أطل فى عينيها قلق :

ـــ ماذا تعنى ؟ ..

وهو يهز رأسه :

ـــ لا أضمن استمرار شهرزاد فى رواية حكاياتها ..

همست فى قلقها :

ـــ اذن ..

ثنى اليها ملامح الأسى :

ـ نعم .. ربما حل الدور على زهرة الصباح ، فتجد من الحكايات ما تطيل به حياتها ..

فى أيام الصيف ، تلجأ الاسرة الى المقعد الأرضى . تجعل منه مجلسا . يبدو فيه الجو لطيفا بما لا يقاس بحجرات القصر الأخرى . قبالته فسقية تضخ الماء بلا انقطاع . اذا اشتد الحر ، يرش حولها ، فتهدأ السخونة . يجلس الأب فى المواجهة ، من حوله الأم وزهرة الصباح وسعد ، ان لم يكن خرج فى قافلة ..

تصور المتبولى نفسه فى البداية ، غير قادر على الرواية ، لا يملك موهبة الحكى . يشد انتباه مستمعه ، فيتابعه منذ بداية الحكاية الى نهايتها ، لا يمل ولا يشرد . ربما حذف من الحكاية ما ينبو عن الذوق . وقد يضيف اليها ما يزيد من انتصار المغامرة والحق والجمال . شخصيات اخترعها خياله ، فبدت له ـ وهو يتأملها ـ حكاية أخرى تماما . وكانت زهرة الصباح تنصت فى اهتمام ، ترجوه أن يطيل ، أو يروى حكاية أخرى .

لم تعد أيامها مقصورة على الطعام والثياب والتطريز والوشى والنوم والملل ، أو حتى الجلوس بمفردها ـ لساعات ـ تستغرق فى التأمل والخوف والأحلام . نقلتها الحكايات الى دنيا جديدة ، لا عهد لها بها . غادرت البيت الى قصور وبيوت وشوارع وأزقة . روى لها عن خلفاء وملوك وسلاطين وأمراء ووزراء وجند وتجار وفتوات وقطاع طرق ومطاريد وعلماء دين ومتصوفة وحملة مصاحف وأقلام وخناجر وسياط وسيوف . رتلوا القرآن ، وعلت أصواتهم بالأدعية ، وبالأنين فى الأقبية المظلمة . طاف بها الميادين والشوارع والاسواق والأزقة . وتوالت المشاهد فى الموصل وسامراء وخراسان والأهواز وبغداد والقاهرة والمغرب . نزلت أعماق البحار ، وطارت الى السموات ، وجزر

الواق الواق ، وجزر بحر الروم ، والبستان المطلسم ، والقصور المبنية من الذهب ، ومدينة النحاس ، والكنوز التى تفك الطلاسم للوصول اليها ، والقصر ذى الغرف المائة ، والغرفة ذات الباب الذهبى ، والأرض الكافور ، والأشجار، تصدح من فوقها الاطيار ، ثمارها رءوس آدمية . تهتف عند شروق الشمس ، وعند الغروب : واق الواق .. تبارك الله الخلاق ! . ورأت ما عجزت — أحيانا — عن تصوره ..

سارت فى مدينة الموتى . فزعت لمرأى الناس مجمدين فى أماكنهم . الباعة والمشترين والحراس . استلت حياتهم فجأة ، فى لحظة واحدة ، دون أن يجد من فتح فاه فرصة لاغلاقه . علا صوتها : افتح يا سمسم ، فظهرت مرجانة على باب المغارة ، بجوارها على بابا وقاسم والأربعين لصا .

تساءلت : كيف جمعهم مكان واحد ؟! .

الفت نفسها ترتدى الصوف ، لبس العبيد ، وسط العشرات من الرجال والنساء يرتدون اللبس نفسه .

تابعت مريم وهى تطرز الأحزمة ، ليبيعها نور الدين فى السوق ، ثم وهى تعمل زبان سفينة لمعرفتها بأحوال سير المراكب فى البحر المالح ، وتعرف الأجواء كلها ، واختلافها ، وتعرف جميع طرق البحر . ورافقت الملك سيف فى رحلته الشاقة فى البرارى والقفار والسهول والأودية . وأخذت من جليلة كأسين من حليب السباع ، فشربتهما . ووقفت وسط المتهمين الأربعة بقتل الأحدب . تروى حكاية أعجب من حكاية الأحدب ، تسلى بها الملك ، وتشترى حياتها .

تعرفت الى أفانين الحواة ونوادر الشطار ومواعظ الحكماء وحكايات هارون الرشيد والبرامكة وكسرى أنو شروان والعيارين

والأربعين لصا ورحلات السندباد . وحفظت أسماء ومسميات وأغنيات وقصائد ..

شاهدت الوحوش فى الغابة ، وما لم تكن تحلم برؤيته فى أعماق البحار . ورافقت الطيور فى تحليقها ..

أنصتت الى مالم يخطر ببالها من الجرائم والفتن والمكائد والخطط والمؤامرات والتدبيرات . شرقت وغربت .. ابتسمت للنكات والطرائف والألغاز . فتحت فاها فى دهشة ، وأغلقت عينيها لمشاهد الفزع ، وسألت وناقشت ، وأعلنت ضيقها بأحوال البشر ، وتأثرت لما صنعته الأنفس الشريرة ..

ركبت البساط السحرى ، والحصان الطائر . وتأملت البنورة السحرية . وتعرفت الى أحوال المجاذيب والمساليب . واهتز رأسها فى الحضرة وحلقات الأذكار . وتسللت الى أنفها روائح العطور والبخور والتوابل . عاشت — حتى فى نومها — مع الأنس والجان والمردة والعفاريت والناس الممسوخين حجرا . والتمع فى يد لم تتبينها خاتم سليمان ، وتثبتت من قطعة الخشب ، صلب عليها من يشبه اباها فى ملامحه ، والعفريت الذى اخترق رأسه السحاب ، واهتزت بقدميه الأرض ، ومكائد العجوز ذات الدواهى ، وشركان يعاجل لوقا ابن شملوط بحربة ثانية ، فيسقطه صريعا ، ونزهة الزمان تروى ما يدل على علمها ، وحب شمس النهار محظية هارون الرشيد وعلى بن بكار ، ابن ملك العجم ، والثعلب الذى ترك الذئب فى قاع البئر ، ينتظر مصيره ، وحكاية الصقر مع ضوارى الطير ، والبشر عندما تحولوا الى قردة وكلاب وحمير ، ولهيب النار يخرج من منخارى الملك عمر النعمان . اذا تنفس ، أحرق كل ما يواجهه من بشر وحيوان ونبات . ويهبط طائر الرخ فوق صدرها . ينشب مخالبه ، فينتزع ثدييها . يذهلها الألم ومرأى

الدم ، فتطلق الصرخات ، ويرفع السندباد البحرى سيفه ، ينفخ فيه الرخ ، فيطيره ، وتلتقى بمسخوطين فى صورة كلب وصورة حمار وصورة قرد . يشلها الفزع ، فتنكتم الصرخة فى حلقها ، وجبل المغناطيس يجتذب المراكب ، فيحطمها ، وحيات عظيمة طول كل واحدة مائة ذراع ، ونساء الواق الواق النابتات على الشجر .. يمتن اذا فصلن عن فروعها . والآدميين الذين يتغذون على لحم البشر ، والمخلوقات الغريبة ، تجمع بين الوحش والانسان . رأسها رأس أسد ، وأذناها أذنى فيل ، وجسمها جسم انسان ، ولها ذيل وأظفار ذات مخالب ، ومراكب وبساتين وبحار وجزر وطيور وحيوانات وأشجار وجبال وسهول ووديان وعواصف وأنواء وأسواق وميادين وقصور وقيساريات ودكك وأقبية وزنازين وقناديل وشمعدانات وآبار وبخور ودخان ..

قالت زهرة الصباح :

ــ لماذا لم ترو لى هذه الحكايات من قبل ؟ ..

قال المتبولى :

ــ هذه حكايات شهرزاد وحكايات القصاص فى الأسواق ..

أردف وهو يغتصب ابتسامة :

ــ تركت الأمر لأمك ، فلم تحسنه ..

قالت رقية :

ــ ياما رويت لها حواديت ..

قالت زهرة الصباح مداعبة :

ــ فارق بين هذه الحكايات وحواديت أمنا الغولة ..

قالت الأم فى نبرة محتجة :

ـ أهذا جزاء سهرى فوق رأسك تستمعين الى الحواديت ، حتى تنامين ؟ ..

قالت زهرة الصباح :

ـ أتدرى يا أبى ؟ .. من كثرة ما فى هذه الحـــكايات من غرائب ، لم يعد يشغلنى الخوف من الآتى ..

اضافت للتساؤل فى عينيه :

ـ ذلك الذى أنقذ نفسه ، بعد أن ألقوه فى صندوق مغلق داخل النهر .. ربما يتكرر ! ..

قال الأب :

ـ هذه حكاية يا زهرة الصباح ..

قالت فى لهفة :

ـ وهى عبرة أيضا ..

قال الأب :

ـ أنا أروى لك الحكايات ، أطلب أن تحفظيها جيدا .. لا تنسى منها حادثة ولا شخصية ولا موقفا . ربما احتجت الى رواية حكايات القصاص ، أو التصرف فى حكايات شهرزاد ، بما يجعلها كالجديدة ..

بحلقت عيناها :

ـ أتعنى ؟ ..

قاطعها الأب وهو يفر من نظراتها :

ـ من يدرى يا زهرة الصباح ؟ .. من يدرى ؟! ..

الليلة الرابعة والخمسون بعد الستمائة

سحبه الجند على وجهه عاريا ، الا من ازار لحقه الناس به . اجتذبته حالة ، فهو يردد : هذا الغلام امرأتى ! ..

قيل ان الرجل لم يجد وسط عمليات الاعدام ، وفرار الفتيات الحرائر الى خارج المدينة ، من يتقدم لخطبتها . بدا الزواج مستحيلا، وارتفعت أسعار الرقيق ، فهو لا يقوى على شراء جارية . لا يعرف ان كانت الفكرة قد طرأت فى باله ، أم أن أحدا فاتحه فيها ..

كان الولد خلف المليجى صبيا للمعلم جبر العداس ، مزملاتى سبيل سوق الخيل . دفع فيه مبلغا غير معلوم ، وان كان اقل مما يدفع لاقتناء جارية . عقد على الغلام بحضور شاهدين ، وصحبه الى مسكنه ، الحجرة التحتية من بيت الست عطيات الدميرى بالخرنفش . لاحظ الناس اقامة الغلام فى الحجرة ، لا يغادرها . أخذوا على الرجل معايب واضحة ، فابلغوا الشرطة . كبست عليه والغلام فى حضنه . اقتادته الى عبد النبى المتبولى فى مكتبه داخل القلعة ..

اهمل ما بيديه :

— هل ضاقت بك الدنيا ؟ ..

هز كتفيه فى استهانة :

— هى كذلك الآن بالفعل ..

التمع الغضب فى بحلقة عينيه :

ــ تتبجح بالزواج من ذكر ..

قال فى استهانته :

ــ أين هى الأنثى لأتزوجها ؟! ..

صرخ المتبولى :

ــ لم يخل العالم من النساء ..

شابت صوته رنة انفعال :

ــ بل خلت القاهرة وحدها .. ولا أحد يرضى بقدوم ابنته اليها ..

لم يعرف عن الرجل انه يتردد على مواضع الفجور والبغاء وعشق الغلمان . قضى عمره قارئا للعلوم والتاريخ ، مشتغلا بالدين والعبادة ، محبا لأهل العلم والقرآن ، يهوى سماع الأحاديث واقتناء الكتب . وكان يفرق على طلبة الأرياف والفقراء وســـائر أرباب الوظائف .

أخفق الوجهاء والأعيان وعلماء الدين فى الشفاعة له . أصر المتبولى على أن يرفع أمره الى الملك . تمنى ــ فى نفسه ــ أن يفطن الملك الى معنى الفعلة ، وما تشى به . أصدر شهريار أمره ، فضرب الرجل ضربا مبرحا ، ثم اقتيد الى الحلاق ، فطوشه ، حتى لا تتكرر فعلته ..

أمر الملك ــ فى الليلة نفسها ــ انه اذا صادفت الشرطة رجلا يرافقه من هو أصغر منه ، سألت عن قرابتهما ، أو صـــلة العمل بينهما . لا تكتفى باجابة الرجل والصبى ، لكنها ترافقهما الى حيث يقيمان ، أو يعملان ، للتثبت من صحة روايتهما . فان ثبت صحتها ، أطلقت سراحهما ، وان لم يثبت ، دفعت بهما الى السجن ، ليمثلا أمام القاضى ..

الليلة السابعة والسبعون بعد الستمائة

قال شهريار :

ـ لو أن دليلة المحتالة ، وبنتها زينب النصابة ، وقفتا أمامى تتباريان فى ابتداع حيل الخداع واللصـــــوصية ، فانى كنت أكف أذاهما عن الناس بوسيلة أخرى ..

أردف متعجبا :

ـ لقد أجرى لهما خليفتك راتبا ، حتى يكف أذاهما .. فهل قصـــــد العقاب أو الاثابة ؟! ..

الليلة السابعة والثمانون بعد الستمائة

لما أهدى سعد الداخلى زوجه خفا مزركشا بالذهب الأحمر ، مرصعا بالدر والجوهر . أصر أن يلبسه قدميها بنفسه . ألفت تردده على سوق القناديل يشترى لها ما يتصور انه يعجبها من الأطواق المرصـــــعة بالجواهر ، والقباقيب الذهب ، والخلاخيل الثمينة ..

تمنعت فى خجل . فلما أيقنت من اصراره ، تركت له قدميها ، فألبسها الحذاء ..

قفز الى ذهنها ما نقله له أبوها عن الراوى . تحدث عن عبلة . صبت الخمر لعنترة ، حتى انتشى . ثم طلبت منه أن يقبل قدمها أمام صديقاتها ، تأكيدا لحبه وخضوعه . أحس عنترة انها تريد اذلاله ، فترك الديار ــ غاضبا ــ الى قلب الصحراء .

قالت :

ــ آه لو رآك أبى ..

رنا اليها بملامح متسائلة :

ــ لمــــــاذا ؟ ..

وهى تهز أصبعها محذرة :

ــ المراة هى التى تلبس الرجل حذاءه ، وليس العكس ..

قال مهونا :

ـ أبوك من جيل .. ونحن من جيل مختلف ..

تساءلت كالمتذكرة :

ـ لم يعد أبوك يزورنا ..

نهض ، فجلس بجوارها :

ـ أبى يقضى معظم يومه فى خان مسرور . اذا أردته فى أمر ، ذهبت اليه ..

كتمت راحتها شهقة فزع :

ـ وما شأن أبيك بسياف السلطان ؟! ..

غالب ابتسامة مشفقة :

ـ لم أشر الى ذلك ..

تنبه ، فأردف :

ـ تقصدين خان مسرور .. انه الموضع الذى يبيعون فيه الرقيق ويشترون ..

وقال موضحا :

ـ نسى أبى مهنته .. صار جلوسه غالبية الأيام الى جانب النخاس فى خان مسرور ..

وهمس لنظرتها الداهشة :

ـ يتصور أن الملك سيلجأ الى الجوارى فى النهاية ..

اختنق صوتها بحشرجة :

ـــ بعد أن يقتل بنات الناس ؟! ..

قال فى همسه المعتذر :

ـــ يتوهمون أن حكايات شهرزاد ستنتهى لتطولها ، وسواها ، عمليات الاعدام .. ربما قبل بالجـــوارى ـــ بعد عتقهن ـــ بديلا مقبـــولا ..

قاومت انفعالها :

ـــ هل يتزوج الملك امرأة مسها الرق ؟ ..

وهو يتحاشى النظر اليها :

ـــ يبحثون عن أى بديل لاعدام بناتهم ..

وتشابك فى صوته خيط حزين :

ـــ فى القصر كثير من الجوارى . لو أنه أراد أن يقضى عليهن فى ليلة واحدة ما صعب عليه .. لكنه يصر أن تكون عروســـه من بنات الناس ! ..

❋ ❋ ❋

لا أحد يدرى متى ولا كيف بدأت الشائعة ..

قبل ان الملك أطال فى عمر شهرزاد ، لأنه لم يعد ينتظر دوره ، من فتيات المدينة ، سوى أقل من المائة . ما أسرع ما تنقضى الأيام . لابد أن تفرغ حواديت شهرزاد ، أو يجد الملل ســـبيله الى قلب الملك .

بدت الجوارى حلا مقبولا لاتصال السلسلة . يحتفظ أرباب الأسر بالجوارى ، يعتقونهن فى اللحظة المناسبة ، يصبحن أحرارا ، يصلن حلقات السلسلة التى لا تنتهى . راجت البضاعة ، وأقبل

الجميع على اقتناء الجوارى ، شرائهن وبيعهن ، يحققون من الأرباح ما لا يخطر ببال ..

كثر تردد الأهالى على أسواق الرقيق فى خان جعفر وخان مسرور ووكالة كتشك وفندق الحجر وبركة الرقيق بالفسطاط ، والسوق الكبير بالقرب من جامع السلطان قايتباى ..

أضيفت أسواق أخرى فى أحياء القاهرة . يباع الرقيق بأسعار مختلفة تبعا لنوعيته . ثمة الأسود والأبيض والمستجلب من بلدان قريبة وبعيدة .. أعداد متزايدة يصعب حصرها . يرتفع سعر الجارية اذا فاقت الأخريات فى لون تجيده . تجيد الغناء ، أو تحسن تلاوة القرآن ، أو تبرع فى الرقص ، أو تصلح للمنادمة على الشراب . تحسن الحكى ورواية الطرائف والحكم ، وتلاوة الأشعار ، أو تشى صحتها البادية بانجاب أطفال كثيرين ، أقوياء .

نشطت حركة القوافل من الشرق والغرب والجنوب ، بضاعتها الرئيسية جوار من أنحاء العالم . تأتى قوافل الرقيق الأسود من الجنوب . أما الرقيق الأبيض ، فيصب الى أسواقه من بيزنطة وأرمينية وثغور البحر المتوسط وأدهاس آسيا الوسطى وحول بحر قزوين وبلاد القوقاز ووادى نهر الفولجا ونهر الدون وضفاف بحر البلطيق . فضلا عن أسواق الرقيق فى سائر بلاد الاسلام ..

يقف الدلال أمام الدكة العالية ، تتوسط رحبة سوق الرقيق . من حوله تجار ومشترون وسابلة . يهمل النداء حتى يجتمع السراة والتجار . ينزع غلالة الحرير عن الفتاة . ينادى بآخر ما عنده : ياتجار يا أرباب السوق ! .. ما كل مدورة جوزة ، وما كل مستطيلة موزة ، ولا كل بيضاء شحمة ، ولا كل حمراء لحمة ،

ولا كل صهباء خمرة ، ولا كل سمراء تمرة ! .. يا نجار ، هذه الدرة اليتيمة التى لا تفى بها الأموال بقيمة ، بكم تفتحــــون باب الثمن ؟ ..

الأجسام عارية ، الا فى الصدر وما يغطى العورة . الأيدى ــ ربما قبل الأعين ــ تتفحص عضلات اليد والســـاق ، وتكور الثدى ، ورقة الجلد ، ونعومة الأصابع . يأمرهن النخاســـون فيمشين . يفتحن الأفواه عن آخرها لتبدو سلامة الاسنان . يحملن النهود بأيد مثمنة . تمشى المرأة ــ أو تجرى ــ خطوات ، وتنحنى ، فلا يبين فيها عيوب ، أو تشوهات جسمية . ربما علت أصــوات المشترين ، تطلب من الجارية أن ترقص ، أو تغنى ..

توالت الرقاع والتقارير على عبد النبى المتبولى : امتــلأت بأنواع الرقيق ، قصـــور الوزراء والأمراء والولاة . رقيق من جنسيات مختلفة ، وان تلاقت فى الجمال بما يرضى الملك . ظهرت حكايات حب بين السادة والاماء . من عرف مصير جاريته التى أحبها .. رفض بيعها مهما كان الثمن مغريا ..

شدد عبد النبى المتبولى على أعوانه أن ينزلوا الى الأسواق . يأمروا الســـماسرة والجليان بألا يبيعوا جارية قبل أن يعرضوها عليه . اذا لم يكن لديه وقت لذلك ، أوفد من يدله ذوقه على الجارية التى يجب شراؤها . أودع الجوارى ، لا يوجد مثلهن عند أمير أو نخاس ، فى قصر يطل على جامع الأزهر ..

قال ــ فى الليلة نفسها ــ لرقية :

ــ لما لاحظ النخاس اصرارى على شراء جاريته ، زاد فى سعرها ، فلم يمتثل الا بعد أن هددته بأخذها قهرا ..

تساءلت الدهشة :

ــ ولماذا اصرارك على تلك الجارية ؟ ..

غلبه الارتباك ، فنطق الكلمات مدغمة :

ــ بدا عليها مخايل النعمة ، وانها بنت ناس . مفروض انها ستزف الى الملك ..

قالت رقية :

ــ أخشى أنك ستظل تشترى الجوارى .. ثم يبقيهن لك شهريار بعد أن يختطف ابنتك ! ..

وهو يغمض عينيه فى تأثر :

ــ نحن نفعل ما علينا .. ثم نأمل فى رحمة الله ! ..

الليلة الثالثة بعد السبعمائة

روى النخاس شيبان الاخميمى ، فى مجلس أصدقاء ، ما حدث ، نقله الأرصاد — فى الليلة نفسها — الى عبد النبى المتبولى. أغضبه التصرف ، ولم يفهمه . اى رجل يبيع ابنته ؟! ..

دفع محمد النجار ، تاجر الأخشاب بالفحامين ، الى النخاس بصرة مقفولة ، بها علامة . شدد عليه ألا يبيع الفتاة الا لمن يدفع فيها صـــرة مقفولة ، بها علامة مماثلة . يحصـــــل النخاس على الصرتين ، مقابلا للفتاة التى لم يدفع فيها شيئا ..

— هل هى ابنتك ؟ ..

ثم علا صوته فى غضب واضح :

— كيف تحول الابنة الحرة الى جارية ؟ ..

قال النجار بصوت متذلل :

— اطلب الأمان ! ..

قال المتبولى فى غضبه :

— والعقاب بلا رحمة ، لو لم تقنعنى الاجابة ! ..

قال النجار فى تذلله :

— خشيت أن يطولها انتقام الملك . فضلت أن تحيا جارية ، بدلا من أن تقتل حرة ! ..

تجاهل المتبولى نظرات الجند تنتظر حكمه . فى ذاكرته قول الراوى فى سيرة على الزيبق : كما ترون ، فان بوسع المرء ان يصنع مالا نهاية له من الحيل ! ..

قال المتبولى لينهى الموقف الساكن :

— ضعوه والنخاس فى السجن ، حتى أقضى فى أمرهما ! .

الليلة السابعة بعد السبعمائة

روت شهرزاد حكاية مملوك التاجر حسن . اراد ان يغادر دمشق ، فرأى شابا يجرى وهو يتعثر بأذياله . قال له :

ـــ ما بالك تجرى وأنت مكروب ؟ .. والى اين تقصد ؟ ..

قال الشـــــاب :

ـــ هنا شيخ فاضل ، يجلس كل يوم على كرسى ، فى مثل هذا الوقت ، ويروى حكايات وأخبارا وأسمارا ملاحا ، لم يسمع احد مثلها . وانا أجرى حتى أجد لى موضعا قريبا منه ، وأخاف انى لا احصل لى موضعا من كثرة الخلق ..

قال المملوك :

ـــ خذنى معك ! ..

قال الشاب يستحثه :

ـــ أسرع فى مشيتك قبل أن يغلق بابه ..

أغلق المملوك بابه ، وأسرع فى السير مع الشاب ، حتى وصل الى الموضع الذى يتحدث فيه الشيخ الى الناس .. راى شيخا صبيح الوجه . يجلس على كرسى ، فجلس قريبا منه ليسمع حديثه . فلما جاء وقت الغروب ، فرغ الشيخ من الحديث ، وانفض المجلس .

قال شهريار :

ـ الراوى فى حكايتك شيخ عجوز . اما راوية مجلسى فهى أجمل النساء ! ..

تمنى ـ ذات ليلة ـ لو أن الليالى تواصلت ، فلا نوم ، ولا حكم، ولا وزراء ، ولا رسائل ، ولا أى شىء يشغله عن حكايات شهرزاد ..

أضاف وهو يضع عمامته الى جانبه :

ـ أثق ان حكايات راويتى أفضل بكثير من حكايات الشيخ ! ..

الليلة التاسعة بعد السبعمائة

اختفت الفتيات من المدينة . اما أن شهريار أسلم رقابهن الى المشاعلى ، أو أن آباءهن أفلحوا فى تهريبهن الى مدن الأرياف ..

تنفيسا عما بداخل الشبان ، كثر لجوؤهم الى الأركان المظلمة ، والاماكن الخالية والمهجورة ، والقعدات المشبوهة ، والأحاديث الساقطة الرذلة ، الممنوعة فى القرآن والسنة ..

تعددت حوادث خطف الجوارى من الأسواق ، ومن على أبواب البيوت ، وداخل الحمامات ، واختطف كذلك الصبيان المردة . تزايد اللواط بقدر الحاجة الى الباءة ، واختفاء الفتيات ..

سحب ثلاثة شبان صبيا كان بصحبة أبيه ، بعد أن أديا صلاة الفجر فى جامع الظاهر بيبرس البندقدارى . أخذوه الى داخل بيت ، ففسقوا فيه ، والناس يغادرون المسجد الى بيوتهم ، ملا يجسر أحد — لمرأى الخناجر فى أيدى الشبان — أن يخلصه منهم .

الليلة الثامنة عشرة بعد السبعمائة

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله وسلم على نبيه الأمين ، محمد بن عبد الله أشرف المرسلين . أما بعد ، فقد توقفنا فى اليوم السـابق ..

يستكمل الراوى ما كان قد بدأه . ربما تنتهى الحكاية الواحدة فى يومها . وقد تأخذ — لطولها ، أو لاستعادة الجالسين — أياما متتالية ..

الراوى يجلس فوق مقعد صغير ، أعلى المصطبة ، فى نهاية الساحة ، أو بطول واجهة المقهى . فى يده الرباب ، والى جانبه — أحيانا — امرأتان من الغوازى ، ترقصان بآلية ، والناس حونه وامامه ، وعلى مصاطب المنازل ، وفى النوافذ والشرفات ، وعلى الأسطح ، وفوق الأشجار والاسوار ، يدخنون الشبك ، أو يرشفون القهوة ، ويشربون المشروبات المسكرة ، يبذلون أسماعهم للراوى ، يطلقون صيحات الاستحسان ، أو صرخات الأسى ..

يتغنى الرواة بأفعال الملك ، يعجبون بسير الأبطال ، ينظمون الاناشيد والبلاليق وحكايات التاريخ وأبطال السير الشـعبية ، الهلالية والعنترية وسيرة السيد البدوى والظاهر بيبرس والأميرة ذات الهمة وفاطمة بنت برى والمهلهل وعلى الزيبق وحمزة البهلوان وفيروز شاه وبهرام شاه والصحصاح والأميرة خضرة الشـريفة

والسفيرة عزيزة والدنف وحسن شومان وأبى محمد البطال ودليلة المحتالة وعمر الخطاف وعلاء الدين أبى الشامات ..

يقف الراوى فى أشد المواضع تشويقا . يعد بالتكملة فى اليوم التالى ..

تذكر عبد النبى المتبولى ما تفعله شهرزاد كل ليلة بشهريار . تقطع الحكاية فى أهم موضع . تعد بتكملتها فى الليلة التالية .. تحفظ حياتها ، وحياة الأخريات . هل يكون الرواة طريقا أخرى لحفظ حياة الفتيات ؟ ..

اعتاد الناس رؤية كاتب السر ، يقضى يومه فى التنقل بين الرواة . تنقل بين رواة الســــير الظاهرية والعنترية والهلالية ، وسيرة الأميرة ذات الهمة وغيرها ، والحكايات الخرافية والخوارق والطرائف والعبر وأخبار الملاحم . ربما وجد فيها ما يعيد حكايته لزهرة الصباح تضيف الى حكايات شهرزاد ، ان أخفقت شهرزاد فى الحكى ، أو أدرك شهريار الملل . تبقى على حياتها حتى يتدبر الرجل أمره . وربما وجد فيها ما ينقله — بواسطة جوارى القصر — الى شهرزاد . يعينها حين يستعصى عليها الحكى . تبحث عن طرف خيط حكاية اليوم التالى ، فلا تجد . يغلبها الارتبــــاك ، وتنطمس الحروف من ذهنها ، ويتحرك مسرور فى موضعه خارج القاعة . ينتظر أمر شهريار ، دوران العجلة بعد توقفها الذى طال ..

تحولت القاهرة الى سامر كبير ، أبطاله الرواة والقصاص والهلالى والزناتى وسيف بن ذى يزن وبيبرس والسفيرة عزيزة والزيبق وعنترة وحمزة البهلوان والخضر ، عليه السلام ، والسيد أحمد البدوى والسيدة نفيسة والسيدة زينب وسيدى المغاورى ..

تسأل رقية عنه لما يتأخر فى العــــودة . تأتيها الاجـــابة من الطواشية ، عن معاونيه : انه عند الشاعر . فتعرف انه يستمع الى الهلالية . انه عند المحدث ، فتعرف أنه يستمع الى السيرة الظاهرية . انه عند العنترى ، فتعرف انه يستمع الى قصة عنترة العبسى ..

مع ان الراوى كان يعيد — فى معظم الأيام — نفس الحكاية ، ومع أن الرواة كانوا يتبادلون الحكاية الواحدة ، يحذفون منها ، ويضيفون اليها ، ويخترعون من الاحداث ما يخالف الآخرين ، وان لم يبعد بها عن عمودها الأساسى .. فانه ظل يتردد على أماكن الرواة .. يحرسه قلة من الأعوان والأغوات والعبيد . يجلس فى المؤخرة ، حتى لا يأخذ الجالسين خوف ، أو يخشى الراوى ســـرد ما لديه . وكان يأمر من معه بالوقوف خارج المكان ، فلا يفسدوا الأمر بمغايرتهم لمألوف الجلسة ..

أخذ عبد النبى المتبولى من الرواة والحكائين أفضل ما قالوه ، وأحسنوا روايته . يهمل المعروف وما يتناقله الناس ، ويأخذ الجديد مما يســـهل اقترابه من النفس ، وما يتصـــور ان الملك يتقبله . يعطى أشــــد انتباهه الى الراوى الذى يقص من ذاكرته ، فهو يخترع أو يضـــيف الى النص القديم ، ويحذف منه . وقد يجعل منه نصا جديدا . أما من يقرأ ، فهو يعيد الحكايات القديمة بلا زيادة ولا نقصان .

يظل فى وقفته أقصى المكان ، ملثما، أو يداريه اتباعه. يصرفون الناس من حوله . يلزمون الهدوء من يعلو صـــوته بطلب اعادة ، أو آهة اســـتحسان ، أو صـــرخة حزن . ينتهى الراوى من حكاياته ، فيخلى أتباعه له الســـبيل . ينصرف سريعا ، فلا يفطن الواقفون اليه ، ولا يتأملون ملامحه . حتى الراوى فى سوق الخضر والفاكهة ، يطوف على الباعة ، يروى لهم ما يحفظ من الحكايات

والسير . أجره ما يمنحونه من فضل ما يبيعون ، يدسونه فى مخلاته التى تدلت على جنبه . أمر عبد التبولى ، فصـــحبه الجنود الى قصـــره . اســـتعاد منه كل ما حفظه وألفه ..

اذا أعوزت الحكايات عبد النبى المتبولى ، لجأ الى ذكريات الماضى . يروى لزهرة الصباح ما ينثال الى ذهنه ، يحوره ، يضيف اليه ويحذف منه ، يلبسه ثوب التشويق . كأنها حياة الآخرين وليســت الحياة التى عاشها . النشأة فى القرية ، والألعاب ، والطير ، والماشـــية ، وجنى الحصـــاد ، والوقوف فى دكان الأب البقال ، وســمر الليالى القمرية ، والصداقات ، والجلوس الى أعمدة الأزهر ، والمذاكرة ، وحياة المجاورين ، والســـهر فى رمضـــان ، وليالى الأعياد . ما يتذكره يرويه . يترك للحــكاية مسارها ، الأسلوب الذى تختاره ، يحورها فلا تدل على الحكاية الأصـــلية ..

قالت رقية :

ـــ ألم يعد فى حياتنا سوى حواديت شهرزاد ؟ ..

قال المتبولى :

ـــ اذا ظلت شهرزاد تروى حكاياتها ، فان حياة ابنتك فى أمان .

قالت زهرة الصباح وهى تنهنه :

ـــ الى متى يا أبى ؟ .. متى يأتى اليوم الذى لا تجد فيه شهرزاد ما تقوله ، أو أن الملك يجد فيه مالا يغرى بالانصات ..

قال الأب كالمتنبه :

ـــ علينا اذن أن نضع فى فمها ، الجديد من الحكايات .. ونحرض شهريار على المتابعة بلا ملل ! ..

الليلة الرابعة والعشرون بعد السبعمائة

لما أطلقت المرأة صرختها ، ظل الشاب فى وقفته . بدا فى غيبوبة ، أو مخمورا . لم يحاول الجرى ، ولا التملص من أيدى العبيد . خلت يداه من أدوات السرقة أو القتل ، ونفت سحنته وثيابه شـــــبهة الجريمة ، وان ثبتت نظراته على جناح الحريم ، لا تشغله الضربات الموجعة ، ولا يحاول اتقائها ..

أطال عبد النبى المتبولى تأمل الشاب :

ــ هل رايتك من قبل ؟ ..

قال عيسى الطحاوى :

ــ انه ابن المعلم ابراهيم السمطى ، التاجر بالخرنفش ..

أطلق المتبولى أف أف أف طويلة :

ــ لماذا تلصصت على بيت الأمير خاير ؟ ..

القى السؤال على شبان كثيرين ، ولم يعن بتلقى الاجابة . تعددت حوادث التسلل الى أجنحة الحريم ، أو النظر من الأماكن المطلة عليها ، أو اقتحام الحراسة لرؤية ما بداخل الهوادج . حتى لا تصـــبح فوضى ، أمر شـــــهريار أن يمثل الجناة أمامه . من تثبت التهمة عليه ، يؤخذ الى بقعة الدم ، لا يحول بينه وبين اجتثاث راسه وساطة ولا شفاعة ..

داخل لهجة المتبولى اشفاق واضح ، وهو يعيد السؤال :

ــ لماذا فعلت ما فعلت ؟ ..

أركب الجند الشـــــاب جملا .. قطعت يداه ، وتدلتا على جســـــمه . المنادى يسبقه بالنداء : هذا جزاء من يتطلع الى حريم الآخرين ! ..

أنزل الشاب من الجمل ، دفن الى نصفه فى الأرض . ثم ضرب ضربا شنيعا ، وأهيلت عليه الأوساخ ، حتى اختفى ، الا رأســــه ..

تقضت ساعات . ثم أزال جنديان ما غمر الشاب من أوساخ، واوثقاه بقيود ، ووسطاه بقعة الدم ..

قال المشاعلى لقائد المئين وهو يخفض سيفه :

ــ يا نائب أمير المؤمنين . هذا عبد مولاى المذل بنفسه السائر الى رمسه .. هل أضرب عنقه وأنا برىء من دمه ؟ ..

قال قائد المئين :

ــ نعم ..

أعاد المشاعلى القول :

ــ يا نائب أمير المؤمنين .. هذا عبد مولاى المذل بنفسه ، السائر الى رمسه .. هل أضرب عنقه وانا برىء من دمه ؟ ..

قال قائد المئين :

ــ نعم ..

أعاد المشاعلى القول :

ـــ يا نائب أمير المؤمنين .. هذا عبد مولاى المذل بنفسه ، السائر الى رمسه .. هل أضرب عنقه وأنا برىء من دمه ؟ ..

قال قائد المئين :

ـــ نعم ..

هوى مسرور بسيفه ، فتدحرج راس الشاب فى ارض الطريق .

الليلة السابعة والعشرون بعد السبعمائة

صحت زهرة الصباح على ما رواه لها أبوها من قصة سيف ابن ذى يزن . طارت البلورة البيضاء فى السماء ، وانفرشت على الأرض ، حتى صارت حماما بأربعة وعشرين ليوانا من البلور المصفى . لمعت فيه الشمس ، فبدأ كأنه جوهرة . أعلنت خوفها ، فدفعها الرجل ـ لم تتأكد ان كان شهريار ، أم السياف مسرور ، أم أبوها ـ وقال : أدخلى ! .

امضت اليوم تفكر فيما يعنيه ما حدث ..

اخلى المتبولى وجهه لبسمة مشفقة :

ـ أروى لك الحكايات ، لتحفظيها ، لا لتعيشيها ! ..

الليلة الثامنة والثلاثون بعد السبعمائة

كان عبد النبى المتبولى قد انتهى من التحقيق مع ثلاثة شبان ، داهمتهم الشرطة فى دكان مغلق ، بناحية بين القصرين ، كانوا يتبادلون المناقشات فى الأوضاع القائمة ، ويرسمون المؤامرات .

نظر الى الشيخ الساكن فى وقفته بين الجنود ، بدا أقرب الى السراة ، بسحنته الوردية ، وذقنه التى أحسن استدارة وجهه بها ، وثوبه المحبوك حول جسمه ، تتوسطه أزرار تصل الى الرقبة ، وحزام مصنوع من خيوط حريرية مزركشة ..

قال عيسى الطحاوى وهو يشير الى الرجل :

ـ حول ابنته الى جارية تباع وتشترى ..

بحلق عبد النبى المتبولى فى دهشة :

ـ وهل بيعت بالفعل ؟ ..

قال الطحاوى :

ـ عرض أعلى سعر ، فعادت الى بيتها جارية عند ابيها ! .

اتجه المتبولى الى الرجل بنظرة متسائلة :

ـ هل أنت والد الفتاة ؟ ..

قال الرجل وهو يتأمل دما مسحته أصابعه من جبهته :

ــ الكل يعلم هذا ..

التمعت عيناه بنظرة استغراب . ماذا جرى للآباء :

ــ فلماذا حولتها الى جارية ؟ ..

فى صوت هده التعب :

ــ عرضتها فى السوق لأشتريها ، فلا يأخذها الملك ..

صـــــــرخ :

ــ كيف تحول الحرة الى أمة ؟! ..

وهو يغالب النشيج :

ــ أن تحيا وهى أمة أفضل من أن تعدم وهى حرة ..

وأغمض عينيه فى تأثر :

ــ عبوديتها حيلة للفرار من سيف مسرور ..

زهرة الصباح ! .. سرح ذهنه الى سهراتهما ، يروى لها حكايات شهرزاد ، وحكايات الرواة ، وما تلتقطه أذناه من عبر الحياة . يشغله اتقاء الخطر الذى يتجدد ــ كل صباح ــ فى حياة ابنته ، وحياته ..

تنبه من سرحته . قال لمجرد أن يعود الى ما حوله :

ــ ما اسمك يا رجل ؟ ..

قال الرجل :

ــ حيدرة البطريق ..

ـ عملك ؟ ..

ـ تاجر شموع بالضبيبية ..

اســـــتطرد موضـــــحا :

ـ خلف جامع الحاكم بأمر الله ..

تملكت المتبولى حيرة . توالت الصور لارابط بينها : زهرة الصباح وســعد الداخلى وليلة الزفاف والبلانة حمدونة ومجلس الملك وتوسلات رقية وحكايات الرواة ..

قال المتبولى :

ـ ضعوه فى السجن حتى أقضى فى أمره ! ..

الليلة الواحدة والأربعون بعد السبعمائة

بدا على عبد النبى المتبولى ـــ رغم هيبته الظاهرة ـــ ارتباك لم تخطئه المرأة . صرف أعوانه وجنده ، فلم يرافقه اليها سوى عيسى الطحاوى . أمن الحراس الطريق الى بيت المرأة فى صحراء الدراسة ، ولم يتركوا أماكنهم . سبقه الطحاوى الى البيت المغلق . كان قد استعد للأمر ، فانفتح الباب بعد الطرقات الثلاث . دخل بمفرده . صدمه الضوء الخافت ، لا تكاد المرئيات تبين ، وتتضوع فى المكان رائحة الند والعود ونفحات المسك ..

أكدت له القهرمانة نجوى وتقارير أعوانه ، أن المرأة تترصد النجوم ، وتضرب بخت الرمل ، وتعرف النذر ، وتطالع الطوالع ، وتقرأ العلامات ، ربما استطاعت ـــ بمجرد النظر الى محدثها ـــ اعلامه بمستقبله . قيل انها أتقنت قراءة السحب والبرق وأوراق الشجر والعمل والنفخ فى العقد والرؤيا الصادقة واستحضار الأرواح ومخاطبة الأشباح وصنع التمائم والأحجبة والرقى والعزائم ، وانها اتقنت صناعة السحر : حفظت المتوارث من ابوابه ، مائة وسبعين بابا أو تزيد . أضعف باب منها انها تحيل الانسان قردا أو كلبا او حمارا . تقول : على بركة الله القدير ، فينتفض الواقف أمامها ، وتشمله رعشة ، ثم يبدأ فى التحول حتى يصبح على الهيئة التى تريدها . قد يبلغ سحرها فى منتهاه ، انها تحيل مدينة كاملة بناسها وبيوتها ودكاكينها ومرافقها الى مدينة من الجماد ، أو انها تزيلها من الوجود

تماما . قيل انها أفلحت ـ باستخدام القراءات والتعاويذ والسحر ـ فى السيطرة على الجان والحيوان والطير والحشرات والزواحف وبخار السحب ورطوبة الأرض واشعة الشمس وهبوب الرياح وخصوبة الزرع ، وابطال السحر ، وحل المعقود ومن طال سجنه ، واخراج العارض من الجسم اذا علق عليه ، والقضاء على القوى الخبيثة والأرواح الشريرة والمكائد والأمراض الخطيرة والافكار السوداء والكوابيس ، واجادة القراءة فى أذن المصروع ، أو تلجأ الى ضرب الجسد كى تخرج منه الروح الشريرة . زاد البعض فزعم ان المرأة استطاعت أن تبلغ من العلم ما يجعلها تسخر الأنس والجن والشياطين والبهائم ، فى قضاء ما تطلبه لنفسها ، ولمن يقصدونها . يخضع الجميع لتعاويذها وطلاسمها ، وأنها تتقن اللغة السيريانية ، وتجيد الحديث مع الجن ، ومشافهتهم ، واظهارهم لمن يكذبون قدرته ..

تناثر فى المكان قطع من المعدن والزجاج والعظام الآدمية . خمن انها تمائم تقدمها المرأة للمترددين عليها ..

ـ الشيخة صابحة ..

قالت فى تأدب :

ـ سيدى الوزير ..

بدا فى لهجتها اطمئنان . حدثها أعوانه عنه اذن . او انه عرف بأمر المرأة منذ زمان ، فلعله أمر بقتلها ، أو أودعها السجن . يوافق على السحر فى الحواديت ، لا يتصوره فى الحقيقة . عرفت عنه كراهيته للكاهنات والساحرات والعرافات وضاربات الودع والرمل ، يعتبر وسائلهن أحابيل ينبغى التصدى لها ..

امامها مجمرة فضية ، توقدت بالنيران الخافتة ، وتضوعت

منها رائحة البخــــور . اعتذرت المرأة بأنها لا تقوى على عمــل « الشبشبة » كى لا يقتل الملك آخر زوجاته ، يقبل عليها ، ويستولد منها البنين والبنات . قالت الشيخة ان « الشبشبة » تعجز عن النفاذ من غضب السلطان ، وتساءلت فى دهشه : من أصــــول الشبشبة أن أجرى طقوسها مع المرأة التى نفر منها زوجها فى جهة بعيدة عن الأعين ، بالتحديد : فى سفح جبل المقطم . فكيف أصحب شهرزاد الى تلك الناحية البعيدة ؟ كيف أغادر بها قصــــر الســــلطان ؟ ..

قبل أن تشعل الموقد أمامها ، شددت عليه ، فلا ســــؤال ولا كلام ، ولا حتى حركة . أضــــافت الى اللبان الدكر والكزبرة بالمجمرة ، قليلا من البخور الجاوى . ثم غمغمت بكلمات وأدعية ، لم يتبينها لانشغاله بالمتابعة ، أو لأن الكلمات مدغمة ..

اخذت طاسة معلقة على الجدار القريب منها . ملأتها ماء ساخنا من جنكة أمامها ، ورشت بها الهواء ، وقالت كلاما غير مفهوم وطلاســــم ، ورددت آيات من القرآن ، وتناثرت — فى حديثها — أسماء : الأنبياء والجن والملائكة والصحابة وأولياء الله والتابعين . بدت مشغولة تماما بما تفعله ، كأنها تعانى . انتقل شعورها الى عينى المتبولى ، فحل صمت سادر . تعالى صوتها : أقسم عليك بالاسم الأعظم ، والطلسم الأكرم ، والمنقوش على خاتم سليمان ، أن تحقق لعبد المنبى المتبولى ما يأمله ويتمناه ..

تعالت أصوات متبــــاينة ، متآلفة ، مزيج من هدير الرعد ووسوسة النخيل وهبوب الرياح ونباح الكلاب ومواء القطط وصهيل الجياد ونهيق الحمير وفحيح الأفاعى ونعيق البوم وزئير الأسود وتغريد الطيور وهديل الحمائم وجريان الماء وسقوط المطر وأنغام الموسيقا ..

قالت :

ـ سيكون خيرا باذن الله ..

سأل دون تدبر :

ـ ألن يقتل الملك شهرزاد ؟ ..

همست بتخابث معلن :

ـ تهمك ابنتك ..

وهو يحاول مداراة انفعاله :

ـ لهذا تهمنى حياة شهرزاد ..

قالت مهونة :

ـ سحر شهزاد عليه الآن يفوق كل شىء ..

أردفت فى تأكيد :

ـ انها تقيده بما ترويه من حكايات ..

الليلة التاسعة والأربعون بعد السبعمائة

فاجأت وقفة الرجال بين يدى الملك ، عبد النبى المتبولى . عرفهم لما تأمله بعينيه . كانوا — فى تقارير الأرصـــــاد — من أصحاب العمائم ، وأهل الحلم والحجا ، وأرباب النهى والثخانة فى الرأى والبعد عن الطيش ..

خلت التقارير من كل ما يحسب عليهم ، أو يعاقبون بسببه ..

قال شهريار :

— هل أتاك خبر هؤلاء ؟ ..

وأشار الى خادم فى القصر ..

علا صوت الخادم بكلمات فى أوراق ، تابعها المتبولى فى ذهول : كان الرجال يتجهون — عقب اجتماعهم فى جامع الحاكم بأمر الله — الى موضع آخر ، فى الخلاء ، اختاروه بعناية ، فلا تفطن اليه الأنظار . يخرجون ما بمخلاتهم من آلات الطرب ، وتعلو الأنغام الصاخبة ، ويختلط الرجال والنساء . فاذا أطفئت الســـــروج والنيران ، تناهضوا ، يثب كل رجل الى امرأة كيفما اتفق .. من عانق امرأة ، فهى حلال له بالاصطياد ، لأن الصيد مباح ..

قيل ان رئيسهم — ويعمل شيخا لطريقة صوفية — لم يغتسل من جنابة . رفض — كما قال — أن يغتسل من نطفة خلقه الله

منها . زاد ، فأنكر الجنة والنار والرسل ، وعمل كل المحرمات من قتل وزنا واتيان الذكور فى ادبارهم ، واستحل سائر المحرمات ، مما يؤكل أو يشرب ، مثل شرب الخمر وأكل الميتة . ولم ير وجوب الصـــلاة والصوم والزكاة والحج ، وعطل الشريعة ، واسقط التكاليف ..

لاح الغضب فى عينى الملك :

ـــ هل أتولى وظيفتك ، أو أعين من هو أجدر بها منك ؟ ..

قال المتبولى فى همس منفعل :

ـــ ما أتلقاه من معلومات ، ينفى ما سمعته ..

علا صوت شهريار بالغضب :

ـــ تهمل عملك .. وتكابر أيضا ! ..

واتجه الى الخادم بملامح ، تبدل لها وجهه :

ـــ خذوهم الى بقعة الدم ! ..

مضى الحراس بهم فى دهاليز طويلة ، ضيقة ، واقبية شديدة الظلمة .

***

فى الصباح ، سيق المشايخ راجلين ، مكشوفى الرءوس .. اقتيدوا بعمائمهم فى أعناقهم ، وقيدت أرجلهم بسلاسل من الحديد ، متصلة ، يحيط بهم جنود شاهرو السيوف ..

قطع الموكب شوارع القاهرة الى بقعة الدم . من خلفهم المشاعلى ، والمنادى يتقدم الموكب ، بنغم صوته بالهتاف : هذا جزاء من يخرج عن دين الاسلام ! ..

الليلة الثالثة والخمسون بعد السبعمائة

ثار الناس على الراوى فى حارة الجودرية ، عندما خاض فيما لا صلة له بقصص العرب ، وحكايات الأيام الغابرة . سرت شـــائعة بأن الملك بث الرجال العاملين فى خـــدمته . اخترع لهم ما يروونه من حكايات وقصص ، تحث على طاعة أولى الأمر ، وتهدفه الى توجيه الناس حسبما يريد ..

الليلة الثانية والستون بعد السبعمائة

يوم الركبة ..

صعد موكب الرؤية الى جبل المقطم . قاضى القضاة وكبار الموظفين والتجار والأعيان .. اعتلى القاضى دكة خشبية ، وراح يقلب نظره فى امتدادات السماء . تنبه الى صـــيحة واحد من المرافقين : هذا هو الهلال ! ..

نظر الى حيث أشار الرجل . لم يشهد شيئا ، وان اطمأن الى رؤية الهلال فى صياح الآخرين بأنهم شاهدوه ..

قال :

ـ ثبتت الرؤية ! ..

نزل من الدكة ، عائدا الى المدينة ، يسبقه صياح الصبية :

صيام صيام .. كما أمر قاضى الاسلام ..

أضيئت أنوار الشمع والمشاعل والفوانيس . تعالت الزغاريد والتكبيرات والأدعية وعبارات التهنئة ..

تبع موكب الملك وهو ذاهل حتى عن نفسه . خرج فى موكب عظيم . حوله الوزراء والأمراء وكبار الموظفين . يرتدى الجميع أجمل الثياب وأفخمها ، خلعها عليهم الملك فى المناسبة الكريمة ، والجياد عليها السروج المطعمة بالذهب ، والسيوف مشرعة فى

الأيدى لاظهار الفرحة لا للتخويف . تنضم الى الموكب فى سيره طوائف الحرفيين والتجار والباعة وفرق الموسيقى . يخترق الشارع الأعظم الى باب الفتوح . يميل الى الخلاء ، حتى باب النصر ، فيبدأ الموكب طريق العودة الى قلعة الجبل ..

وزع الخدم اطباق الحلوى على الفقـــراء ، ووزعوا على الوجهاء والتجار ، صرر المال والذهب . وامتدت الأسمطة فى ساحات القلعة ، وفى الساحات الرئيسية بالمدينة ..

تناهى اليه ــ وهو يطلب النوم ــ صوت المسحراتى بالتذكير الأول ، يرافقه ايقاع الطبلة : أيها النوام ، قوموا للفلاح ، واذكروا الله الذى أجرى الرياح ، ان جيش الليل قد ولى وراح ، وتدانى عسكر الصبح ولاح ، اشربوا عجلى فقد جاء الصباح ..

قال المتبولى :

ــ هذه أقسى أيامنا ..

ثم وهو يخلى لنفسه موضعا فى الأريكة :

ــ أبطل حرسه مؤامرة تسلل رءوسها الى القصر ، وكادوا يصلون الى قاعة الحكم ..

وألقى العباءة جانبه :

ــ مع أن حرسه هم الذين كشـــفوا المتآمرين ، فقد واجه الحراس تهمة التقصير ، وعمل مسرور كما لم يعمل منذ شهور ..

رفعت رقية راحتيها ، كمن تصد خطرا :

ــ وما ذنبنا نحن ؟ ..

تقوس حاجباه لعدم فهمها :

ـــ نحن تحت رحمـــــة مزاج الملك .. قد يرفض حواديته شهرزاد ، فيقتلها ، ثم يتلوها بالأخريات ..

لم يكن قد أتاه النوم فى التذكير الثانى : تسحروا رضى الله عنكم . كلوا غفر الله لكم . كلوا من الطيبات ، واعملوا صالحات . كلوا من رزق ربكم ، واشكروا له ..

قال للمرأة المتكومة على نفسها ، أمامه :

ـــ لماذا اختصرت حكايتك ؟ ..

قال عيسى الطحاوى :

ـــ تشفق المرأة على وقتكم ..

وهو يحاول مداراة لهفته :

ـــ قولى الحكاية بتفصيلاتها ، فلا تفلتى شيئا ! ..

لم يعد يضيق بروايات أصحاب الدعاوى والمتهمين والشهود ، برواياتهم فى القضايا التى يحكم فيها . اهمل قوله ، حين يطيل الواقف أمامه : اختصر يا رجل ! .. أو : اختصرى يا امرأة ! .. يتابع بعناية ، فلا تفلت منه حادثة ، ربما افادته فى نسج حكاية يرويها لزهرة الصباح . يأخذ حكاية الراوى ، فيضيف اليها من حكايات مجلس القضاء . قد تتأثر أحكامه بطرافة الحكاية ، كما يرويها الماثلون أمام عدالته ..

لم يعد يكتفى بالجلوس الى الرواة الهلالية ولا الزغبية ولا الزناتية ، ورواة السيرة الظاهرية والعناترة . كان يحرص على ســـــماع الحكايات المؤلفة أو المنقولة . لا تقتصـــــر على الراحلين ممن توارث الرواة أخبارهم ، ولا على حكايات البطولة وقصص المحبين . انما هى تســـــوح فى الأرض ، وترقى فى

السماء ، وتسبح فى البحار ، وترتاد آفاقا لا نهائية من السحر والأعاجيب ، وتقدم ما لا حصر له من العظات والعبر ، يحفظها ، ويضيفها الى رصيد أيام سابقة ، ويعيد روايتها على زهرة الصباح ، ربما حذف منها ، أو أضاف اليها . يعفى أذنها من سماع ما لا يليق . حتى كتاب الدست ، من يقرءون القصص والشكاوى على الملك ، لجأ الى ما بحوزتهم ، فقراه ، أو استمع اليه ..قد يفيده فى نسج حكايات جديدة ، يضيف اليها من خياله ..

ظل على صحوه عندما علا صوت المسحراتى بالتذكير الثالث : يا مدبر الليالى والأيام . يا خالق النور والظلام . يا ملجأ الانام . يا ذا الجود والكرم . رحم الله عبدا ذكره ..

مع استمتاعه بما ينشده المداحون فى مدائح الأنبياء والأولياء ، فان حضوره اقتصر على مجالس الحكائين والرواة . أوعز الى رجاله ، فصارت الحكايات مقدمة على بقية الفقرات . يسبق شاعر الربابة رقصات العوالم والمغنين والمنشدين والعاب خيال الظل والمهرجين . يطيل الراوى بقدر ما يسعفه الخيال ، وتواتيه الحكايات . يهمل صيحات الجالسين بفقرة تالية . يلبى اوامر الجالسين فى المقدمة ، من أعوان عبد النبى المتبولى .

ألزم الشعراء بعدم التخصيص ، فلا يكتفى شاعرة برواية سيرة عنترة ، وآخر برواية حكاية الأميرة ذات الهمة ، وثالث يروى السيرة الهلالية . السيرة التى يتخصص فيها الشاعر ، يسبقها ، ويتبعها ، بحكايات أخرى من موروث القدامى ، ومن ابتكاره . أضاف الى تردده على أماكن الرواة ، قراءات فى مؤلفات الأسمار والخرافات والحكايات القديمة . كثر تردد

وظفيه على ســـــوق الوراقين ، واستعاروا من المكتبات الخاصة للعلماء والأدباء . وضـــعوا بين يديه مالا حصر له من المخطوطات خلا اليها . قلب صفحاتها . توقف عند كل مالفت انتباهه ، فقراه بتمهل ، واستوعبه . أعاد روايته بتصرف ، لا يجاوز السياق ..

امتلأ ذهنه بما لا يحصى من وقائع التاريخ والحكايات والنوادر والطرائف والعبر . يتناقل أكثرها الرواة والقصاصون ، فهى تكاد لا تتغير الا فيما يبتدعه ذهن رائق . يشغله الذاكرة والحفظ ، فلا تفوته جملة ولا كلمة ، ولا معنى قد تضمره الحكاية ..

كان الصحو يغالبه ، ويطرد النوم ، حين تعالى صـــوت المسحراتى بالتذكير الرابع : اشربوا وعجلوا ، فقد قرب الصباح . الدعاء فى الأسحار مستجاب . أذكروا الله فى القعود والقيام ، وارغبوا الى الله تعالى بالدعاء والثناء ..

الليلة الخامسة والثمانون بعد السبعمائة

لما قاطعها شهريار ، وهى تروى حكاية حسن البصرى ، وسأل : لماذا شردت فجأة ، اختلجت عيناها وشفتاها ، وتحركت يداها بعصبية ، وظلت صامتة . أدركت أنها تحيا فى القصر المسحور الذى تروى عنه . تمنت لو أن طائر الرخ حملها ، مثلما حمل حسن البصرى . لا تدرى الى اين ؟ . هى التى عرضت على أبيها أن يزوجها الملك . لكن الخوف التصق بجسمها ، لا يتركها حتى فى النوم . تطمئن الى أسئلته واهتمامه واشفاقه وحنوه . حين يواجهها بما يقلقه أو يثيره ، ينحسر كل شىء ، يبدو الخوف ماردا ، يوشك أن يحطم الباب المحظور ، ويبتلعها . تمنت لو أن البداية لم تكن ، ولظلت فى بيت أبيها ، أو انتقلت الى بيت رجل ، يغيب فيه التوقع بوجود السياف ..

الليلة السابعة والثمانون بعد السبعمائة

نبه عبد النبى المتبولى الى بذاءة أفعال الخلبوص ، المصاحبة لرقص الغازية . أمر بالغاء الفقرة ، ومحاسبة الرجل على سوء أفعاله . رفض الادعاء بأن ذلك ما ألفه الناس من القديم ..

الليلة الواحدة والتسعون بعد السبعمائة

ومضت فى ذهن شهريار ـ والمراة تروى حكاية مسرور التاجر مع معشوقته زين المواصف ـ قول عشيقة الجنى له ، ولأخيه شاه زمان : ان المراة منا اذا ارادت أمرا ، لم يغلبها احد ..

قال فى نبرة متسائلة :

ـ أما كانت المراة فى قصة الصياد والعفريت تضع كل يوم مخدرا فى شراب زوجها الحاكم ، وتغادر قصرها المنيف الى لقاء مع عبد بشع الخلقة . فلما كشف الزوج امرها ، سحرته ، وسحرت رعاياه ؟! ..

وعلا صوته المتسائل :

ـ ألم تراود محظية الملك ، فى قصة الوزراء السبعة ، ابن الملك عن نفسه . فلما صدها ، اتهمته بانه راودها عن نفسها .. وقتل الملك ولده الوحيد ؟! ..

قاطعته شهرزاد فى تأدب وخوف :

ـ لكن مولاى امتدح الجارية تودد ، عندما هزمت أعاظم الرجال ..

وهمست :

ـ أذكر مولاى بأن واحدة من حكاياتنا السالفة ، أكدت أن الظن بأن النساء كلهن سواء ، هو داء جنون ليس له دواء ..

أضافت كالمتذكرة :

ــ واستأذن فى أن أذكر مولاى بالمرأة الحسناء زوجة البدوى المفتقر . رفضت الزواج من الخليفة معاوية ، واعلنت حرصها على زوجها ، وقالت : ما انا بخاذلته لحادثة الزمان ، ولا بغدرات الأيام ، وان له صحبة قديمة لا تنسى ، ومحبة لا تبلى . وأنا أحق من صبر معه فى ضراء كما تنعمت معه فى السراء ..

أغمضت عينيها لحظات ، وأردفت :

ــ أذكر مولاى أيضــا ، بصفية بنت ملك القســطنطينية ، وابريزة بنت ملك قيسارية ، ونزهة الزمان بنت صفية وعمر النعمان، وقضى مكان بنت نزهة الزمان .. وغيرهن كثيرات ! ..

الليلة الخامسة والتسعون بعد السبعمائة

« حمدا لمن جعل سير الأولين عبرة للآخرين . أما بعد ، فهذه سيرة بنى هلال ، التى تشتاق لقراءتها الكبار والصـــغار على الأجيال . قال الراوى » ..

قالت زهرة الصباح :

ــ أخشى أنك تفعل مثلما فعل الرجل فى حكاية الأحدب ..

قال سعد الداخلى :

ــ وماذا فعل ؟ ..

وهى تسوى شعرها خلف أذنها :

ــ ترك بضاعته ليبيعها له الآخرون .. ونعم بالاقامة فى خان مسرور ، حتى فاجأته نهاية ، أستعيذ بالله عليك منها ..
اختلج شـــاربه :

ــ مات ؟! ..

هتفت :

ــ أبقاك الله لى ..

شاب صوته انفعال :

ــ ماذا جرى له اذن ؟! ..

أدركت ــ حالا ــ أنها لم تحسن اختيار الحكاية :

ــ أبعد الله الشر عنك .. قطع الجلاد يده ..

أردفت مهونة :

ــ هذه حكاية مما روتها شهرزاد ..

تشاغل بالنظر فيما حوله .. المناضد الفضية ، والنحاسية ، وصناديق القرآن ، والمصابيح ، والشمعدانات ، والأوانى ، والمباخر ، والزجاج المزخرف ، الملون ، وستائر النوافذ المكللة بالذهب ..

ــ هل مازال أبوك ينقلها لك ؟! ..

وهى تغالب حيرتها :

ــ وينقل لى حكايات أخرى كثيرة .. لشهرزاد وغيرها .

قال لشرود عينيها :

ــ أتصورك أول وأجمل امرأة تجلسين مكان الراوى داخل السوق .. وتحكين كل ما رواه لك أبوك ..

الليلة السادسة والتسعون بعد السبعمائة

قال راوى سيرة الأميرة ذات الهمة :

« وأما ما كان من أمر هشام ابن الخليفة ، فانه لما أخذ قتالة الشجعان ، أقام معها مقدار شهرين وهو يراودها عن نفسها ، وهى تمانعه ، وتأبى ذلك . وكلما تقرب اليها ، نفرت منه . وكلما تبسم فى وجهها ، عبست ، وقطبت ، وأخذت تسبه وتشتمه ، وتنهره ، ولا تدنو منه ولا تقربه . فاغتاظ منها غيظا عظيما . ولما طال عليه الأمر ، وخاف من انحطاط قدره بين البشر ، اذا ذاع عنه الخبر ، اغتاظ منها ، وقتلها ، ولفها فى ثيابها ، وأخرجها فى دهليز القصر ، وأمر الجوارى أن يدفنها فى الليل » .

الليلة الثامنة والتسعون بعد السبعمائة

فاجأ شهريار عماله بآخر مراسيمه . قرأه الحاجب عليهم ، قبل أن ينهض ، فتنفض الجلسة ..

فى حكايات الرواة ، الحكاية للمتعة والتسلية والعظة . اذا وضعها الناس فى غير ذلك الاطار ، وجب تنبيههم ، والتشديد عليهم ، فلا يسيئون الفهم أو التصرف . ربما شوشروا على الراوى . يعطى حسابا للآراء المعارضة ، فيبدل ويحور ، ويخرج بالحكاية عن مسارها . يختلق أحداثا لم ترد فى الحكاية الأصلية . أفسد القصاص قلوب العوام . لا يتحرون الصواب فيما يقصون . يسقطون الوقائع الصحيحة والأقوال المسندة ، يشغلهم فحسب اضحاك الناس ، أو اسالة العبرات من عيونهم ، أو جلب رضاهم ليحصلوا على ما يملكون من أموال . ربما حملوا معهم حكايات مكذوبة ، يلقونها فى الأسواق ، فيتأثر بها الناس ، ينقل الناس الحكايات الى أنديتهم ومجالسهم ، يزيدون فيها بالتهويل والاختلاق والاغراق ، يضمنونها ما يشغلهم التعبير عنه ، أو التنفيس عما بداخل نفوسهم ازاءه ، أو يشبع شهواتهم فى النيل من أفاضل القوم ..

قال شهريار وهو يترك مجلسه فى طريقه الى داخل القصور :

ـــ أقارن بين ما تروينه لى وما يصلنى من تقارير عما يرويه

القصاص فى المساجد والطرقات .. يتكشف لى الفارق بين ما يجب أن ينصت اليه الناس ، وما يجب أن يجتث كالشر ! ..

أضاف فى استياء :

ـ لماذا لا يروى القصاص للناس أمثال هذه الحكايات ، بدلا من الحكايات التى تستهدف الفتن ؟ ..

وقال :

ـ ان آفة الأخبار هم بالفعل رواتها ..

غاظه ان الرواة يستجيبون الى ما يطلبه الناس . يهبونهم ما يحيا داخل نفوسهم من انفعالات ، يرضونهم بالمكذوب ، والبعيد عن الحقيقة ، يخترعون الأحداث ، ويحركونها لا كما جرت ، ولكن كما يحب الناس أن تجرى ..

حذر ـ بما يأتيه من تقارير ـ من مزج القصاص بكلامهم ، كذبهم فيما يروون من أخبار ، ابتداعهم ما يجوز ومالا يجوز ..

شدد ، فلا يعمل كراو الا من ورث المهنة عن أبيه ، فجده . احترف الرواية العوام والجهلة . اتخذوها وسيلة للتكسب ، اداة لتضليل الناس وخداعهم ، حشو أدمغتهم بما يصعب قبوله . أوحى اليهم خيالهم بما أفاضوا فيه من غرائب الحكايات والوقائع ، بعضها قد يصح قبوله ، وبعضها الآخر قد يصعب استساغته ..

الليلة الثالثـة بعد الثمانمائة

قال الراوى :

أنا الفايدة من صـــلاتى على النبى

نبى عربى بـسـيد ولد عــدنان

لولا النبى لم كان شـــمس ولا قمر

ولا كوكب يضــــوى على الوديان

اهيى على امـــرا ما فاتوا نزيلهم

ماتوا وعاشوا..ماقالوا الزمان تعبان

اهيى على امرا كانوا معدن النســب

اهيى على امــرا وأقول قصـــدان

ولا كل من قال : يا فلان انت صاحبى

الســن يضــحك .. والقليب ملآن

دنيـــا غرورة لا امـــان لهـــا

تقلــب تقلــب كمـــا الـــدولاب

تفوت على الأخين .. تاخد خيارهم

ما تخلى الا الخـــايب النـــدمان

دنيـــا دنيـــة توطى عـــزيز

القـــوم .. وترفـــع ندالهـــا

وتفوت على البطلان تاخد عصـــاته

وتخليـــه كمـــان داير حـــيران

كدب من قـــال الدنيـــا تدوم لى

صـــدق ومن قال الزمـــان غدار

يامـــا ناس كانت من الأرزاق وحايزه

وســـاعة ما ماتت ما طالت الدفان

الليلة الثامنـة بعد الثمانمائة

حين علت الضربات على باب القصر الخارجي ، مد رأسه من المشربية المطلة على الباحة بلهفة الذى يتوقع الطارق . أعد للأمر بما يلغى احتمالات الفشل ، وان وضع حسابا ــ كما علمته حياته ــ لكل الاحتمالات فى النهاية . خفق قلبه لما تبين وجه قائد الحرس عيسى الطحاوى ،وتبين صــــوته ، وان بدت الكلمات سريعة ، مدغمة . أيقن أن ما أجاد نسجه قد تمزق فى مواضع غير واضحة ..

خطف السلالم حافى القدمين . الباب يفضى الى مدخل ثان ، فلا تبدو القاعة التحتية للواقف فى الطريق ..

واجه الرجل بعينين متسائلتين :

ــ أنطق يا طحاوى .. ماذا لديك ؟ ..

قال الطحاوى من بين لهاث أنفاسه :

ــ مؤامرة ! ..

علا صوته كمن يخفى ارتفاع دقات قلبه :

ــ مـــــاذا ؟ ..

قال الطحاوى فى تأكيد :

ــ مؤامرة ضد مولانا الملك ..

تحدث الرجل عن الاشخاص والأحداث على النحو الذى اجهد نفسه فى اختياره والاعداد له . الرجال من بركة الرطلى . انتقاهم مزوز ، وتحدث عن الكثير الذى قاموا به من حوادث السطو وقطع الطريق والسـرقة . روى لهم الخطوات واحدة ، واحدة ، فبدوا فاهمين . أعطاهم المقابل قبل أن يغادر المكان ، لم يفته أن يقسموا على المصحف — بين يديه — بعدم الوشاية ..

تظاهر المتبولى بالتصديق ، وان تيقن انهم اخوان الأرض الفضاء ، المجاورة لمسجد السيدة فاطمة النبوية ..

لم يخف المتبولى لهفته :

— هل ابلغتم الملك ؟ ..

وهو يهز رأسه :

— لم نشأ ايقاظه ..

قال فى لهفته :

— من ابلغتم سواى ؟ ..

قال الطحاوى :

— لا أحـد ! ..

خفت صوته ، فبدا كالهمس :

— وأين هم الآن ؟ ..

— فى السـرداب ..

وهو يدفعه بيد مرتعشـة :

— اقتلوهم حيث هم ! ..

توقف الطحاوى فى مكانه :

ـ ولكن ..

دهمه خـــوف :

ـ مــــاذا ؟ ..

قال الطحاوى :

ـ من بينهم عزوز الكاتب بقصر الملك ..

أردف للارتباك فى ملامحه :

ـ لقد طلب مقابلتك ..

قال المتبولى :

ـ هل قال شيئا آخر ؟ ..

عاود الطحاوى هز رأسه :

ـ لا ! ..

وهو يعيد اغلاق الباب :

ـ اقتلوهم فى أماكنهم ! ..

صحا سعد الداخلى وزهرة الصباح على صوت الضربات . لم تكن ساعة استقبال القصر لأحد ، فداهمهما قلق . اعمل سعد تفكيره للحظات ، قفز بعدها من فراشـــــه ، واتجه الى النافذة القريبة . غاص فى ستائرها ، فلم يحاول ازاحتها . من هذا ؟ .. لماذا يقيم فى جناح زهرة الصباح ؟ .. يعترف الأب بما حرص على مداراته . يطيح مسرور برءوس الجميع . أذهله الخوف عن نفسه فنزل بالحبل الى الحديقة . تفادى الوقوع فى بالوعة على الجانب لتصريف مياه الرى ، واحتمى بالأشجار الكثيفة حتى وصل البيت ، فى الناحية المقابلة .

الليلة العاشرة بعد الثمانمائة

قال الراوى :

« قال عنترة : فما حملنى على هذا السبب الا الهوى » ..

الليلة الثانية عشرة بعد الثمانمائة

لما أنبأها سعد باعتزامه السـفر ، لم تسأله عن بواعث الرحلة المفاجئة ، ولا مقصدها ، ولا حاولت مناقشته . بدا لها خائفا ـ عقب ليلة اكتشاف المؤامرة ـ وان أظهر غير ذلك .. الخوف فى كلماته وتصرفاته ونظراته القلقة ومداعباته المتوترة . أحبته أكثر . أحست أنه قريب منها كما لم يكن فى يوم من الأيام . زاد من حبه لها اعترافه بأن أباه هو الذى دفعه للسفر . صارحه الشاب بسر فراره من قصر المتبولى الى بيته ..

سافر فى رحلة الى الهند كان قد اعتذر عنها . قال المعلم الداخلى الملوانى :

ـ نصيحتى أن تغيب لأيام حتى تهدأ الأحوال ..

وأردف فى تأكيد :

ـ رحلة الهند فرصة لا تفلتها ، ولابد أن امرأتك ستعى الأمر جيـدا ..

قال سعد لزهرة الصباح وهو يدارى تأثره :

ـ لو أن شهرزاد دلتنى على موضع بساط الريح ، فلن تأخذ منى الرحلة أكثر من يوم وليلة ..

وتأمل الفراغ أمامه :

ــ آه لو أنها أعارتنى حصان حكاياتها الطائر ! ..

قالت زهرة الصباح :

ــ لا أحب أن تفارقنى ، ولو لحظة ! ..

وهو يضغط ــ باشفاق ــ على راحتها :

ــ أثق أن أباك يسليك عنى بما يرويه من حكايات شهرزاد وسير الرواة ! ..

تنهدت :

ــ أبى ! .. يبدو أنى أنا الذى سأجلس اليه ؛ وأروى له الحكايات والسير ، حتى أسرى عنه ! ..

الليلة الخامسة عشر بعد الثمانمائة

قال الراوى :

« ثم تأمل اليه عثمان ، وبكى ، فنزلت دموعه على خدوده . وقد تعجب معروف من فعله هذا . وقال عثمان : يا خال معروف ، الله يفرح ذاتك ، ويلطف بك فى القضاء والقدر ، ويساعفك الله على ما كتبته على جبينك وسطر بالقلم .. ووالداه يا خال معروف . والله انت خسارة فى ذلك . ولكن ما بيدنا حيلة يا خال معروف » ..

وروى القاص عن « اخميم » انه قال لسيف بن ذى يزن ، أن ما فعله اثم كبير ، ولابد ان يدفع ثمنه ، وانه ــ اخميم ــ لا قدرة له على مساعدته .

وقالت رقية :

ــ المرأة المسكينة لا يجف لها دمع منذ اعدام الشاب ..

ومضت عينا المتبولى بشرر :

ــ اخبروها اذن انى لن اكتفى ــ اذا تكلمت ــ بقطع لسانها وانما سأقطع جسمها كله ..

استطرد وهو يهز سبابته :

ــ لو أن شهريار شك فى نيتى ، فلن يتيح لى أمر الدفاع عن نفسى ..

قتل الحزن المرأة لاعدام الشاب ، بقدر ذهولها لتخلى زوجها عنه . كانت تعلم انه هو الذى دفعه الى فعل ما فعل . وعده بهدايا ونقود ومستقبل باسم ، وحلفه باسم الله العظيم ، واستوثق منه بالايمان والعهود ..

اندفع الشاب ، بتأثير الجميل الذى طوق به المتبولى عنقه ، لما عينه فى قصر الملك . قال : حتى لو انكشف التدبير — لا قدر الله — فان أمك فى رعايتى ! ..

— أعترف أنى اذا قتلت الملك ، فلظلمه ! ..

اعترف الشاب بأنه قد ارتكب ما وجه اليه من اتهام ، وانه فعل ما فعل بغواية من الشيطان ، فعوقب بالموت جزاء ما ارتكب . مع ان غضب الملك بدا لتوالى حلقات التآمر ، ولبس لشكه فيه . فان أمره بقتل الشاب مع المتآمرين اجتث الحكاية من أصولها ، واجه حتى الدلالة حمدونة بما اقترفه ابنها ، وحظر دخولها قصره .. تحدث لزوجه ولزهرة الصباح عن الشاب باعتباره متآمرا . كتم الحكاية الحقيقية حتى عن نفسه . فهو قد عين الشــــاب رحمة بتوسلات أمه ، ولم يكن يعرف عن طبيعته المجرمة ، ولا ميله الى التآمر . تجاهل شك رقية ، وربما يقينها ، انه هو المحرض لما كان ينتويه الشـــــاب . مع ذلك ، أصــــبحت حياته كابوسا ، أو أشد .. ترين الظلمة المتكاثفة ، فلا يدرى متى يتبدل الحال .. بدا حاد المزاج ، فلا أحد من أهل البيت يتوقع اجابة مســـــتفيضة على ما يوجهه اليه من أسئلة ، أو أن يبادله الحديث ..

أدرك أن الجو أظلم بينه وبين شهريار . لم تكن الوقائع ملموسة ، ولا هو أمسك عليه شيئا ، لكنه أحس بتغير نفس الملك . يوجه النظرات والكلمات الى المحيطين به . لا يخصه بنظرة ولا كلام ،

كانه ليس فى حضـــــرته ، كأنه ليس كاتب الســــر الذى أوكل اليه الملك شـــئون البلاد ، يقضى ويفصل ، ويتلقى المراســلات ، ويرد عليها ، ويستقبل الوفود ،و يعين الولاة والعمال ، ويصدر القوانين الملزمة .

بدت الدهشة بينه وبين الملك ظاهرة لا تخطئها عيناه ، وربما لا تخطئها أعين العاملين فى القصر . جعل عليه العيون ، وحد من سلطته ، فأصبح فى حجم منصبه ، ولم يعد يأذن له بالدخول كلما وقف على بابه . وقد يلزمه الحاجب مكانه بالساعات ، قبل أن يتيح له المثول بين يدى الملك ..

لاحظ جفاء الملك عليه ، ومضايقته له فى أوامره ونواهيه . واجهت قراراته تعثرا وبطئـــــا فى التنفيذ ، وأخبره عماله بأن القرارات التى لم تنفذ ، ألغاها الملك نفسه . لم يحاول السؤال ولا البحث أو التقصى . خشى أن يجد الملك فى ذلك ما يستزيد ريبته ، أو يفسره بأنه انتقاص لمشيئته . فوت الأمر كأنه لم يصدر قراره ..

عاب عليه شهريار انه تعدى — فى احكامه وتصرفاته — حدود الملك التى خوله اياها . لم يعد ينفذ حكما ، ولا يعدل شاهدا ، ولا يقلد نائبا ، الا بعد مطالعة الوزير دندان ، والوزير يطالع الملك ، لا يتصرف من تلقاء نفســـــه ، ولا يتخذ قرارا الا بموافقة عليا . غلبه التحرز . توقع أن يخبىء له الســـــلطان من يترصد له داخل القصر أو خارجه ، ويغتاله . كان يدخل الى الملك وهو يتوقع فى كل مرة أن يســــمع ما يكره . يتســــاءل : هل داخلته — الملك — الريبة فى تصرفاته ؟ .. هل ولت أيام الثقة المطلقة ؟ . وكان يبالغ فى الخدمة واظهار الطاعة ، والحرص على عدم الاخلال فى قول أو فعل . ويتلفت حوله ، حتى يغادر القصر ، والقلعة كلهـــا ..

اعتزم الخروج من منصبه . شغلته الوسيلة التى يغادر بها قلعة الجبل دون أن يناله أذى . يمتد ، فينال من أسرته واللصيقين به . تقدمت بي السن ، فأنا فى حاجة الى الراحة . لكن شهريار أكبر منك سنا ، وربما فسر الكلمات بغير ما تقصده . هل يأذن لى مولاى فى أجازة طويلة الى بلدتى ، فهو سيتأكد مما قد يكون بداخله من وساوس ..

أظهر القهرمانة نجوى على ما فى قلبه ، وأبان لها همه وما يشغله . طالبها أن تعبئه فى التعرف — من أقوال شهريار وتصرفاته — على ما يدور فى باله ، ويعد له ..

تساءل فى يأس : لم لا تغيب الشمس ، فلا تشرق ثانية ؟ .. ولم لا تنتهى الحياة فى هذا العالم ، فلا ملك ولا وزير ولا شهرزاد ، ولا حتى زهرة الصباح ؟ . يبتلع العدم كل انسان ، وكل شىء . يبتلعه هو نفسه . فى العدم لا خوف ، ولا حسرة على أنفسنا ، أو المقربين الينا ؟! ..

الليلة الثامنة عشرة بعد الثمانمائة

قال عبد النبى المتبولى :

ـــ ليتنى أمتلك جراب الحيلة ، الذى كان لأبى زيد الهلالى . ما أواجهه من ورطات يفوق قدرتى على التدبير ! ..

أدرك أنه يشكو لزهرة الصباح ـــ للمرة الأولى ـــ ما يعانيه . الزناتى لم يشك فى حياته الا مرة ، لابنته ، عندما أيقن أن عرش تونس سينتهى الى بنى هلال ..

راعه هدوء أحياء المدينة ، والليل فى أوله . خلت معظم الاحياء ، فلا ناس يسيرون فى الطرقات ، أو يطلون من المشربيات والنوافذ ، ولا أصوات باعة ، أو وقع دواب ، أو خرخشة حيوان فى كومات القمامة ، كأنها أخليت من أهلها ، أو أنهم جلوا عنها ..

هل أوشكت النهاية أن تبين عن ملامحها القاسية ؟! ..

الليلة الثالثة والعشرون بعد الثمانمائة

لم يدر فى بال عبد النبى المتبولى انه سـيعود الى بيت الساحرة صابحة . يقف بين يديها وبخورها وطلاسـمها وكلماتها المحيرة .. لكن الخوف من تغير نفس الملك سبق خطواته الى بيت المرأة . لم يصحبه جنود ، ولابث فى الطريق أرصاد . اختـار الليل رداء ، فلا يفطن اليه أحد ..

اصغت المرأة ـ بعد زوال الدهشـة ـ اليه ، فروى ما يعانيه .

خلعت من خنصرها خاتما فضيا ، له فص من الكهرمان ..

قالت وهى تعرضه أمام عينيه :

ـ هذا الخاتم لرد بعض جمائلك ..

قال المتبولى :

ـ وماذا أفعل به ؟ ..

فى لهجة محرضة :

ـ ضعه فى اصبعك ، وادخل به على الملك ..

اضافت موضحة :

ــ انه يوضع فى اصبع الميت عند دخوله الى القبر فيأمن من عذابه .. واذا حمله من يدخل على الملوك ، وقاه الله أذاهم ..

غالب تردده ، عندما استأذن ــ فى مساء اليوم نفسه ــ فى الدخول على الملك . فوجىء بأن الملك لم يهمله ، مثلما تكرر فى مرات سابقة . رحب به ، وأجلسه ــ كالأيام الخوالى ــ الى جانبه ..

هل أذاب الخاتم ما بداخل نفس الملك من تغير ؟! ..

الليلة الثامنة والعشرون بعد الثمانمائة

قال الراوى فى أرض اللوق .

« وكان فى ذلك الزمان ، ذلك العصر والاوان ، الانس يصحبون الجان ، والجن يصحبون الأنس ، ويتحدثون معهم ، ولا يفزعون منهم ، ولا يمنعون بعضهم عن بعض ، ويظهرون على وجه الأرض الى زمن ظهور سيد الملاح ورسول الملك العلام ، الذى ظهر من بين زمزم والمقام . وأبطل السحر والكهانة ببركة الشفيع فى العصاة يوم القيامة ، محمد صلى الله عليه وسلم » ..

وقال الراوى فى ميدان قناطر السباع ، عن الحكيمة عاقلة فى قصة سيف بن ذى يزن ، انها ساحرة ماهرة ماكرة ، تستخدم الأعوان ، وتفتح الكنوز ، وتبطل الأرصاد ، وتفك الطلاسم ، وتعرف الطيران فى الهواء ، وتصطنع الأكسير ، وتكشف الضمير ، وتقلب الصور ،ولا يبزها فى ذلك أحد . لذا سماها الملك سيف أم الحكماء ..

اذن عبد النبى المتبولى بأن يواصل روايته . علا صوت الراوى ثانية ، بعد أن خفت الى حد التلاشى . ساوى المتبولى بين حكايات السحرة وانعال الخلبوص . شدد على الاكتفاء بالحكايات المسلية . وحظر حكايات السحر والسحرة ، ربما تسللت فيها الايماءات ، فتتغير نفس شهريار ثانية ..

الليلة الثانية والثلاثون بعد الثمانمائة

ما كاد شهريار يصحو فى الضحى ، ويتأكد مما رآه ، حتى أطلق صيحات تمازج فيها الخوف والغضب ..

بدا الخنجر المغروس فى وسادته ، تأكيدا باقتحام الخطر داخل قصره ، وجناح نومه ..

لم يكن أمن القصور الداخلية من عمل عبد النبى المتبولى ، ولا كان مأذونا له بدخولها . ولم يكن المتبولى يعرف المسئول عن ذلك . ثمة العشرات من الموظفين ، يختارهم شهريار ، يوزعهم داخل قلعة الجبل ، وفى القصـــور الجـــوانية . غالبيتهم من الطواشين ، فيتاح لهم دخول أجنحة الحريم ..

حظر شهريار الدخول الى قلعة الجبل ، والخروج منها . اغلق الجنود ابواب القلعة . فتشوا القصور والمخازن والأسطبلات والاهراءات . حتى الأسواق والحدائق مسحتها الأعين المدققة . عمليات التثبت من الهوية شـــملت الجميع . لم يجاوزها الوزراء والأمراء وقادة الجند . حتى القهرمانة نجوى والسياف مسرور ، واجها سؤال الملك : هل دخلا جناح الملك الليلة الفائتة ، أو شاهدا من يتسلل الى الجناح فى الليل ..

امضى يومه فى السؤال . لجأ الى فراسته فى التفرقة بين الصدق والكذب ، بين الرواية الصحيحة والمختلقة ..

حين ادركه اليأس — فى غياب النهار — من معرفة الفاعل ، امر شهريار بتحديد الخدم والجوارى الذين يؤذن لهم بدخول جناح نومه . يواجهون التفتيش الدقيق قبل أن يطأوا عتبة الجناح ، يخلعون ثيابهم تماما ، يقلبها الحراس ، ويعيدونها . يرتديهـــا اصحابها فى الموضع نفسه ، قبل أن يؤذن لهم بالدخول ..

قال الملك لنظرات الحيرة فى عينى نجوى :

— سألتك حتى لا أستثنى أحدا .. لكننى أثق بك ..

اردف وهو يومىء خلف مجلسه :

— واثق أيضا فى هذا الواقف بسيفه وراء مجلسى ! ..

ولما بدأت شهرزاد حديثها بالقول : بلغنى أيها الملك السعيد . قاطعها فى غضب :

— اية سعادة وانا لا اطمئن الى الرقاد فى قصرى ؟! ..

واستطرد فى غضبه :

— ارو لى حكايات عن غدر الخدم ، وانقلابهم على اولياء نعمتهم .

الليلة السادسة والثلاثون بعد الثمانمائة

قال الراوى :

« أقول بعد حمد الله ، والصلاة والسلام على رسله وأنبيائه . هذه سيرة الكرار والبطل المغوار ، الذى شاع فى الأقطار ، وأذل بسيطة كل صنديد وجبار ، المهلهل بن ربيعة » ..

وتمردت عفيرة بنت سيد جديس على الملك عمليق ، لأنه اقسم انه لا تهدى عروس فى جديس لبعلها ، حتى يكون هو الذى يبدأ بها قبل زوجها ..

وقالت عزيزة ليونس :

أبويا بنالى قصـــــر وسط البحور حجرات

وان كنت رتس قــــرارى يـــا يــــونس

حاســــب من مركبك لتلطم الحجـــرات

وان كان مش عاجبك نوم الفراش يا يونس

تعال نام على الحجرات ..

وقاتل الملك سيف بن ذى يزن الانسان والجان ، من أجل حبيبته وزوجته منية النفوس ..

وأدرك كليب وجليلة أن حياتهما هى الثمن ، لو فشل ما أعداه من خطة ..

وقال الملك سيف لحبيبته : نحن قوم عرب . اذا وعدنا وفينا ، واذا قدرنا عفونا ، واذا قلنا : نعم ، لا نقول لا . واذا قلنا : لا ، لا نقول نعم ..

وتحدث الرواة عما فعله بنو هلال ، عندما اشـــــتدت بهم الأزمة . أرادوا أن يزيلوا الجرح فى قلب أبى زيد . استمعوا الى نصيحة الأمير حازم . ذهبوا مائة رجل ومائة فتاة ، حفاة ، اليه . يرجون العفو . لما رآهم ، أحسن استقبالهم ، وصافحهم ، ورحب بهم ، وعفا عنهم ..

وأعلن الظاهر بيبرس انتصاره على جوان ، وسحقه له ..

وأنهت شهرزاد حكايتها بالقول : « وعاشوا فى لذة ونعيم ، حتى أتاهم هازم اللذات ، ومفرق الجماعات . فسبحان الحى الذى لا يموت » .

الليلة السابعة والثلاثون بعد الثمانمائة

فى روايته للسيرة الظاهرية ، أورد الراوى فى حارة الجودرية ، على لسان عتمان بن الحبلى ، ما آلت اليه الأوضاع داخل البلاد . انعزل الحاكم ومعاونوه عن مشكلات أهل البلاد الأصليين . وشهدت أحوال الناس وكراماتهم من الاساءات ما لم تشهده من قبل . سكت الراوى عن تدخل الظاهر بيبرس ، دفاعا عن أبناء الناس . ترك الحضور فى حالة من الغم والغضب ، كشفا لما ينتويه .

الليلة الثامنة والثلاثون بعد الثمانمائة

انشد الراوى على الربابة :

وكل ســـاعة نقول بكرة حـــا تتعـــدل

ومهما نســـعى نلاقى الزهر بهـــدلنا

ظـــروفنا هيه كده حلفت ما تتعـــدل

الدنيا خلت قليـــل الأصـــل بهـــدلنا

مادام معـــاه حظ .. أحـــواله بتتعدل

وصـــاحب العقل فى الدنيا عايش مظلوم

مكســـوف وســـاكت مش قادر يوم يتكلم

وآدى ايده فى النار ولاش قادر يقول مظلوم

لســـانه مربوط مش قـــادر يوم يتكلم

أنا مســـتجير بالنبى .. والزمان مظلوم

الليلة التاسعة والثلاثون بعد الثمانمائة

روى الراوى فى خان الحمزاوى حكاية فتاة من بنات الناس ، قدمت الى وحش رابض على مشارف المدينة ، قربانا يغتصب او يؤكل . يصرف الوحش بذلك أذاه عن المدينة سنة كاملة . فاذا انقضى الحول ، ثارت شهية الوحش الى اللحم البشرى ، فيدفع اليه الناس فتاة نبيلة ، اخرى ..

لون الراوى صوته متسائلا :

متى يظهر الفارس المنقذ الذى يتحدى الوحش ، ويقتله ، ويظفر بقلب الفتاة النبيلة ، وحياتها ؟! ..

الليلة الأربعــون بعد الثمانمائة

فاجأه شهريار بما قرره ، فاختار الصمت . الرواة يلهون العامة عن أعمالهم ، يثيرون العصبيات بين أبناء الناس ، يشبعون رغبات السامعين بالتزويد والتهويل والاختلاق والتطويل . يطلقون اعنة خيالاتهم . لا يطلبون الا الغريب والعجيب مما يستهوى العامة ويستثير مشاعرهم . يحذفون ما قد يكون صحيحا ، ويضيفون ما اختلقته أدمغتهم ..

أخبره أرصاده أن حكايات الرواة جاوزت ســـير القدامى وحكايات المحبين والعاشقين ، الى أرض ثمارها الأشـــواك . الشـــخصيات قريبة من ناس الزمان ، والحكايات قريبة ممـــا يحيونه ويرونه فى أيامهم الحالية ، والاختراع واضح . حتى سير القدامى والحكايات المعروفة ، بدلوا فيها وحرفوا ، ملأوها بالدجل والكذب والتهويل . اختفى عنترة والمهلهل والهلالى والزناتى والسيد البدوى . حلت شـــخصيات أخرى ، لا ذكر لها فى الحكايات القديمة . ينطقها الرواة بكلمات تجاوز المعـــانى الظاهرة ، الى معان ذات دلالات . تغيرت نفسيته ، منذ رأى الخنجر مغروســـا فى وسادته . أدرك أنه استنام الى الحراس والطواشـــية . وكل اليهم أمر المدافعة عنه ، وعن حريمه ، وعن قلعة الجبل . لم يعن بتقصى أحوالهم ، ولا مدى ولائهم ، ولا تأكد ان كان قد تســـلل الى داخل القلعة أقدام مشـــبوهة . أغضـــبه أن

عبد النبى المتبولى شـــوهد ـ رغم تنكره ـ فى أماكن الرواة . يتابع رواياتهم ، فلا يبدون أعتراضـــا . قصـــد أن يوجه له القول فى حضور الوزراء والأعيان ووجهاء القوم ..

ـ هل أدلك على مسئولياتك ؟ ..

ـ ذهـــابى بنفسى الى تلك الأمـــاكن ، تأكيد على ادراكى لجسامة المسئولية ..

قال شهريار :

ـ تنصت ، ولا تبدى رأيا ؟! ..

قال فى تأكيد :

ـ استخلص الرواية الفاسدة من الروايات البريئة ..

حدق فيه بملامح مستنكرة :

ـ هل استخلصت ما أردت ؟! ..

أردف قبل أن يجيب المتبولى :

ـ ماذا عن اتهام السلطان بالظلم فى حكايات رواتك ؟! ..

فى صوت متذلل :

ـ وأين الظلم فى حياتنا ؟ .. انما هى حكايات لتســـلية الناس ..

فارق الملك أعصابه :

ـ تحولت الحواديت من أداة تســـلية وتزجية فراغ ، الى سلاح مسموم ضد ملك البلاد ..

وعلا صوته بنبرة غاضبة :

ــ انهم يقصون ما لم يحدث ، وما لم نفعله ، ليبغضونا الى الناس .

واتجه الى المتبولى بملامحه المستنكرة :

ــ انا لا افهمك .. ابتعد الخطر عن ابنتك .. لكنك تريد ابعاد شبهة اعدامها ، ولو بتجاهل المؤامرات ..

همس المتبولى :

ــ مولاى ! ..

اشاح بيده :
ــ لن يضار الناس لو أنك أغلقت هذه الأماكن ! ..

أحزنه أنه اخترع المبرر الذى أغلق به أماكن الرواة . أعلن المنادى أنها ضارة بالجوامع والمساجد والزوايا . تصرف الناس عنها ، تمنعهم من أداء واجبات دينهم ، والانشغال بما يفيدهم . أمر الناس بلزوم أعمالهم ، لا يتركونها الى الرواة والقصاص ، فى مجالسهم ، وعلى جوانب الطرقات ، وفى الساحات ..

أغلق جميع أماكن الرواة . حتى لا يسىء الملك الظن به ، أمر رجاله ، فطاردوا الرواة خارج المدينة . قبضوا عليهم فى الصحراء والخلاء والأماكن النائية . حطموا آلاتهم ، واقتادوهم الى الرحبات . عذبوا بالجلد والضرب بالمقارع ، ثم انتزعوا السنتهم من أفواههم

الليلة الثامنة والأربعون بعد الثمانمائة

تلفت شهريار — دون توقع — الى الستارة المعلقة ، الساكنة وراء مجلسه . همس فى تأثر :

— ان مجرد وقوفك بقرب مجلسى ، يذكرنى بأسوأ ما فى حياتى ..

استطرد فى همسه المتأثر :

— وحياة اخى المسكين شاه زمان ! ..

الليلة الثالثة والخمسون بعد الثمانمائة

نقرت الباب ، ودخلت على أطراف أصابعها ..

كانت قد اعتادت التردد عليه فى قاعة المكتبة . أمر شهريار بإعادة تأثيث مكتبة القصر ، وتزويدها بما تحتاجه من الكتب . كان الاهمال قد أصابها ، ونهب الخدم والحراس معظم ما بها ، ولحق بالباقى دمار وتشويه . خصص المكافآت لمن يزود المكتبة بما فى حوزته من نفائس المخطوطات ، وكتب القدامى والمحدثين . وعين للمكتبة خزانا وخدما وفراشين ، ووفر ما يحتاج اليه النســـاخ والمطالعون من الأقلام والمحابر والورق . أمر النساخ أن يكتبوا بعض المؤلفات القيمة بماء الذهب ، وطعم أغلفة بعضها بالجواهر ، وخصص لها خزانات ثمينة . وأســـرف فى اقتنـــاء الكتب والمخطوطات . لا يستوقفه ما يطلبه أصحابه ثمنا لها ، انما هو يحرص أن تكون المكتبة حـــافلة بكل ما يفيد . فى باله ما ورد فى أحاديث شهرزاد عن بيت الحكمة ، الذى جعله الخليفة المأمون موئلا لزاد الكتب ..

صار يعقد الكثير من جلساته فى قاعة المكتبة ، بعد اعادة تأثيثها . يجالســه العلماء والأدباء والشعراء ، يطرحون الموضوعات كيفما اتفق ، ينصت كثيرا ، ولا يتكلم الا قليلا . يزيل الرهبة من نفوس المحيطين بتواضع ظاهر . يجلس فيه كأنه أحدهم . يبين عن حبه للعلم والعلماء ، فى هداياه الوفيرة وخلعه وعطاياه ..

رجا شهرزاد أن تعيد رواية حكاياتها على النساخين ، ينقلونها وهم جلوس وراء ستار ، يكتبونها بماء الذهب ، فتحفظ فى خزائن الدولة ..

اعتادت شهرزاد التردد عليه فى مكتبته . يختلى بنفسه .. يطلب دواة وأوراقا ، وينشغل فى الكتابة والتأليف فى نظم الشعر والزجل والموشحات والبلاليق ، وتدوين الحوادث . لم يبد عليه استياء ولا غضب حين قرأ عليها ما كتب ، فأشارت بتعديلات . يعيد تأمل الأوراق ، فيضيف ويحذف ويسأل — بود — : أليس هذا ما تريدينه ؟

قالت شهرزاد :

— أصبح مولاى فى غير حاجة الى حكاياتى ..

قال شهريار :

— بالعكس .. حكاياتك شوقتنى الى قراءة المزيد .

استطرد مترفقا

— لكن حكاياتك تظل هى الأكثر امتاعا ..

وهى ترقق صوتها :

— فلماذا لم يأت مولاى الى مجلسنا فى موعده ..

تنهد :

— سرقنى الوقت .. كنت أستعيد ما قلته عن مريم الزنارية ..

وعلا صوته :

ـ كأنها فضة نقية ، أو بلطية فى فسقية ، أو غزالة فى برية . بوجه يخجل الشمس المضيئة ، وعيون بابلية ، ونهود عاجية ، وأسنان لؤلؤية ، وبطن خماصـــية ، وأعطاف مطوية ، وسيقان كأطراف لية ، كاملة الحسن والجمال ، ورشـــــيقة القد والاعتدال ..

وقال فى اطمئنان :

ـ هذه هى الفتاة التى أحبها على نور الدين . ولعلها هى الفتاة التى روت قصة حبهما ! ..

أخفضت رأسها بتلقائية .

استطرد وهو يطوى الكراسة بيده :

ـ ماذا لو جعلنا مجلسنا هنا ، هذه المرة ؟ ..

ـ فى المكتبة ؟! ..

ـ أتصور أنها أنسب الأماكن لرواية الحكايات ..

أخلى الكرسى المقابل من الكتب والأوراق ، ودعاها للجلوس. استوت فى الكرسى ، وأغمضت عينيها ، تتذكر . ثم بدأت تحكى : بلغنى أيها الملك السعيد ..

الليلة الواحدة والسبعون بعد الثمانمائة

بدا التأثر واضحا على عبد النبى المتبولى ، وهو يتحدث عما أصدره شهريار من أوامر . أبلغته بها القهرمانة نجوى، وان لم يعلنه الملك ، ولا أذاعه بين عماله ..

خصص الملك أرصادا فى أسواق الرقيق ، يتبينون الحرائر اللائى يندسسن فى الأسواق . يحاولن الافلات بحياتهن بالتحول الى اماء . يعيدونهن الى حيث يقيمون . يواجه الأب عقوبة الجلد . يلزمه الجند رعاية ابنته اذا غادرت البيت ثانية ، فان غيابها ربما كلفه حياته . الفتاة الحرة يجب أن تظل على ما خلقها الله . من يدخلها دنيا الاماء — حتى لو كان أبوها — فان عليه أن يواجه حكم القانون .

قالت زهرة الصباح لسعد الداخلى :

— أخشى أن تلتقى فى سوق الجوارى بمريم الزنارية ، فتقع فى هواها ! ..

لاحظت نظرته المتسائلة :

— انها ابنة ملك مسـيحى ، بيعت فى سوق الرقيق ، فاستهوى جمالها الشاب المسلم على نور الدين ..

قال سعد :

— ان جمال زوجتى لا يرقى اليه جمال امرأة اخرى ..

ثم وهو يحيطها بساعده :

— رويت لى فى قصة سيف بن ذى يزن : من يرى القمر لا يحفل بالنجوم !

الليلة الثالثة والثمانون بعد الثمانمائة

قال الراوى :

انا اول كلامى : مدحت التهـــامى

تظله الغمامى هو ســـيد المـــلاح

يقول البواب : انا افتح البـــاب

ادخل لا تهـــاب يا ابن الســـماح

ادخل التبالى حـــالك مثل حـــالى

يا ما قد جرى لى فى حب المـــلاح

واقول لك صـــواب ادخل للرحاب

يـــا مـــا القلب داب وكثرت نـــواح

كم بيضــــة كريمة عيشـــتها غنيمة

والســـمرة اللئيمة تورث الافتضاح

راعيها مزقم ســـاكن فى جهنم ..

وصل البيض مغنم سامع صـــباح

انا كنت بواب فى قصـــــر بعتـــاب
شـــــاهد الأحبـــــاب ملوك النواح

لكن ابعـــــدونى عنهم وحجبـــونى
فزاد بى جنـــــونى وكثرت نـــواح

فلا هم يجـــونى تراهم عيـــونى
وانا من شـــجونى ما لى من راح

اهيم بوجـــــدى ومن نـــــار كبدى
وما خــــد عنـــــدى ولا لى رواح

واختم كلامى بمــــــدح التهـــامى
تظـــــله الغمـــــامى له الحج راح

الليلة الخامسة والثمانون بعد الثمانمائة

بسمل الراوى ، وصلى على الرسول ، ثم قال :

« كان فى قديم الزمان ، وسابق العصر والأوان ، فرقة من العرب ، يقال لهم طائفة بنى سليم . وكلهم كانوا مسلمين ، فتخلف منهم رجل يقال له عقبة اللعين ابن مصعب . وكان داخله الغرور ، يوقع الفتن ، ويخبر كل الأمور ، حتى أشرك بالله تعالى ومحمد رسوله صلى الله عليه وسلم . وقد تقدمت قصته فى غير هذه السيرة » ..

انتقل الرواة الى النواحى البعيدة ، فى القرافات . يضعون الناضورجية على نواصى الشوارع الضيقة ، يعطون اشارة التحذير من الوجوه الغريبة ، أو التى يشك فيها ..

فطن عبد النبى المتبولى الى الأمر ، فأهمله . وحين أبلغه أعوانه ، أظهر الغضب ، وان لم يأمر بالتصرف ..

لاذ غالبية الرواة بالقرافة الشرقية . يبدو الناس كأنهم يذهبون الى موتاهم ، أو الى خانقاه الصوفية ، أو الى مدرسة العلوم الشرعية ، أو المسجد التابع لها ..

وقال المتبولى :

ـــ فى حكاية على نور الدين ومريم الزنارية ، طلب ملك الفرنجة من هارون الرشيد ، أن يعيد له ابنته مريم الزنارية ، مقابل مساعدة

الملك له ، نصف مدينة رومة الكبرى .. ليبنى فيها المسلمون مساجد ، ويؤول اليهم خراجها .. لكن مريم الزنارية رفضت عرض أبيها ، وقالت لهارون الرشيد : انى دخلت دينكم ، لأنه هو الدين القويم الصحيح ، وتركت الكفرة الذين يكذبون على المسيح ..

وقال المتبولى :

ــ فى الليلة الفائتة ، روت شهرزاد أن الخليفة أمر بزواج على نور الدين من مريم الزنارية ، وأرسلهما الى مصر معززين مكرمين .. ويفرح أبو على بعودة ابنه ، وفى صحبته زوجة ..

وتنهد :

ــ ليتنى أغمض عينى ، وأفتحهما ، لأرى الملك يوافق على زواج سعد من زهرة الصباح ! ..

الليلة السابعة والتسعون بعد الثمانمائة

اختلجت عينا المتبولى بالقلق :

ــ عادت شهرزاد الى الحكايات القصيرة : حكاية عن السمك فى الماء ، واخرى عن الغراب والحية ، وثالثة عن حمار الوحش والثعلب .. اختفت الحكايات المطولة عن ملوك وجان وامراء ووزراء وحرائر وجوار وسحرة .. عوالم لا تنتهى من التشويق ! ..

رمقته رقية بنظرة مؤنبة :

ــ حزنت لأنك لم تعد تجد ما يرضى حبك للحواديت ..

نفر عرق الغضب بين حاجبيه :

ــ بل لأن شهرزاد الآن مثل جواد أنهكه العدو .. فهو قد يسقط فى أية لحظة ! ..

هزمها القلق :

ــ ماذا تقصد ؟ ..

فى لامبالاة يائسة :

ــ أقصد ما قلت ..

ثم وهو يضرب الهواء بقبضته :

ــ لو انى استطعت الوصول الى شهرزاد ، لرويت لها كل الحكايات والسير التى رويتها لزهرة الصباح ! ..

الليلة الثانيـة بعد التسعمائة

هب سكان القاهرة من رقادهم . أزاحوا الستائر عن النوافذ ، واطلوا من اخصة المشربيات ، يتطلعون الى مصدر الصوت . اقرب الى أصوات متلاغطة ، يتداخل فيها الزعيق والصراخ والتكبير والنداءات والدعوات والابتهالات . .

اشتد الهرج ، وتعالى الهتاف ، وساد الاضطراب ، وتنادى الناس ، وأغلقت أبواب القاهرة . نادى الناس بالنفير العام . خرجوا بالطبول والزمور والأعلام والكاسات ، وحناجرهم تعلو بالصياح والدعاء والتكبير والذكر . لزموا الجوامع الكبرى : الجامع العتيق ، جامع العسكر ، جامع ابن طولون ، الجامع الأزهر ، جامع الحاكم . ولزم الزوايا والتكايا مجاورو الأزهر والمتصوفة . حتى الشحاذين واللصوص وبنات الهوى ، شاركوا الناس ما فعلوا . توجهوا الى الله بالاستغفار وتلاوة الأوراد والأدعية ، توسلا لزوال الشدة وتبديد البلاء . وقاموا على قراءة البخارى . واجتمع الفقهاء والوجهاء وعامة الناس فى الجامع الأزهر ، يضرعون الى الله أن يكشف الغمة . علت دعوات الناس الى الله بأن يكشف الغمة ، ويقلع الملك عن سادر غيه .

تلا قراء الجوامع والمساجد آيات قرآنية ، يرد فيها ذكر الجهاد . ورافق الأذان للصلوات الخمس ، دعوة المؤذنين

للناس كى يغادروا بيوتهم ودكاكينهم . يأتون من القـــرى والمدن المحيطة بالقاهرة ، ليشـــاركوا فيما يحدث . صـــعدت جماعات الى أعلى البيوت ، يصـــيحون ويصـــرخون ويضربون بالدفوف والطبول . أغلقوا الدكاكين ، وانتشـــروا فى الاســـواق . وقفت النساء فى طيقان البيوت ، وعلى الأسطح . يطلقن الصرخات الموجعة ، كأنهن يندبن غاليا ، أو يشيعن جنازته . ولجأ بعض النسوة الى النيلة ، لطخن بها وجوههن ، وانطلقت صيحاتهن ، مشفوعة بلطمات متوالية على الوجوه ..

توقفت المواكب أمام المســـاجد واضـــرحة الأولياء تعالت الدعوات بأن يتشفع آل البيت والصـــحابة والتابعون ، فيقضى الله ــ سبحانه ــ بزوال الغمة . ثم اســـتأنفت المواكب ســـيرها . اتجهت الى الجامع الأزهر ، بأيديهم الطبول والبيارق والشـــوم ..

أوى أهل القـــاهرة الى بيوتهم وأرباعهم ، واقفلت أبواب الدروب والحـــارات وأغلقت الدكاكين والوكائل . حتى النوافذ والمشربيات ، أغلقت فلا يطل أحد على الطريق ، ولا يتطلع المارة الى ما بداخل البيوت . احتشـــد فى رحاب الجامع الأزهـــر والشـــوارع المحيطة به ، عشرات الألوف من العلماء والطلبة والوجهاء والأعيان وعوام الناس ..

أغلق علماء الأزهر أبواب الجامع ، وأوقفوا القاء الدروس ، وأذنوا للناس بالصعود الى مآذنه ، فضلا عن أســـطح البيوت المجاورة ، والأماكن المرتفعة ، تعلو تضرعاتهم ودعواتهم ونداءاتهم بضرورة تغيير الحال . ودقت الطبول ، تحرض الناس على ترك ما بأيديهم ، القدوم من المناطق القريبة والبعيدة ، الاحتشاد أمام الجامع الأزهر ، السير الى الرميلة ..

تقاطر الناس على الميدان . فى المقدمة حملة المشاعل والبيارق، تتبعهم مواكب حاشــــدة ، تجأر بالهتافات والابتهالات والأدعية ، ترافقها الطبول والمزامير . وتوافد الى الميدان أهل الأطارف من العامة وأبناء الناس ، وأقاموا فيه . ســــدوه عن آخره بأجسامهم وصرخاتهم وصيحاتهم ودعواتهم ..

انضم الى الثائرين طوائف من المغاربة ، واتراك خان الخليلى، وأهل الوجه البحرى المقيمون فى القاهرة ، والصعايدة ، وأبناء النوبة ، واقفرت الأسواق ..

اصـــــطف الجنود فى مواجهة الجموع الثائرة . اقبلت من الشوارع المحيطة بميدان الرميلة . تقلدوا أسلحتهم ، وعليهم الزرد والدروع ، لكنهم ظلوا ثابتين فى أماكنهم ، لا يدفعـــون الجموع الغاضبة الى الوراء ، ولا يحاولون الاعتداء عليهم ..

كان مقدمو العشرات يشخطون فيهم ، يأمرونهم بترك ما فى أيديهم من عصى ومساوق ، ولم النفس ، واسكات الصـــوت العالى . قالوا ان معاداة ولى الأمر — وان خالط تصرفاته خطأ — عقابها النفى من الحياة ..

— اذا كانت طاعة الســـلطان واجبة ، فانها لا تجب فيما يخالفه الشـــرع ..

— ليس فى ما حدث مخالفة للشرع .. انما يتزوج الملك علانية ..

— ويقتل علانية كذلك ؟ ..

— للرجل تقديره فى زوجته ..

ـ هل هو نفس التقدير فى كل الزوجات ؟ ..

وسأل مقدم الجند متزعمى الجماهير :

ـ ماذا تريدون ؟ ..

ـ لا نريد شيئا لأنفسنا .. انما نريد رفع الظلم عن بنات الناس ..

ـ هل أوذيتم فى أموالكم أو أعراضكم .. ؟

ـ اذا كان مسلسل القتل قد توقف .. فمن يضمن أنه لن يعود من جديد ! ..

الليلة الخامســة بعد التسعمائة

قال الراوى عن الصحصاح بن جندية ، فى سيرة ذات الهمة :

« لو عاش فى عصر عنترة ، لجعله من رجاله ، ولغدا عنترة ابن شداد من غلمانه » ..

وقالت زهرة الصباح للجارية نسيم :

ـــ ماذا لو بدلت اسمك الى عنيترة ؟ ..

قالت نســـــيم :

ـــ وانى لى أن أصل الى عنيترة .. لقد قادت أخوتها بعد وفاة أبيها ! ..

استطردت فى دلال :

ـــ اليس « نسيم » أجمل وأرق ؟ ..

قالت زهرة الصـــــباح :

ـــ لكن عنيترة صارت ـــ بعد اسلامها ـــ واحدة من المسلمين الغزاة ، الأوائل ! ..

أطلقت الجارية ضحكة من أنفها :

ـــ هذا الجسم الضئيل ، لا شأن له بغزو ولا حروب ..

ثم بلهجة متصعبة :

ـــ أحمد الله أن ساقى تعينانى على الوقوف ! ..

الليلة الثالثة عشرة بعد التسعمائة

كان الوقت ضحى ، عندما انتهت القهرمانة نجوى من تكبيس شهرزاد — بيدين حانيتين — حتى غلبها النوم . أسدلت الغطاء الى عنقها ، وانصرفت فى هدوء ..

كانت تظل على صحوها ، حتى يغادر الملك جناحه ، فى طريقه الى القصر الأبلق . تروى حكاياتها . تختلق الحكاية ، تمط فيها ، تضيف اليها ، تزيد فى الأحداث والشخصيات ، فتصبح الحكاية الواحدة اثنتين وثلاثا . تتشابك الأغصان والأوراق ، فتبدو الغابة بلا انتهاء ، وتغرى بالاكتشاف . تكسب — بتوالى الأيام — ما كان مقضيا بزواله من حياتها . يداخل الحكايات الآن مشاعر دافقة لا تدرك كنهها . هى بالتأكيد ليست مشاعر الخوف أو الحزن . لم يعد يشغلها تأمل ملامحه ان كان متابعا ، أو بدأ يعانى الملل ، ولا تجهد خيالها فى وصل الحكاية بأخرى داخلها ، لتتوالى الحكايات فلا تنقطع ..

همس بالقول :

— أنا فى باطنى جرح ..

وقال للفزع فى عينيها :

— انى أداعبك ! :

وقال : هل تشكين شيئا وتريدين ابلاغه ..

أمر أن يخصص لها قصر وراتب .. انتقل اليها ، فلم تعد تنتقل اليه . رفض الطعام حتى لا يقهره النوم :

ـ أريد أن أستمع اليك ! ..

تحسست أصابعه المرتعشة أزرار ثوبها . وأدى الصلاة قبل أن يقاسمها الفراش . وقال :

ـ زيدينى من حديثك ! ..

وقال :

ـ لولا أنى أعرف من أنت ، ومن هو أبوك ، لقلت أنك أنت لجارية تودد ..

وتساءل :

ـ لماذا لم يرو القصاص للناس أمثال هذه الحكايات ؟ ..

أمر أن تعيد رواية الحكايات على النساخين .. وقال

ـ حكاياتك شوقتنى الى قراءة المزيد .. تظل هى الأكثر متاعا ! ..

وقال :

ـ لقد زهدتنى ياشهرزاد فى ملكى ، وندمتنى على مافرطت فى قتل النساء والبنات ..

وخالط صوته تردد :

ـ تبت الى الله تعالى عن الظلم من اليوم ! ..

لم تعد تأبه لوقع ضحكاتها فى نفسه ، ولا تسرف فى تصور

ما يفكر فيه عندما يعروه الهم . تثق انه لم يعد شهريار القديم ، وانه يبسم ويحزن ويغضب ، فلا تؤذى غضبته من حوله ..

قال شـــــهريار :

ـ أحيانا .. أحلم انى أملك خاتم سليمان . أفركه فتزول من نفسى شهوة الانتقام ..

غالبت شهرزاد عجبها . لم تكن حكاية خاتم سليمان هى ما روته الليلة ولا الليالى السابقة .. فما الذى ذكره بها ؟ ..

قالت شهرزاد :

ـ اثق أن طبيعة مولاى تختلف عما يظهره ..

***

قال عبد النبى المتبولى لرقية مداعبا :

ـ أرأيت ؟ .. الملك لم ينس حقه كـــزوج .. أنجب من شهرزاد ـ حتى الآن ـ ثلاثة ابناء ! ..

قالت رقية :

ـ متعه الله بالصحة . وأبعد اذاه عن بنات الناس ! ..

الليلة العشرون بعد التسعمائة

لما وصل الراوى الى واقعة استيلاء سيف بن ذى يزن على كتاب النيل من بلاد الأحباش ، هلل الناس ، وزاطوا ، وصفقوا . أصبح النيل مصريا بحكم الفتح ، وحصل ابن ذى يزن على كتابه بحد السيف ..

رجاهم الراوى أن يهدأوا . الزياط فى خلاء القرافة الكبرى ، عند سفح المقطم ، ينتقل الى أسماع ارصـــــاد الملك والمتبولى فى المدينة .

كان المتبولى قد أجـــــاد التنكر ، فلا احد تعـــــرف اليه . خالط الناس وجلس بينهم ، كأنه واحد منهم ..

روى المتبولى لزهرة الصباح من الحكايات ، ما يسهل عليها اعادة روايته فى أشهر متتالية . كان قد حفظ الكثير من الملاحم والسير وحكايات التاريخ وقصص المحبين وأخبار الملوك والوزراء والأمراء والأبطال ، فى تردده على سوق الوراقين ، وعلى الرواة والقصـــــاص فى أماكنهم المعلومة والمخفية . مال ، وهو ينقل الحكايات الى التزيد والاغراق والاختراع . يضيف من الأحداث ما يسعفه به خياله ، ويبتدع من الشخصيات ما يدفع زهرة الصباح الى الاستزادة . وكان يفتش فى رأسه عما علق فيه من حكايات الطفولة ..

حرص على مجالس العلم ، وقرأ فى الخطابات القديمة ، والأساطير ، وقصص العالم السفلى ، وأعاجيب السحر ..

لاحظ أعوانه انه قد أهمل التوجس بما لا يخفى ، لا يتابع ولا يتشدد ولا يتحرى على عقاب . صار رفيقا بالناس . تجاوز عن الأخطاء الصغيرة ، وان تشدد فى عقوبة من يؤذى الناس بالقول أو الفعل . لم يناقش انتقال كل ما كان بيديه من سلطة الى الملك احتفظ بها شهريار لنفسه ، فهو لا يسمح له ، ولا لكبار معاونيه ، بالتمكين لأنفسهم ، ولا يأذن لهم بتمثيله ، ويظهر بنفسه فى كل المناسبات ..

الليلة الرابعة والثلاثون بعد التسعمائة

لم يخف شهريار غضبه . أزعجه ما وصل اليه من أمر سليمان الجعرانى والى الاسكندرية . قيل انه أسلم نفسه للجنس ، فجعله حياته . يكثر من الزواج والطلاق ، ويظلم بنات الناس حين يدخل على الفتاة ، ويطلقها ، فى أقل من شهر . يخصص لها بيتا فى الصحراء ، يحيط به الحراس ، فهى لا تغادره الا الى الموت . لا يأذن لها بالزواج من بعد طلاقه لها . يرفض التصور أن أحدا يأتى المرأة بعد ان أتاها ..

زوى ما بين عينيه :

ــ فارقوهن باحسان ! ..

سرت فى صوت الرجل ارتعاشة خوف :

ــ من ادعى غير ذلك ، فهو واش يريد أن يوغر صدر مولاى ..

قال شهريار :

ــ هذه البيوت على شاطىء البحر .. من يمتلكها ؟ ..

وهو يربت صدره براحة يده :

ــ انها نعم من مولاى على عبده ..

أظهر التململ :

ـــ لماذا تجبر النساء على الاقامة فيها بعد تطليقك لهن ؟ ..

قال الجعرانى :

ـــ انما اترك للمرأة بيتها ، تقيم فيه بارادتها .. وتتركه ان شاءت ..

أطل من عينيه غضب :

ـــ أنت تلزمهن البقاء فى البيوت ، وتحظر عليهن الزواج من بعد طلاقك ..

غالب الرجل ارتعاشة ملامحه

ـــ هذه فرية ، أراد بها حاقد أن يوغر صدر مولاى ..

وهو يطوى قبضته :

ـــ هذه وقائع ثابتة ايها الكاذب ..

أمر بعزل الوالى من منصبه ، وابقاء ممتلكاته فلا تصادر . وان ألزمه البقاء فى مقبرته بأطراف الاسكندرية . لا يغادرها حتى تنجب كل النساء اللائى طلقهن من أزواج آخرين .

الليلة السابعة والثلاثون بعد التسعمائة

أنهى عبد النبى المتبولى رواية السيرة الهلالية . مد ساقيه فى استرخاء ، وقال كمن يحدث نفسه :

ـ كنت أرجـــو لو أن ديابا قاتل الزناتى مرة ثانية وثالثة ورابعة .. أو لو ان ابا زيد قاتله بنفسه سيفا بسيف ، ولا يتنكر فى زى طبيب يدعى اسعاف الزناتى من ضربة دياب فى عينيه ، فيسمم العين بدلا من أن يعالجها ..

استطرد فى أسى :

ـ هذه حيلة غادرة ! ..

وقلب شفته السفلى ، ثم قال :

ـ الفارس هو الفارس .. وقد مات الزناتى فارسا .. أما أبو زيد ..

ورفض المعنى بهزة من رأسه .

الليلة الثالثة والأربعون بعد التسعمائة

كان شهريار علىعجب من مدن البحر . صحب عبد الله البرى اليها صاحبه عبد الله البحرى . ثمانون مدينة ، كل واحدة لا يشبه أهلها سواهم من أبناء المدن الأخرى . تمنى لو ان شهرزاد تحدثت عن الأعاجيب فى كل مدينة ، الف أعجوبة . لكن عبد الله البحرى قال : ما أريك قيراطا من اربعة وعشرين قيراطا من مدن البحر وعجائبه ، وانما فرجتك على ديارنا وأرضنا لا غير ..

قال عبد الله البرى : يا أخى .. حيث كان الأمـــر كذلك ، يكفينى ما تفرجت عليه . هذه هى كل صور الحكاية اذن ..

قال شهريار فى عجبه :

ــ لابأس من أن تدفن المرأة مع زوجها ان مات ..

ثم وهو يدفع الفراغ بيديه كمن يتقى خطرا :

ــ أما أن يدفن معها بعد وفاتها ، فلو أن ذلك الشـــــرط الغريب تحقق ، فانى أكون قد دفنت منذ سنوات ! ..

أشرق وجهها بابتسامة :

ــ أطال الله عمر مولاى ..

وهو يهز راسه كأنه ينغم الكلمات :

ــ فى الحقيقة انى لم أر مثل وفاء صاحبك عبد الله البرى ..

أردفت فى تذكير :

ـــ ولا صدق وعد عبد الله البحرى ! ..

قال كالمتنبه :

ـــ ولماذا اخترت اسم سمك الدندان على اسم أبيك ؟ ..

ـــ هكذا تسميه الحكاية ..

ـــ وما الصلة بين الدندان السمك ودندان الوزير ؟ ..

ـــ انما هو فارق .. فارق بين العبد الخاضع لمولاه ، وسمك البحر القوى ذى الشراسة ..

اتجه اليها بنظرة متسائلة :

ـــ لكنه اذا أكل شحم بنى آدم ، مات لتوه .. أليس كذلك ؟ .

وعلا صوته فى تأكيد :

ـــ وذلك مصـــير الوزير ، أو أي أحد ، هم بان يأكل لحم مولاه ..

ثم وهو يضغط على الكلمات :

ـــ من يبادر بالغدر ، فان عليه أن يتوقع الجزاء ! ..

الليلة الخامسة والستون بعد التسعمائة

المياه تندفع من النافورات ، وتتدفق فى أحواض طولية من الرخام ، تنتهى الى بحيرة صناعية هائلة . لم بعد يقصر جلسته اليها فى جناحه ، ولا فى قصرها . بدا فى جلسته المسترخية ، وتأمله الصامت ، كأنه يحصى الشمسيات والقمريات والقنديليات ، من الجص المعشق بالزجاج الملون . تناثرت فى الواجهة الداخلية للقصر ، تطل على الباحة المضاءة بآلاف الثريات والمصابيح ، كأنها الشموس الساطعة ..

قال شهريار :

ـــ نحن لا نفعل ذلك فى وزيرنا ياشهرزاد .. لا نفعل مثلما فعل الملك قمر الزمان ، فننتف لحية الوزير ونرفسه بأقدامنا ونصفعه ..

قالت شهرزاد :

ـــ هذه حكاية يامولاى .. وأنتم أعدل من ان تفعلوا مثل ملوك الحكايات ..

ـــ ولكن ليس كل ملوك الحكايات من ذوى الأفعال الشريرة .

وهى تدارى انفعالها :

ـــ هذا صحيح يامولاى ! ..

الليلة السابعة والسبعون بعد التسعمائة

خرج الناس بالأعلام والبوقات والطبول والرماح والسيوف والقسى والنشاب والنبابيت والمساوق والمعاول والسبلات والأوانى والطسوت ، وجمعوا الحجارة فى أكمامهم . حتى فروع الأشجار قطعوها ، ومضوا بها . اتخذوا من مصاطب الدكاكين متاريس أقاموها فى الشوارع والميادين ، وشرعوا فى حفر الخنادق ، واستخدموا عربات اليد فى نقل الحصى والدبش ، وتكويمها فى جوانب الميادبن ونواصى الطرقات ، وفى أسطح المنازل ، يعدون أنفسهم لمواجهات مع جند الملك . أعداد لا تحصى من الخلائق : الفقهاء وطلاب العلم والمشايخ والوعاظ وصغار التجار والكتاب والحرفيين وأرباب الصنايع والباعة وأهل الفلح والزراعات والأجراء ، والمئات من الحرافيش والشطار والعيارين والزعار ، ومن على شاكلتهم . لم يتبق أحد فى البلاد الا وناله منه مكروه . اذا لم تكن الفتاة ابنته ، فهى ابنة أخيه أو ابنة أخته أو حفيدته . أو انها ابنة أبوين فقداها ثمنا لانتقام عبيط وشرير ..

أقبل العشرات من القرى المجاورة — فى ظلمة الليل ، أو خيوط الفجر — الى القاهرة . فتحت لهم بوابات المدينة ، فدخلوا بأسلحتهم .

ألقيت قطع الحجارة من النوافذ والأسطح والتلال والخرائب . شارك في القائها نسوة وفتيات وأطفال . أشعلوا الحرائق فى

مخازن الحبوب بالرميلة ، واحرقوا الجسور ، وسدوا الشوارع ، وخربوا مجالس الشرط . وصعد جماعة الى سطح مسجد السلطان حسن ، ومناراته، لضرب الجند فى القلعة ..

مع ان التجار تبرعوا لشراء الفؤوس والقفف والشوم وغيرها ، فان الأيدى امتدت الى ما بداخل البيوت والأسواق .. كسر الثائرون أبواب الدكاكين . استولوا على التحف الثمينة والبضائع والأموال ، وافساد مالا تستطيع أيديهم حمله ، أو اشعال النار فيه ..

استعان عبد النبى المتولى لاخماد الحرائق ، واعادة الامور الى ما كانت عليه ، بكل من فى المدينة من السقايين والنجارين والقصارين والهدادين وعمال الانقاض وغبرهم ..

أحكم الجند حصار الطرق المؤدية الى أماكن تجمع الثائرين . حالوا دون تزويدهم بالطعام والماء . تحسبا لتفاقم الأحوال ، أغلق الجنود الأبواب الكبيرة الفاصلة بين الأحياء والاسواق ، حتى يظل كل جماعة من الثائرين فى موضعهم ، لا يغادرونهم ، فيسهل شرذمتهم .

الزم المتبولى الجند بأن يكتفوا بحصار الناس ، لا يطاردونهم ولا يقاتلونهم . انما يلزمونهم أماكنهم ، أو يردونهم برفق ، حتى يتفرقوا ..

وقف الجند أمام الناس . لا يحاولون مقاتلتهم ، أو دفعهم الى التراجع ، والعودة من حيث أتوا ..

ثم فوجىء الجميع — الثائرون والقوات فى مواجهتهم — بقوات خرجت من داخل القوات . اخترقت الحشود ، وأعملت فى

الناس مقاريعها وسيوفها . تعالت الصيحات والصـــرخات ، وتشرذم الثائرون الى غير مكان ..

كان شـــهريار قد أعطى اوامره لمقدمى المئين والالوف . لم يناقش فى ذلك عبد النبى المتبولى ، ولا أبلغه . نزل الجند من أبراج القلعة الى ميادين القاهرة وأسواقها . وقفوا على نواصى الحارات ، وتمركزوا فوق الأســـطح وأعلى البنايات المرتفعة ، وصهلت الخيل ، استوقف الجند الناس ، يسألونهم عن وجهتهم . فضوا كل محاولة للتجمع . اعلنت الأوامر فلا يخرج أحد من بيته ، من نزول الظـــلام الى طلوع الشـــمس . أغلقت أبواب الأحياء ، وفتشت البيوت بيتا بيتا . يدقق مشايخ الحارات فى الوجوه ، يتعرفون الى الغريب والمتسلل . وصار قائد الحرس يطوف على رأس جنوده — ليلا — شوارع المدينة . يلقون القبض على كل من يصادفونه . يودعونه الســـجن ، فلا يغادره حتى يظهر ما يفيد باستقرار الأوضـــاع . هدد بالاستباحة ، ان لم يوقف الناس ما بدأوه ، يسلمون ما بحوزتهم من أســـلحة ، يعلنون الخضـــوع والولاء ..

أظهرت رقية اشفاقها للحال التى بدا فيها عبد النبى المتبولى .

انتزع الرجل الكلمات :

— لولا تدخل خاصة الملك ، ربما مضت الأمور الى غير ما يتوقعه أحد ..

استطرد كمن يحادث نفسه :

— لعل الكابوس كان قد انزاح ، وأطمأن الناس على مصائر بناتهم ..

قالت رقية متحسرة :

ــ لماذا لم تحل بينهم وما فعلوا ؟ ..

اغمض عينيه فى تعب واضح :

ــ انهم لا يعرفون سوى شهريار وحده .. يتلقون منه الأوامر ، وينفذونها دون نقاش .. حتى لو امرهم بقتل قادتهم ..

تغضن جبينها بالسؤال :

ــ الست المسئول عن الأمن ؟ ..

فى نفاد صــــبر :

ــ يا امرأة .. الكل لا شىء فى ظل الملك ! ..

الليلة الثامنة والثمانون بعد التسعمائة

فاجأ ما حدث أرصاده وأعوانه المنتشــــرين فى الحارات والرحبات والشوارع والدروب والأزقة . حتى الحمامات والمقاهى جعل فيها من ينقل اليه كل نأمة . حدث ما حدث كأنه بركان لم يمهد لانفجاره ، سيل لحق السائرين فى الطريق الآمنة ، صاعقة هوت فأحرقت الغابات التى أحسن تسويرها . امتدت شكوكه ، فشملت الملك نفسه . قيل ان ما جرى برضاء منه ، ليبدأ عهدا جديدا على أشلاء من خدموه . بدا الأعوان والأرصاد بلا حول وسط طوفان الناس الغاضبين . لماذا ثار العوام ، ولا يختار شهريار الا بنات الناس ؟ .. اعتادوا الضائقات المالية ومضايقات الولاة والمحتسبين والعمد والجند ، فلماذا اختاروا هذا الوقت ليحرقوا ، ويدمروا ، ويطيحوا بكل شىء ؟ .. هل باعه رجاله لحساب الملك ، أو لحساب اعداء ـــ أضناه البحث عنهم ـــ يشغلهم القضاء عليه ؟ .. وهل يجرى النهر بلا نبع يبدأ منه ؟ .. أين الأيدى الخفية التى دبرت وحركت ، فضيعت كل ما صنعه ، وضيعته ؟! ..

خرج من بيته عاشر أيام الأحداث المدمرة ، فلم يعد . ظل فى القاهرة ، وان لم يصعد الى القلعة ، ولا عاد الى أسرته ، ولا عنى بنداءات رجاله . سار فى الأسواق يعروه ذهول . مضى الى الخلاء يتتبع من بقى من الرواة والقصاص والحكائين . لزم أضرحة آل البيت والأولياء ، يقضى الساعات فلا يعنيه ما حوله . شارك فى حلقات الذكر ومجالس الأدعية ، لا يتفرد بتميز . انما

يبدا وينتهى كأنه واحد من العشرات الذين اجتذبتهم المجالس . لم يهبط الى مستوى المجاذيب ، أو المتسولة ، لكنه بدا شاردا مذهولا عما حوله ، كأنه يحيا فى داخله . يتعرف الى أعوانه والناس من حوله .. ثم يمضى فى الطريق ، لا يشغله التلفت ولا الخوف ، ولا تحية الأعوان . ان أصر الأعوان على طلب أمره ، اكتفى بالقول : تصـــــرفوا ! ..

لم يطلب اعفاءه ، ولا أصدر شهريار مرسوما باقالته . من نفسه امتنع عن الصعود الى قلعة الجبل ، وتناقص رجاله ، ثم اختفوا كأنهم لم يكونوا . ظلت وظيفته شاغرة ، أو هى الغيت دون اعلان . شغلت ديوانه فى القلعة ادارة لشكايات الناس . يقرأ موظفوها العرائض والرقاع . يقضون بما يسعهم القضاء فيه ، يحيلون المسائل الفقهية الى القضاة الأربعة ، كل فى مذهبه . ويرفعون الشكايات المهمة الى مقام الملك .

***

سعى اليه سعد فى خانقاه شيخو . قيل انه لزمها فى أيامه الأخــــيرة ، فلم يغادرها . قنع بما يأكل طلبتها من طعام وخبز وحلوى . وكان يوزع ما يتبقى من طعامه على الطلبة . ذكره سعد بمكانته وأسرته وحبه لزهرة الصباح . أقنعه بالعودة الى قصره ..

سبقه الشاب الى الطوابق العليا .. لكن المتبولى لزم الطابق الأول . جلس على كنبــة فى مواجهة الباب الرئيسى . بدا كأنه اختارها لجلسة متصلة . تركه الشاب وما بريد ، غلبت الحيرة زهرة الصباح لرؤية أبيها . أين هذا الكيان المتضائل ، من العظمة والترفع والأوامر التى ترفض المناقشة ؟! ..

أما السيدة رقية ، فقد أطالت النظر الى الجالس فى صمت ، ثم أجهشت بالبكاء .

الليلة الثانية والتسعون بعد التسعمائة

قالت القهرمانة نجوى فى تأثر :

ـــ أرجأ الملك عشرات المراسيم لتبديل أحوال الناس ..

قال سعد الداخلى :

ـــ هل استكثر ذلك عليهم ؟ ..

كان سعد قد عرف الطريق الى داخل قلعة الجبل . يمضى فى الأماكن نفسها التى تردد عليها عبد النبى المتبولى . دفعه المتبولى الى ذلك ، وأوصاه بما لا يعرضه للمساءلة . أعوان الرجل يملأون خارج القصور وداخلها ، وان اصر المتبولى الا يغادر قصره ..

ابتسمت القهرمانة نجوى لصفة الخادم التى قدم بها نفسه ، فخمن انها تعرف كل شىء : هل أخبرها حموه ؟ .. أو أنها تعرف ما يجرى خارج القلعة ، مثلما تعرف ما يجرى داخلها ؟ ..

قالت نجوى فى تأثرها :

ـــ لعله لم يشأ أن تحتسب المراسيم لثورة الناس عليه ..

أدهش نجوى ـــ قبل أن تندلع الأحداث بيوم أو يومين ـــ انه لم يعد يكتفى بالسماع . لا يطلب حكاية جديدة ، وانما يتحدث عن شىء يشغله . وكانت شهرزاد تنصت باهتمام ، وتبادله الرأى . تحدث عن تغير أحدثته فى نفسه حكايات شهرزاد ، وعن مراسيم يعد لاصدارها ، تغير الأعوان والموظفين وصورة الحكم ..

وقالت وهى تعد نفسها للدخول الى اجنحة الحريم :

ـــ لقد انتصرت شهرزاد عندما انطقته بالسؤال : ثم ماذا .. هكذا مضت الليالى ! ..

الليلة الثامنة والتسعون بعد التسعمائة

قال شهريار :

ــ ياشهرزادى العزيزة .. حتى تكفين عن حكايات هؤلاء الوزراء الخونة ؟ ..

قالت شهرزاد :

ــ أفضل يامولاى ألا أبدل فى الحكاية .. لا أحذف منها ، ولا أضيف اليها ..

أظهر التعجب :

ــ وهل ذلك ما حدث بالفعل فى حكاية معروف الاسكافى ؟ . هل بصق فى وجه مولاه ، حين طلب منه الخاتم المسحور ، وقال له : يا قليل العقل .. كيف أعطيه لك ، أبقى خادمك ، بعد أن صرت سيدك ؟ .. أليست هذه هى كلماتك ؟ ..

دارت انفعالها :

ــ هذه كلمات الحكاية ..

دون أن يجاوز هدوءه :

ــ لولا أننى أثق فى حسن طويتك ، لساءنى اختيار بعض حكاياتك .

الليــلة الألــف

قالت القهرمانة نجوى لسعد الداخلى :

ــ أمس كادت شهرزاد تنهى حياتها بلسانها ..

هتف بقلق :

ــ كيف ؟ ..

وهى تغالب تأثرها :

ــ أنهت حدوتة معروف الاسكافى . مات الملك ، فجعلته بنت الملك سلطانا مكان أبيها .. وصار يتعاطى الأحكام ..

لم يخف استياءه :

ــ وما يغضب الملك .. أليست حدوتة ؟ ..

قالت فى تأثرها :

ــ اسأل حماك عن طبع الملك ..

وعبرت بيديها :

ــ قال لها الملك فى غضب واضح : كيف تجعلين من هذا الفقير الخائف الجائع العارى ــ كما وصفته أنت ــ سلطانا يتولى أمور الناس ؟! ..

هز رأسه يستحثها على الكلام :

ــ وماذا قالت المسكينة ؟ ..

افتعلت ضحكة :

ــ بذكاء شهد لها به الملك نفسه ، تحولت الى حكاية أخرى ، فنسى الملك ما أغضبه ! ..

الليلة الأولى بعد الألف

لما فرغت شهرزاد من رواية الحكاية الأخيرة ، نهضت على قدميها ، وقبلت الأرض بين يدى شهريار ، وقالت له :

— يا ملك الزمان ، وفريد العصر والأوان .. انى جاريتك ، ولى ألف ليلة وليلة وأنا أحدثك بحديث السالفين ، ومواعظ المتقدمين .. فهل لى أن أتمنى عليك أمنية ؟ ..

قال الملك :

— تمنى تعطى يا شهرزاد ..

نادت شهرزاد على الوصيفات والطواشية ، وقالت :

— هاتوا أولادى ! ..

جاءوا بثلاثة أولاد ذكور . وضعتهم أمام الملك ، وقبلت الأرض ، وقالت :

— يا ملك الزمان . ان هؤلاء أولادك . وقد تمنيت عليك أن أعفى من القتل ، اكراما لهؤلاء الأطفال ..

بدا على الملك تأثر . لم يفاجئه الخبر . أبلغه به أعوانه المبثوثون داخل القصر وخارجه ، وفى أرجاء القلعة . لكن شهرزاد وأبناءها الثلاثة أثاروا اشفاقه ، فدمعت عيناه ، وان أظهر الغضب :

— لم يصل بى الخرف حد انكار أبنائى ! ..

هل كان ينبغى ان تواصل رواية الحواديت بلا انتهاء ؟ .. وهل أخطأت حين نفذت نصيحة القهرمانة نجوى ؟ . مع أنها روت

الكثير من الحواديت ، تتذكر ما قرأته وما رواه لها أبوها وأمها وجدتها وجوارى القصر ، تضيف لما يسعفها به خيالها ، فانها حفظت ما لقنته لها نجوى .. استعادته وتمثلته ، وتصورت ــ ما أمكنها ــ رد الفعل . غلبها الارتباك ، فنسيت ما لقنته لها القهرمانة ، ولجأت الى بديهتها . قالت :

ــ لن تصبر على حكاياتى الى مالا نهاية ..

وهو يتجه الى عينيها :

ــ فماذا ترين ؟ ..

ــ رجوت أن تبقى على حياتى ، من أجل الذى يمشى ، والذى يحبو ، والذى يرضع ..

تصورت ما حاولت الليالى الألف الماضية أن تمنعه . ينادى على مسرور السياف ، فيقودها الى حيث تلقى حتفها . هل كانت القهرمانة نجوى مخطئة فى نصيحتها ؟ .. هل كانت مخلصة ، أو أنها بذلت النصيحة لتدارى غرضا شريرا ؟! ..

ياشهرزاد . والله انى عفوت عنك من قبل مجىء هؤلاء الأولاد، لكونى رأيتك عفيفة ، نقية ، حرة . بارك الله فيك ، وفى أبيك وأمك وأصلك وفرعك .. وأشهد أنى قد عفوت عنك ، وعن كل شىء يضـــــرك ..

فاجأها بالقول :

ــ انى كنت عفوت عنك قبل مجىء هؤلاء الأولاد ، لكونى رأيتك عفيفة نقية ، وحرة تقية ..

علا صوتها دون تدبر :

ــ الن تؤذينى ؟ ..

ــ ومن سيرعى هؤلاء الأطفال ؟! ..

الليلة الخامسة بعد الألف

حين هز شهريار رأسه بالموافقة على اعفاء دندان من الوزارة، اخلت وجوه الجالسين نفسها للدهشة . أيقنوا — منذ عرفوا بنبأ الرقعة التى طلب فيها دندان اعفاءه — ان الرفض مآلها ، هو والد شهرزاد . أعلن الملك انها آخر زوجاته ، وأكبر أولادها الثلاثة هو ولى عهده .. لكن الموافقة السريعة اذهلت الجميع . تأثيرات الأيام العشرة تركت ظلها القاسى على المجلس . حتى شهريار شك — فى لحظات كثيرة — انه سيعود الى مجلسه ، ويدير شئون البـــلاد ..

خاف الوزراء والأمراء وعلية القوم على بيوتهم ومصالحهم ، فتمنوا زواله . خرج العوام لايقاف عمليات الاعدام . ان زال الرجل من منصبه ، عاد الناس الى بيوتهم ودكاكينهم وقراهم ، فلا خوف من امتداد الفتنة ..

فاجأ شهريار الجميع بمراسيمه . هدأت الأمور كأنها لم تخرج — ذات يوم — عن طريقها . توالت رقاع الاعفاء ، فقبلت جميعها . لما قرئت رقعة دندان أيقن الحضور برفض الملك لها . لكنه هز رأسه فى هيئة المتوقع . لم يسأل ان كان دندان فى المجلس ، أو داخل القصر ، أو أنه لم يغادر قصره ..

بدا الملك هادئا بما لم يعهده الجلوس من قبل . بعث الى

دندان . خلع عليه أمام القادة والأمراء والوجهاء وذوى الرأى . قال فى صـــــدق :

ـ سترك الله حيث زوجتنى ابنتك الكريمة التى كانت سببا لتوبتى عن قتل بنات الناس ..

زاد الملك ، فخلع على كل الأمراء والوزراء وأرباب الدولة ، وزينت القاهرة ميادينها وبيوتها وشوارعها ثلاثين يوما كاملة . كل المصاريف من خزانة الملك ، لا يدفعها سواه ..

الليلة الثامنة والثمانون بعد الألف

استعاد الناس ما رواه المنادون فى الأسـواق : هل أقلع شهريار بالفعل عن هوايته الشريرة ، واعترف بشـهرزاد زوجة دائمة ، فلا يقتلها ؟ ..

تباينت التفسيرات ، فلم تصل الى سبب محدد : هل هو الخوف من تجدد ثورات الناس ، أو انها الحواديت التى لم تعد سرا ، فهى ما يرويه الناس فى مجالسهم ؟ ، أو أن الملك يدارى فعل الانتقام المترصد ؟ ..

خلت بيوت خدم القصر من ساكنيها . كانت أقرب الى القصور الصغيرة ، ولم يكن قاطنوها من الخدم . كانت أعمالهم فى الأبراج والمكاتب والاسطبلات والاهراءات والمخازن ، وعلى نواصى الطرق، وفى الحدائق . يراقبون الأحوال ، واتصالاتهم مباشرة بالملك . لا يسـتأذنون مثل بقية الوزراء والأمراء . حتى دندان والمتبولى يلتمسان المثول بين يديه . بدوا الأقرب الى شهريار وموضع ثقته ، وكانوا على رأس الجند فى دحر الثائرين . خلت بيوتهم ، وحملت العربات أمتعتهم الى مناطق فى القاهرة والأقاليم . وأمر شـهريار العديد منهم أن يلزموا قبورهم فلا يغادرونها . ظلت البيوت خالية ، وان قدم لشـغلها — فيما بعد — أسـر من أحياء القاهرة ، اربابها علماء ووعاظ وقضاة ، يجالسـونه فى قاعة المكتبة . خلع عليهم ، وأمرهم أن يقيموا بالقرب منه .

لم يعد ـ منذ أشهر ـ هو الملك الذى ألفه حتى سكان قلعة الجبل .

غابت اليد الباطشة ، والنفس التى تغضب لأقل سبب . حل تباسط وحسن انصات ، وتفهم للظروف ، ومؤانسة .. تبدلت نفسه بما لم يكن يتوقعه احد . فتح خزائنه ، لا ليودع فيها من أموال الناس ، انما فرق الكثير مما تحويه على أرباب الدولة ، وعلى الناس العاديين . رتب لعلماء الأزهر ارزاقا وجرايات شهرية ، وأمر أن تبنى لهم دور للسكنى بالقرب من الجامع . أهدى الفقراء ما لم يتطلعوا لرؤيته او ملامسته : اسقاط من الثياب المختلفة ، وعمائم بيضاء بطرز ذهب ، وطيلسانات دبيقية ، وعملات ذهبية ، وبدل مذهبة . واكثر من توزيع الطعام والأموال على الفقراء والمحتاجين ، واجرى الأرزاق على المساكين والعميان والمجذوبين . ورصد أوقافا لمد المعوزين بالمال ، كتجهيز بنات الفقراء . دفع ديون المسجونين ، والانفاق على الجوامع والمدارس والخلوات وتكايا الدراويش والأسبلة والخانات .

قرر شهريار أن يختن أبناءه الثلاثة فى حفل واحد ، ونادى المنادى فى الطرقات ، يدعو من يريد ختان ابنه مجانا ، بعد أبناء الملك ، فعمت الفرحة القاهرة كلها . أحسن معاملة أهل الكتاب من غير المسلمين ، سمح لهم بالتجارة ، وأمنهم على أنفسهم واولادهم وأموالهم ، وأذن لهم بحرية الملكية ، ورفع الجزية عمن اسلم منهم . أمر خطباء المساجد بأن ينزلوا درجة فى المنابر حين يدعون له ، فلا يذكرونه فى الموضع الذى يذكرون فيه اسم الله واسم النبى العظيم . أمر بالغاء المقصورة على يمين القبلة ، فلا يصلى داخلها بمفرده ، انما يصلى وسط الناس . شدد فى منع تقبيل اليد ، لأن فيه معنى التجبر .

باشر تدبيرات الحكم بنفســـــه ، لا يعولّ فيه علّى دندان ولا المتبولى ولا اى من وزرائه او قواده او خاصـــــته ومماليكه . اصبح يراجع جميع اعمالهم . يثبت ما يراه مناسبا ، ويلغى المشبوه فى معناه . حتى ما يبدو صغيرا وبلا قيمة ، أولاه الاهتمام الذى كان يوليه للدفاع عن البيضـــــة وحمـــــاية الثغور . امر بازالة الحجاب والبوابين فى ابواب الايوان الكبير ، حتى يصل اليه ذوو الحاجات . لا يرد اى متظلم . يسأل ان وقف على أبواب القصـــــر من بأيديهـم ظلامات . صــار يستقبل أصاغر الكتاب والبوابين وأصحاب الدكاكين والباعة وذوى المهن أو الحرف الصغيرة ورجال الحراســــــة والمنادمة والخدمة . يؤنس من وحشتهم ، ويصـــبر على تحاملهم . أذن لعامة الناس أن يركبوا الخيل والبغال ، فلا يقتصر ركوبهم على الحمير . التزم الصرامة فى تنفيذ الحقوق ، واقامة الحدود ، والكشف عن الشهود .

مع ذلك ، فانه لم يعد يستأثر بالسلطة ، وزعها على معاونيه من الوزراء والأمراء والولاة والقضاة وذوى الرأى . قصر على نفسه القضاء باقامة الحد فى الرجم ، أو الحرابة ، أو القتل ، أو القطع فى سرقة . ترك للقضاة دعاوى المتقاضين فى المشكلات الأخرى .

شدد ، فلا يقضى بحكم لا يستند الى شـــــهادة اربعة من العدول . لا يكتفى بالحكم على الظاهر من التصرفات والأقوال . انما تبنى الأحكام على الباطن مما تخفيه النفوس . يحاصر الجانى بالاسئلة ، فلا يترك الا بعد أن يظهر كل ما كان يخفيه فى صدره . يسأل عن الشـــــهود ، يتحقق من استقامتهم ونزاهتهم ، وانهم لم يتقاضوا برطيلا . ينشغل القاضى بالتحرى لاصابة الحق ، فلا يأذن لقولة باطل أن تصيب ســــمعه . يطيل الانصـــــات والتدقيق

وتقليب الروايات المختلفة ، حتى يقضى بما يرى انه الحق ، او ما الهمه الله به مما يرى انه الحق .

شمل عدله حتى البوابين وسائقى الدواب والكاسدين المنظفين للطرق . كان اذا جلس للقضاء ، أحضر أربعة من ذوى الرأى ، يستشيرهم فيما يثيره المتقاضون . اذا رأوا ما رآه ، وقع بلا تردد ، وقضى بالتنفيذ حالا ، سواء كان الحكم بازهاق الروح ، أو باقامة الحد ، أو بالسجن . ابطل الضرب بالمقارع ، وابطل الكثير من المكوس والضمانات . شدد على عماله ألا يظلموا الرعايا ، ولا يشوشوا على أحد بغير طريق شرعى ، ولا يجددوا مظلمة ، ويبطلوا كل ما حدث من مظالم . وحظر على خدمه أن يركبوا البراذين ، أو يرتدوا الثياب النفيسة ، الا ما يخلعه عليهم ، ولا يأكلون من الفىء ، وكان يسأل عن أحوال العمال والولاة . كل من شكا منه أحد ، أمر بعزله . وعزل الكثير من القضاة بسبب تعاطيهم البراطيل فى الأحكام .

كان اشد ما لفت الانتباه ، وأفاض الناس فى استعادته ، ما روى عن عزله قاضى الحسبة باخميم ، لأن زوج القاضى شكت اليه سوء معاملة زوجها .

قسم لياليه ، ليلة للورزاء والأمراء ، يناقشهم فيما يعرض من مشكلات تحتاج الى المشورة والرأى ، وليلة للأدباء والمؤرخين ، يتذاكرون فيها أيام مصر القديمة ، ربما من قبل الفتح العربى ، لا يأذن بتشويه مرحلة سابقة ولا لاحقة . فتاريخ مصر متصل . وتلطيخ الأجزاء يعنى تلطيخ الجسم كله . وليلة يجالس الفقهاء والقضاة ، يناقشهم فى أمور الدين والدنيا ، لا تغضبه مساءلاتهم وما اذا كان قد لحق الظلم أحدا من حيث لايدرى. وليلة لقادة الجند، يتقصى أحوال الثغور والكفور وتمام الكمال فى مخازن السلاح والذخيرة ،

وليلة للقرآن الكريم ، يتلو من آياته ، حتى يأتى النصف من كل ليلة ، فيسعى الى قصر شهرزاد . أمر — دون أن يرجوه أحد — بأن يعود الرواة والقصاص الى مواضعهم فى الساحات وجانبى الطرقات ، وان ألزمهم بوقت محدد ، لا يجاوزونه ، حتى لا يصرفوا الناس عن أعمالهم ..

نادى فى الناس بالأمان والاطمئنان ، فلا يشوش على أحد ، ولا يؤذى أحد فى عرضه أو ماله أو حريته ، ولا يواجه العقاب دون سبب . أبطل المكوس والرسوم والمظالم التى كان أحدثها من قبل . ألف الناس رؤيته وهو يسير فى الأسواق . الوزراء ورجال الدولة من حوله وقدامه وخلفه ، معه الدرة يؤدب بها المخالفين . يسأل التجار والمارة ، ويعنى بما يجرى من غش وخديعة وتفقد مكيال وميزان وأحوال بيع وشراء . لم يترك للمحتسب امر ذلك ، يقضى فيه على هواه . باشر كل شىء بنفسه ، وجعل المحتسب ومعاونيه عيونا على ما يريد التثبت منه ، ومعرفة حقيقته . يوقع العقوبات الشديدة على التجار المخالفين ، كالضرب والجلد وتخريم الأنف والأذنين وتجريس المخالف .

عرف عنه انه يطوف الأسواق ، ويزور المجالس متنكرا . يسأل ويناقش ويتقصى . يعرف ما لم يخبره به اعوانه من أحوال الناس وشكاياتهم . يسجل ما يستمع اليه فى ذهنه ، فيطلب المسئول ، يسأله عما يشكو منه الناس ، ويقضى بالعدل . ينزل من القصر ، ويتقلد سيفه ، ويلثم ، ويركب جواده ، ويمشى فى أسواق المدينة ، وفى شوارعها . لا يختار وجهة معينة ، انما يترك للجواد مقوده ، ان سار يمينا فيمين ، وان شمالا فشمال . كل ما يشغله أن يطلع على أحوال الناس حيثما اتجه الجواد .

شوهد يتردد — ليلا — على أطراف المدينة ، حيث لا يتردد وزير ولا مسئول . ناقش الناس فى مشـــكلاتهم وما يعانون . حمل معاونوه أوامره الى المســـئولين فى دواوينهم . وكان يتنكر فى أزياء العامة ، التجار او الدراويش أو صـــيادى الأسماك . يصعب حتى على أقرب خلصـــائه أن يتبينه ، لا يتبعه حرس ولا مرافقون ، وربما أوقعه حرصه على العدل فى مآزق كان فى غنى عنها ..

كثرت الاسواق على ابواب النصر والفتوح والعيد وزويلة ، تلبى احتياجات القادمين المغادرين للمدينة ، والوافدين عليها ..

وقال شهريار — ليلة — لشهرزاد :

— انى أتمنى أحيانا لو جربت مصر ، كما فعل أنو شروان فى ولايته ، لأعلم هل بقى فيها موضع خرب لأعمره ، حتى تتم أمور البلاد ، وتنتظم الأحـــوال ، ويصـــــل كل شىء الى غايته المرجوة ..

لكثرة ما أساء من التصرف ، نظر الناس — فى البداية — الى احســـاناته بشىء من الريبة ، ثم اطمأنوا ، بتوالى الأحكام الصائبة — الى حكمه . لم يعودوا يأخذون عليه ما كانت تتسم به قراراته من طيش وقسوة . ايقنوا ان الله اذهب ما بنفســــه من مشاعر غاضبة ، وشفى صدره .

الليلة التاسعة والثمانون بعد الألف

قبل أن يغادر عبد النبى المتبولى باب النصر ، لأداء صـــلاة الفجر فى مســـجد الجاولى القريب ، لحقه صوت سعد الداخلى :

ـ أريدك فى مسألة مهمة ..

وقال للتساؤل فى عينى المتبولى :

ـ ليتك تأذن لنا بمغادرة القصر ..

لم يخف دهشته :

ـ الى اين ؟ ..

وهو يغالب الحرج :

ـ أعددت لنا بيتا فى قصبة رضوان ..

قال المتبولى فى دهشته :

ـ الا تخشيان غضب الملك ؟ ..

قال الشاب مدفوعا باستجابة المتبولى :

ـ لم تعد الحال كما كانت ، ولم يعد الملك هو الملك القديم ..

كان آخر ما استمع اليه المتبولى من رواة السيرة ، ما قاله رواة العنترية فى حارة المصامدة : اعترفت قبيلة بنى عبس بفارسها

عنترة ، وبزواجه من بنت عمه ، وسعدت بتعليق قصيدته على استار الكعبة ، مع معلقات مشاهير شعراء العرب ..

استطرد سعد موضحا :

ــ كما تعرف ، فان الملك انجب من شهرزاد ثلاثة ابناء ..

وقال بصوت هامس :

ــ قد يرزقنا الله بعد أشهر بمولودنا الأول ..

هتف الأب :

ــ ماذا تقول ؟! ..

ــ كان لابد لنا من الانجاب يوما ..

ــ الم احذركما قبل الزواج ؟ ..

فاجأته زهرة الصباح :

ــ لم تعد بواعث التحذير قائمة .. ولابد ان نحيا حياتنا ..

ارتج على المتبولى ، فغمغم ، وان لم يدر ماذا يقول . تلفت حوله فى حيرة ، ثم أطلق أف ف ف ف طويلة ، وانصرف ..

وكانت ذؤابات الشـــــمس تنفذ من الأشجار ، خارج الباب المفتوح .

الليلة التسعون بعد الألف

قال الراوى :

الأولى للنبى

والثانية لأيوب

والثالثة لصحبتى

والرابعة للمكتوب ..

افرح يا ولدى ! ..

مصر الجديدة ـ محمد جبريل ١٩٩١/٣/٨

للمـــؤلف

روايات :

١ ــ الأسوار (١٩٧٢) الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ نفد .

٢ ــ أمام آخر الزمان (١٩٨٤) مكتبة مصر ــ نفد .

٣ ــ من أوراق أبى الطيب المتنبى (١٩٨٨) الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ نفد .

٤ ــ قاضى البهار ينزل البحر (١٩٨٩) الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٥ ــ الصهبة (١٩٩٠) الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٦ ــ قلعة الجبل (١٩٩١) روايات الهلال .

٧ ــ النظر الى أسفل (١٩٩٢) الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٨ ــ الخليج (١٩٩٣) الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٩ ــ اعترافات سيد القرية (١٩٩٤) ــ روايات الهلال .

١٠ ــ زهرة الصباح (١٩٩٥) الهيئة المصرية العامة للكتاب

قصص قصـــيرة :

١١ ــ تلك اللحظة (١٩٧٠) نفد .

زهرة الصباح، هى الفتاة التى تنتظر دورها فى ليالى ألف ليلة. تخفق شهرزاد فى مواصلة الحكى، أو يمل شهريار. كيف استطاعت زهرة الصباح أن تحيا فى ظل الخوف كل تلك الليالى؟..

هذا ما يتناوله محمد جبريل فى هذه الليالى المتوازية مع ليالي ألف ليلة، مضفراً بإفادات من موروثنا الشعبى: الأسطورة والسيرة والحكاية والحدوتة، بما يقدم عملاً رائداً، غير مسبوق.

٤٥٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب